قيام الدولة الأيوبية

في مصر والشام

تأليف
الدكتور وفاء محمد علي
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب - جامعة أسيوط

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ



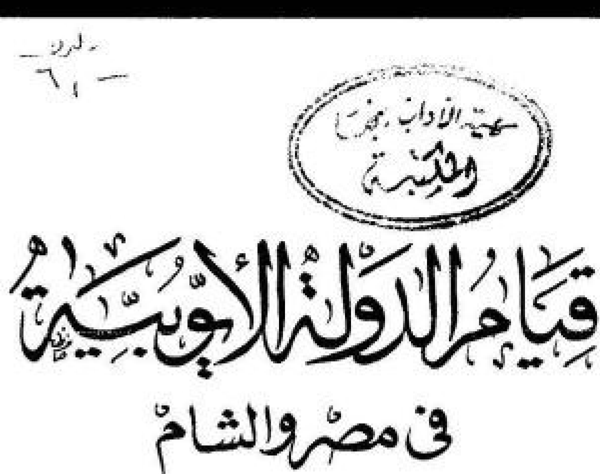
ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني / القاهرة
ص ب - ١٣٠ - ت ٣٩٢٣٠٦٧٠

اهداء من

احمد رزق

نسألكم الدعاء

صدقة جارية عنه وعن والديه



قيام الدولة الأيوبية

في مصر والشام

تأليف
الدكتور وفاء محمد علي

أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد
كلية الآداب - جامعة أسيوط

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني / القاهرة
ص ب ١٣٠ - ت ٧٦٠٥٢٣

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا

صدق الله العظيم

« بسم الله الرحمن الرحيم »
« بين يدى الكتاب »

هذا بحث جديد يضاف الى ماكتب عن دولة الأيوبيين ، خصصت به قيام هذه الدولة فى مصر والشام ، وفى اعتقادى أن ماكتب عن هذه الدولة ـ رغم قيمتها المؤثرة ـ فى تاريخ الإسلام ـ لايصل إلى الحد الذى ينبغى أن تناله من رعاية وعناية ، فقد كانت هذه الدولة بحق هى الأمل الذى تحقق بعد أن راود رجالاً من الأبطال عملوا جاهدين من أجل تحقيق هدفين أحدهما وسيلة إلى الآخر : الهدف الأول هو تحقيق الوحدة العربية ، والهدف الثانى هو تحرير الأرض التى دنّسها الوجود الصليبى أمداً طويلاً فسبق على درب الجهاد الطويل أبطال مثل مودود ، وزنكى ثم نور الدين محمود الذى غرس البذر ، ولم ينعم بالثمار .

وقد قسّمت هذا البحث إلى أربعة فصول ألحقتهم بعدة ملاحق :

الفصل الأول بعنوان : الحالة فى مصر قبيل قدوم صلاح الدين تناولت فيه على الخصوص فترة مايسمى بتحكم الوزراء ، تلك الفترة التى بدأت بعهد بدر الجمالى الذى جاء من عكا بناء على دعوة الخليفة المستنصر بالله له بعد أن سادت الفوضى أنحاء البلاد نتيجة الصراع بين طوائف الجند المختلفة التى كانت تكوّن الجيش الفاطمى ؛ وما أعقب ذلك من تناحر بين الوزراء شمل : الصراع بين ابن السلار وابن مصال ، والصراع بين عباس الصنهاجى وضرغام ، والصراع بين رزيك بن الصالح طلائع وشاور ؛ ثم الصراع بين ضرغام وشاور ، ذلك الصراع الذى انتهى بلجوء شاور إلى نور الدين محمود فى الشام : وطلبه العودة إلى كرسى الوزارة فى مصر على أسنة السلاح النورى ، ثم الصراع بين النوريين والفرنج والذى شمل

صلاح الـدين يوسف ابن أخيه أيوب ، والتى انتهت ثالثتهـا باستقـرار شيركوه فى مصر وتولية الوزارة الفاطمية للخليفة العاضد بالله ، ولم يمكث شيركوه طويلاً فى الوزارة حيث توفى بعد قليل فتحول الأمر الى صلاح الدين .

وكان الفصل الثانى فى هذا البحث بعنوان : « الدور الأيوبى حتى وفاة نور الدين ، وناقشت فيه بعض الموضوعات التى ثار حولها الجدل وحاولت أن أدلى فيها بدلوى معتمداً على المصادر الأصيلة والتى عاصرت الأحداث لاثبات ماذهبتُ إليه وقد تعرضت فى هذا المجال لدعوى أن إعلان الخلافة العبـاسية فى مصر وإحـلالها محل الفاطمية « لم ينتطح فيه عنزان » وكأن المصريين « عبيد لمن غلب » كما روّج بعض المؤرخـين وأثبتت أن ثمـة حركات ثورية قامت تناوىء الحكم الجديد امتدت من أقصى الشمال الى أقصى الجنـوب : فى الاسكنـدرية ، فى القاهرة ، فى قوص وفى أسوان استهـدفت عودة الـدولـة الفـاطمية « دولة المصريين » وأبدت العواطف الشعبية المصرية هذه الحركات .

كما نالت العلاقات بين نور الدين محمود وصلاح الدين ـ والتى تعددت فيهـا الآراء ـ حظا من هذه الدراسة ، وأثبت أنه خلاف لم يتخذ صورة الغدر أو الخيانة من صلاح الدين لنور الدين وأن ما طرأ بينهما من خلاف كان مجرد خلافٍ فى الـرأى والـوسيلة ولكنـه لم يكن خلافاً فى الأهداف والغايات ، والخلاف فى الرأى « لايفسد للود قضية » كما يقال .

أما الفصل الثالث فتناول الدور الأيوبى بعد وفاة نور الدين وولاية ابنه الصغـير الملك الصـالـح إسماعيل ، مما هيأ لصلاح الدين فرصة تحقيق طموحه بإيجاد وحدة مصرية شامية تكون الركيزة للانطلاق لتطهير الأرض من الفرنج الغاصبين . ومن هنا كان على صلاح الدين فى هذه المرحلة مواجهة ثلاثة مصاعب أوعقبات هى : الزنكيون ـ الفرنج ـ والباطنية ؛ وبينت ماقام به صلاح الدين فى هذه المرحلة وما حققه من نجاح .

أما الفصل الرابع والأخير فجاء بعنوان « تدعيم الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، وكان صلاح الدين قد فاز باعتراف الخلافة العباسية به ملكا لمصر والشام ، وقد تمكن صلاح الدين فى هذه المرحلة من الاستيلاء على بقية بلاد الشام ، واستولى على حلب بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل وتمكن من اخضاع صاحب الموصل لسلطانه ، ثم بينت كيف حارب الفرنج ـ الذين كانوا يسعون بوحى من أنفسهم وبدعوة من الزنكيين الخائفين من صلاح الـدين على بلادهم ـ بعد ذلك بجبهة إسلامية موحدة من مصر والشام والجزيرة العراقية فاستولى على قلاعهم ومدنهم وحقق عليهم نصره الساحق فى حطين سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م ، وحقق أمل المسلمين قاطبة بتحرير بيت المقدس فى نفس سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م ، ثم أوضحت رد الفعـل الأوربى الغـربى لسقـوط بيت المقـدس والـذى تمثل فى الحملة الصليبية الثالثة التى لم أتناولها بإسهاب كبير حيث أن أهم مافيها ما أسفرت عنه من نتائج تمثلت فى صلح الرملة الذى كان يعنى أكثر من أى شىء أن الحملة الصليبية الثالثة فشلت فشلاً ذريعاً فى تحقيق الهدف الذى جاءت من أجله وهو استعادة بيت المقدس . على أن صلح الرملة وإن تم على غير هوًى من صلاح الدين إلا أنه جاء فى وقته المناسب الذى خطته يد العناية الإلهية حيث مالبث أن توفى صلاح الدين بعده بقليل ولم يتجاوز الخامسة والخمسين أو السادسة والخمسين من عمره تاركاً لأولاده وإخوته من بعده دولة أيوبية مترامية الأطراف .

وختمت البحث بسؤال هو : هل ملأ خلفاء صلاح الدين الفراغ الذى وجد بموته ؟ ولعل الإجابة عنه تأتى فى بحث آخر قريب إن شاء الله .

وإننى أرجو من الله جلّ وعلا أن أكون قد وفقت فى إضافة لبنة إلى صرح الدراسات فى الدولة الأيوبية ، والحمد لله فى الأول والآخر ؛ وعليه وحده قصد السبيل .

القاهرة ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م

الفصل الأول

« الحالة فى مصر قبيل قدوم صلاح الدين »

اضطرت الظروف التى سادت مصر فى العصر الفاطمى الثانى الخليفة المستنصر بالله فى سنة ٤٦٦هـ /١٠٧٣م أن يستنجد ببدر الجمالى والى عكا لينقـذه من تلك الفتنـة المـدمرة التى نشأت فى عهده بين طوائف الجند المختلفة ، فجاءه بدر الجمالى بجنده من الأرمن [١] وتولى الوزارة للمستنصر وزارة سيف وقلم ، وأعاد الأمن إلى البلاد ، ووضع الأمور فى نصابها ، وصارت له الكلمة العليا فى مصر مدة عشرين سنة [٢] من سنة ٤٦٧هـ إلى سنة ٤٨٧هـ (١٠٧٤ - ١٠٩٤م) ، فعمر الريف ، وأرخص الأسعار ، وأصلح سودان الصعيد ، واستدناهم إليه ، وجاءه منهم الكثير « فصلحت الحال فى مصر بعد فسادها ، وعمرت بعد خرابها [٣] » ؛ ولم يبق للمستنصر مع بدر أمر ، وألقى إليه مقاليد مملكته ، وسلم إليه أمور خلافته [٤].

ويعرف العصر الذى بدأ ببدر الجمالى « بعصر الوزراء العظام » ، وذلك أن الوزراء أصبحوا هم أصحاب السلطة دون الخلفاء [٥]، وجاء فى سجل

---

(١) فى ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٤٦٦ هـ استدعاه المستنصر من عكا التى كان والياً عليها ، ووعده الخليفة بتملك البلاد والاستيلاء عليها ، فاشترط عليه أن يقدم بعسكر معه ، وأنه لايبقى أحداً من عساكر مصر ولا وزرائهم ، وكان معظم العسكر الذين استعان بهم من الأرمن ، وبهذا دخل عنصر جديد فى تكوين الجيش الفاطمى إلى جانب الأتراك والسودان والمغاربة والمصطنعة أى المرتزقة . انظر اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٢١١ المتن ؛ وحاشية رقم ٤ ومصر فى العصر الفاطمى / الشيال ص ٤٤٦

(٢) مرآه الزمان ج ٩ ص ٤٢٦

(٣) اتعاظ الحنفا ج ٢ ص ٣٢٩

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٢٩

(٥) مصر العربية الاسلامية ص ١٩٦ ، وهم بهذا المعنى وزراء تفويض لا وزراء تنفيذ كما كان

تولية بدر الوزارة مايدل على ذلك ، فجاء فيه : « وقد قلّدك أمير المؤمنين ماوراء سريره »[٦] .

وانتهى الأمر بالخلفاء الفاطميين إلى أن تركوا وزراءهم يلقبون أنفسهم بالملوك ، ويوزعون مزايا الحكم كما يشتهون[٧] .

وبعد وفاة الخليفة المستنصر بالله فى سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م[٨] ، قام بالخلافة ابنه المستعلى بالله (٤٨٧ ـ ٤٩٥هـ) (١٠٩٤ ـ ١١٠٢م) وهو فى حوالى العشرين من عمره[٩] ، وكان الوزير فى عهده هو الأفضل بن بدر الجمالى[١٠] وسيطر على المستعلى سيطرة كاملة ، حتى غدا وليس له معه حكم ، ونشبت فى عهد المستعلى هذا الصراعات بين المستعلية والنزارية التى انتهت بمقتل نزار[١١] .

وعلى الجملة اختلفت الأحوال فى عهد المستعلى ، وانقطعت من أكثر

(٦) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٠٤ فى العصر الفاطمى الأول

مصر فى العصر الفاطمى / الشيال ص ٤٤٥

وانظر مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٤٥

(٧) قصة الحضارة ج ٢ مجلد ٤ ص ٣١٨ .

(٨) وكان بدر الجمالى قد توفى قبله ، كما مات فيها كذلك الخليفة المقتدى بالله العباسى ، ولذلك عرفت تلك السنة بسنة موت الخلفاء . انظر شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣ .

(٩) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٦١ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ١١ وكذلك النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٤٢ ويجعله صاحب درر التيجان ٤٤٩ سبع عشرة سنة .

(١٠) اسمه شاهنشاه ، أما الأفضل فهو لقبه ، حيث استحدثت فى عهده عادة اتخاذ النعوت الشخصية ، على مثال نعوت الخلفاء ، وسرى استعمالها بعد ذلك فى فلقب شاهنشاه نفسه بالأفضل ، كما سيلقب أبو على أحمد بن الأفضل بالأكمل .

الألقاب الاسلامية ص ٧٢ ، ومصر فى العصر الفاطمى ص ٤٤٥

(١١) وكان الحسن بن الصباح القائم بدعوة الاسماعيلية النزارية ، فكلّم المستنصر فى إقامة الدعوة له فى بلاد العجم ، فأذن له فى ذلك سرا ، فاظهرها ابن الصباح ، واستولى باسمه على القلاع والبلاد ، وكان ابن الصباح سأل المستنصر بالله : من إمامى بعدك ؟ فقال : ابنى نزار ، وهو أكبر أولاده فلما مات المستنصر عدل الأفضل الوزير عن إقامة الدعوة لنزار وأقامها للمستعلى .

مدن الشام دعوة الفاطميين ، وانقسمت البلاد بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الصليبيين[١٢] وكان الأفضل فى عهد المستعلى قائماً بتدبير أمر الدولة تدبير سلطنة وملك ، لاتدبير وزارة ، وامتدت سطوته إلى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ـ ٥٢٤هـ) (١١٠١ ـ ١١٣٠م) ، وكان حاجزاً عليه ، ليس له معه أمر ولانهى ، وكان هو الخيفة فى الظاهر ، وليس للآمر معه من الأمر شىء حتى قتل الأفضل بن بدر الجمالى فى أول رمضان سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م[١٣] .

وكان الثالث من أفراد أسرة بدر الجمالى هو أبو على أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالى الملقب بكتيفات المنعوت بالأكمل والذى استوزره الخليفة الحافظ فطغى واستبد به ، وحجر عليه ، بل وسجنه فيما بين الديوان وباب العيد[١٤] ، واستولى على ماق القصر من الذخائر والأموال ، وقال : هذا مال أبى وجدى[١٥] ـ وذلك لأن الخليفة الآمر كان قد نقل أموال وزيره الأفضل القتيل إلى دار الخلافة ـ وبلغت الأمور بالأكمل أن قطع الأذان بحى على خير العمل ، وضرب الدراهم باسمه ، واعتقل الخليفة ، وخطب للقائم المنتظر ، فألب ذلك القلوب عليه ، وحمل عشرة من صبيان الخاص عليه خارج باب الفتوح ، وطعنوه حتى قتل ، وذلك فى يوم الثلاثاء ١٦ من محرم سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م ، ثم إن الخليفة الحافظ أخرج من الخزانة ، وأعيدت الأموال والذخائر إلى قصره مرة أخرى[١٦] ، واعتبر اليوم الذى قتل

(١٢) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٧

(١٣) اشترك فى قتله أربعة رجال من الباطنية ، قتل منهم ثلاثة وقطّعوا وأحرقوا ، وكان عمر الأفضل لدى قتله سبعاً وخمسين سنة بعد أن وزر ٢٨ عاماً ؛ وخلف الكثير من الأموال .

درر التيجان ص ٤٥٦ . اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٦٠ ـ ٦١ .

وشذرات الذهب ج ٤ ص ٤٧

(١٤) أحد أبواب القصر الفاطمى الكبير ، وأمامه رحبة سميت باسمه . حاشية ٢ ج ٣ ص ١٤٠ اتعاظ الحنفا

(١٥) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩

(١٦) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ١٤٣ وشذرات الذهب ج ٤ ص ٧٨ وانظر النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨

فيه الأكمل عيداً للاسماعيلية وسمى « عيد النصر » : وظلت الدولة تحتفل به سنوياً فى عهد الحافظ ، وفى عهود من تلاه من الخلفاء إلى أن دالت الدولة وزالت [١٧] .

وبموت الأكمل انتهى عصر تحكم أسرة بدر الجمالى فى الفاطميين الذى ابتدأ بدخول بدر فى سنة ٤٦٦هـ / ١٠٩٣م ، وانتهى بمقتل حفيده الأكمل سنة ٥٢٦هـ /١١٣١م ، وفى تسلطهم جميعاً على الأحوال فى مصر يقول ابن تغرى بردى : « إن أحمد هذا ووالده وجده ، كانوا أصحاب مصر ، والخلفاء معهم تحت الحجر والضيق ، وتصديق ذلك ما خلفه الأفضل شاهنشاه من الأموال والمواشى وغير ذلك ، وإنما كان يطلق عليهم الوزراء ، لكون العادة جرت بأن الملك للخليفة [١٨] .

الصراع على الوزارة :-

وفى عهد الخليف الحافظ بدأت تطل مشكلة جديدة تعمل عملها فى إضعاف الدولة الفاطمية .

وذلك أن الخليفة الحافظ ولّى بهرام الأرمنى النصرانى الوزارة ونعت بهرام « بسيف الإسلام تاج الملة [١٩] » ، وكادت تقع بسبب ذلك فتنة طائفية ، فقد ازداد نفوذ الأرمن فى البلاد بعد ما جاءوا بأعداد وفيرة إلى مصر ، وبالغ أخوه المسمى « الباساك » فى استباحة أموال الناس ، والمبالغة فى إيذائهم وظلمهم ، مما أثار موجة عارمة من السخط فى أوساط الناس ، كما عظم على الأمراء ذلك ، فاستغاثوا بأبى الفتح رضوان بن ولخشى متولى الغربية يومئذ ، الذى جمع جموعه وتوجه لمحاربة بهرام [٢٠] ، وتمكن من هزيمته ؛ وعندما سرى خبر هزيمة بهرام إلى قوص قتل الناس

(١٧) مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٥٢

(١٨) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٣٩ ، واستمرت وزارته سنة واحدة وعشرة أيام . درر التيجان ص ٤٦٢ .

(١٩) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ١٥٥

« الباساك » ومثّلوا به ، وأذن الخليفة الحافظ لرضوان بن ولخشى بالنزول فى دار الوزارة ، واتخذه وزيراً ، وتم ذلك فى يوم الجمعة ١٣ من جمادى الأولى سنة ٥٣١هـ /١١٣٦م .

وكان رضوان هذا خفيفاً عجولاً ، فأخذ يهين حاشية الخليفة ، بل انه همّ بخلع الخليفة نفسه ، وقال : « ماهو بإمام ، وإنما هو كفيل لغيره ، وذلك الغير لم يصح [٢١] .

ودبر الحافظ عليه حتى أثارها فتنة ضده ، وهزم رضوان ، فخرج إلى الشام ليتقوى منه بجند يعود بهم إلى حرب الخليفة الحافظ ، ولكنه عندما عاد هزمه جنود الحافظ ، ففر إلى الصعيد حيث قُبض عليه ، واعتقل ، غير أنه تمكن من الهرب من معتقله ، وخرج من نقب ، وثار بجماعة ، وكانت فتنة انتهت بقتله فى سنة ٥٤٢هـ /١١٤٧م [٢٢] .

الصراع بين ابن مصال وابن السلار :-

ولى الخليفة الظافر الخلافة بعد وفاة الحافظ فى سنة ٥٤٤هـ /١١٤٩ [٢٣] ، وقد دخلت مصر فى عهده فى فوضى الاضطرابات وزاد الصراع على السلطة بين الوزراء ، وتدخلت سيدات القصر وأميراته فى شئون الحكم نظراً لصغر سن الخليفة حيث كان فى السابعة عشرة من عمره ، وكان محور الصراع فى ذلك الوقت على وجه الخصوص يتركز بين الوزير ابن مصال وبين المظفر الملك العادل ابن السلار والى البحيرة والإسكندرية ، وذلك أن الخليفة الظافر استوزر ابن مصال بوصية أبيه له ولم يرض ذلك ابن السلار ، فاتفق مع ربيبه عباس على مناهضة ابن

(٢١) وذلك أن الحافظ ولى الحكم ولم يكن ابناً للامر وإنما هو ابن عمه حتى تضع زوجة الحافظ حملها الذى قيل أنه جاء بنتاً كما قيل أنه جاء ولداً ولكن الحافظ تخلص منه .

مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٥٠ - ٤٥٢

(٢٢) ابن القلانسى ص ٢٧٠ - ٢٧٣ ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ واتعاظ الحنفاج ٣ ص ١٨٣ - ١٨٤

مصـال ، ووقعت لذلـك الحـرب بينهما ، وتمكن ابن السـلار من دخول القاهرة فى يوم الأربعاء ١٥ من شعبان سنة ٥٤٤هـ /١١٤٩م ، فوقف على القصر ، وسيرّ إلى الظافر وإلى من يدبره من النساء يعلم بحاله [٢٤]، وانتهى الأمـر بولايته الوزارة ، وظل يحقد على الخليفة الظافر الذى كان يميل إلى ابن مصال ، وكذلك كان فى نفس الخليفة نفور من ابن السلار ، وكان ابن السلار سُنّيا مغالياً ، فأسقط الصبغة الشيعية ، وحوّل الشعائر الرسمية إلى المذهب السنى [٢٥].

وولى ابن السلار أمور جيشه عباساً ابن زوجته ، فسار عباس إلى ابن مصّال وهزم جنده على دلاص [٢٦]، وقتل ابن مصال ، وحملت رأسه إلى القاهرة وطيف بها على قناة وذلك فى يوم الخميس ١٣ من ذى القعدة سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م ، وتمكن ابن السـلار من فرض سيطرتـه على الخليفة « وتمكن ولم يكن للخليفة معه حكم [٢٧]» ، غير أن الأمور لم تستقر لابن السـلار حيث تآمر عليه عباس الصنهاجى ربيبه ، وتم بمعرفة نصر بن

(٢٤) تدخلت سيدات القصر وأميراته فى شئون الحكم بسبب تزايد سلطة الوزراء ، وما أصاب الخلفاء على أيديهم من المهانة ، فتدخلن للانتقام من بعض الوزراء لحماية بعض الخلفاء الصغار ، فبعد قتل الظافر مثلاً أرسلن شعورهن إلى طلائع بن رزيك للاستغاثة به ، وقذفن الوزير القاتل عباس وجنوده بالأحجار ، كما عملن على التخلص من ابن رزيك نفسه بعد ذلك .

(٢٥) أظهر ابن السـلار اعتناقه للمذهب السنى ، وصار شافعى المذهب ، ولما ولى الاسكندرية بعد وصول الحافظ السلفى الفقيه الشافعى فى ذى القعدة سنة ٥١١ هـ /١١١٨ م ، عامله بكل تجلة واحترام ، وأنشأ فى سنة ٥٤٦ هـ /١١٥١ م مدرسة للشافعية بالاسكندرية أسند إليه إدارتها ، وبهذا هيأ ابن السـلار لرجوع المذهب السنى إلى مصر . الفاطميون فى مصر ص ٢٩٦ .
وانظر مصر العربية الإسلامية ص ١٧٥ ، ١٧٦

(٢٦) دلاص : كورة بصعيد مصر على غربى النيل ، ودلاص مدينتها معدودة فى كورة البهنسا
معجم البلدان 1 ج ٢ ص ٤٥٩
وقوانين الدواوين ص ١٤٠

(٢٧) الكامل ج ٩ ص ٢٥

عباس قتل ابن السلار [٢٨]، وتشابكت الأحداث بعد ذلك لتنتهى بمقتل الخليفـة نفسـه على يد نصر بن عبـاس [٢٩]فى نصف المحـرم سنة ٥٤٩هـ /١١٥٤م [٣٠]وكما لقى الخليفة مصرعه بتلك الأيدى الأثمة لقى أخوا الخليفة نفس المصير على يد عباس حيث اتهمهما عباس بقتل الخليفة [٣١].

ولم تسر الأمـور وفق ماأراد المتـآمـرون ، حيث ثارت الفتنة بمصر ، وأبغض الناس قتل الخليفة ، وفى تلك الأثناء كاتبت بنات الحافظ طلائع بن رزيك ، وأرسلن إليه يستصرخن على عبـاس [٣٢]، ولبى طلائع بن رزيك النداء وسار من منية الخصيب [٣٣]فى صعيد مصر حيث ولايته ، وتمكن من هزيمة عباس الذى خرج هارباً إلى بلاد الشام ، ولكن الفرنج

(٢٨) وكان ذلك بتحريض من أسامة بن منقذ وموافقة من الخليفة الظافر . ابن القلانسى ص ٣١٩ ، ٣٢٠ والكامل ج ٩ ص ٤١ .

(٢٩) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٠٩ ، وفى كنز الدرر : الذى قتل الخليفة هو عباس نفسه ، حيث التقاه بسيفه وقاله له : « خليفة يقبل من أمر الصبيان » ثم قبض عليه وذبحه كنز الدرر ق ٣ ج ٦ ورقة ٣٠٦ .

(٣٠) الكامل ج ٩ ص ٢٥ « درر التيجان ص ٤٥٦ كان مقتله فى ٦ من المحرم ص ٤٦٩ ، ويشترك معه فى ذلك ابن ميسر . انظرج ٢ ص ٩٢ وقال صاحب شذرات الذهب ان مقتله كان فى شعبان .
شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٢

(٣١) والأخوان هما : أبو الأمانة جبريل ويوسف .
انظر فى ذلك الاعتبار حيث كان أسامة شاهد عيان
انظر أخبار مصر ج ٢ ص ٩٣ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢١٤

(٣٢) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٣ وأخبار مصر ج ٢ ص ٦٤
وانظر Saunders, Ahistory of Medieval Islam, P. 163
Lane- Poole, Hist. Of Egypt in the middle ages P. 173

(٣٣) بلد على شط النيل ، ميامناً للصاعد فيه ، كبير الأسواق والحمامات وسائر مرافق المدن . رحلة ابن جبير ص ٢٨ ، وفى القاموس الجغرافى لمحمد رمزى : على الضفة الغربية للنيل ، وهى منسوبة إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر من قبل هارون الرشيد
القاموس الجغرافى ج ٢

مالبثوا أن فتكوا به وقتلوه ، وقتلوا معه ابنه حسام الملك (٣٤)، ووقع نصر أسيراً فى أيدى الفرنج حيث أعادوه إلى مصر فى قفص من حديد بناء على طلب من أخت الظافر التى بذلت لهم الكثير من الأموال فى سبيل ذلك وأباحتهم مامعه ، وأدخل نصر إلى القصر وقد قطعت يده اليمنى ، وصلب سحراً على باب زويله ، وكان قتله نخساً بالمسال، وصفعاً بالنعال ، وقطع لحمه وشوى وأطعم إياه ؛ واشترك فى قتله على هذه الصورة نساء الظافر وجواريه (٣٥).

واستبد الصالح طلائع بن رزيك ، فسيطر على الخليفة الفائز (٥٤٩ - ٥٥٥هـ) ، وصار الخليفة معه ، وليس له من الخلافة إلا مجرد الاسم فقط ، وذلك لصغر سنه (٣٦). وبعد وفاة الفائز فى سنة ٥٥٥هـ استمرت سيطرة الصالح طلائع على الخليفة العاضد وزوجه من ابنته ليصير له الملك والخلافة معا (٣٧)، ولم يرض ذلك سيدات القصر فدبرن مؤامرة قتل فيها الصالح طلائع بن رزيك سنة ٥٥٦هـ /١١٦٠م (٣٨) وتولى الوزارة بعده ابنه رزيك بن الصالح .

شاور ورزيك :-

بدأ رزيك عهده بالظفر بقتلة أبيه ، وظفرهم ظفراً عجيباً بعد أن كانوا تشتتوا فى البلاد (٣٩)، وسار العادل رزيك سيرة عادلة فسامح الناس بما بقى

(٣٤) أخبار مصر ج ٢ ص ٨٥ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٣٥) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٢١ ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « فأقمن يضربنه بالقباقيب والزرابيل أياماً ، وقطعن لحمه ، وأطعمنه إياه ، ثم صلب ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣١١ ، بينما يقول صاحب شذرات الذهب : « فقطعوا يديه وقرضوا جسمه بالمقاريض وصلبوه على باب زويلة ، وبقى سنة ونصفا مصلوباً » شذرات الذهب ج ٤ ص ١٥٣ .

(٣٦) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٥٣ .

(٣٧) Wiet, l'Egypt Arabe, P.289

(٣٨) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٧٧
Kerr, The Crusades, P. 163

عليهم فى الدواوين ، وأسقط من الرسوم عن الناس مبالغ عظيمة .

وفى عهد رزيك تم زفاف أخته إلى الخليفة العاضد ، ذلك الزواج الذى كان وراءه الطمع فى الملك وإحكام القبضة على الخلافة الفاطمية .

وكان الصالح طلائع قد وضع بنفسه بذرة الخلاف على ابنه عندما عينّ شاور بن مجير السعدى ولاية قوص (٤٠)،وكان الصالح طلائع - أدرك خطأه هذا ، وندم على توليته لشاور على قوص ، حتى إنه أراد إعادته من الطريق ، ولكنه لم يتمكن من إعادته ، فى حين صمم شاور على المضى إلى ولايته ، ولو أدى الأمر الى التحدى وقال : « لابد لقوص من والٍ ، وأنا ذلك ، والله لاأدخل القاهرة ، ومتى صرفنى دخلت النوبة (٤١)» ، مما اضطر الصالح إلى تركه .

وكان الصالح طلائع بن رزيك يعد ولايته لشاور على الصعيد الأعلى إحدى ثلاث غلطات ارتكبها (٤٢). وحذر الصالح طلائع ابنه رزيك من شاور ، وطلب منه ألا يتعرض له بإساءة ، ولايغير سياسته تجاهه ، حيث أنه لايؤمن عصيانه والخروج عليه ، ولكن رزيك لم يعمل بنصيحة والده فجاءه الشر من حيث حذره ، وانتهت على يدى شاور دولة بنى رزيك (٤٣)» فقد عمل رزيك بمشورة بطانته التى زينت له عزل شاور ، وصرفه عن قوص حتى يتم له الأمر كله ؛ وإن كان هذا لايعنى أن رزيك

(٤٠) وكانت مصر فى العصر الفاطمى تنقسم إلى أربع ولايات كبيرة هى : ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد ، وولاية الشرقية وتشمل الأرض الواقعة شرقى فرع دمياط ، وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط من الشمال إلى الجنوب ، أما الرابعة فهى ولاية الاسكندرية ويضاف إليها البحيرة .

أنظر الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٤٤ د . جمال سرور

(٤١) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٤٢) والغلطتان الأخريان هما : بناء الجامع على باب زويلة ، فإنه مضرة على القاهرة ، وخروجه بالعساكر إلى بلبيس وتأخيره إرسالها إلى بلاد الفرنج ، وكان ذلك قد كلفه مائتى ألف دينار ، إنفاقاً

قد عدم الخلصاء الذين تميزوا ببعد النظر فقد أشار عليه سيف الدين حسين بن أبى الهيجاء بألا يتعرض لشاور وأن يبقيه على ولايته ، فرأى رزيك بعد تردد أن يعزله ، وولى مكانه الأمير نصر الدين شيخ الدولة بن الرفعة ولاية قوص (٤٤)، وكتب رزيك إلى شاور كتاباً يطالبه فيه بالتخلى عن ولايته وتسليمها إلى نصير الدين ، وأن يحضر إلى القاهرة ؛ ولم يقبل شاور بذلك ، وأرسل إلى نصير الدين الذى وصل فى طريق ولايته إلى أخميم قائلاً له : « ارجع ولاتحضر ، قولاً واحداً » ، فاضطر نصير الدين إلى العودة إلى القاهرة ؛ وجاهر شاور عندئذ بالعصيان على العادل رزيك ، فخرج إلى طريق الواحات ، وتوجه إلى تروجه (٤٥)، ووجد من الناس مؤيدين له فقوى أمره ، ولعل اجتماع الناس عليه يرجع إلى مالقوه على يد مماليك الصالح الذين زاد طغيانهم فى زمن رزيك ابنه حتى ضج الناس منهم (٤٦)، وقد سبّب ذلك قلقاً بالغاً لرزيك .

وقد توجه شاور بمن اجتمع معه فى طريقه إلى القاهرة ، والتقى بقربها بجيش رزيك الذى كان تعداده ثلاثة آلاف فارس ، فلم يثبت له ذلك الجيش ، بل انضم بعض أمرائه إلى جيش شاور ، وكان ممن انحاز إلى جيش شاور من جيش رزيك أبو الأشبال ضرغام ، ومن على شاكلته من الأمراء ، وكذلك بنو الحاجب ونظراؤهم ، مما عجّل بهزيمة جيش رزيك ، حتى إن حسين بن أبى الهيجاء كان أول من لاذ بالفرار وحسام بن فضة ؛ واستجار ابن أبى الهيجاء فى الحوف بطريف بن مكنزن أحد أمراء جذام فأجاره ، ومكّنه من الذهاب إلى المدينة المنورة حيث جاور بها مدة ومات فيها .

(٤٤) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٤٥) تروجة : قرية من أعمال البحيرة حالياً ، وكانت من أعمال الاسكندرية فى الطريق منها إلى القاهرة ، واشتهرت بزراعة الكمون . قوانين الدواوين ص ١٢٢ ، ٢٢٦ .

(٤٦) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٥٧ ، وقد وصف بعضهم ذلك الحال فقال :

أمنتم يابنى رزيك جهلاً فذاك الأمر تبعه الأمانى

أما رزيك فإنه لم يواجه جيش شاور ، وخرج إلى اطفيح (٤٧)، فقبض عليه مقدم العربان وأحد صنائع والده المعروف بسليمان بن الفيض ، وأخذ كل ماكان معه (٤٨)، وأسلمه إلى شاور الذى كافأة على ذلك شراً ، حيث قال : « ياسليمان لقد خبأك الصالح ذخيرة لولده حين استجاربك ، فأسلمته لى ، وأنا الآخر أخبئك ذخيرة لولدى » ثم أمر به فشنق (٤٩).

ثم أمر شاور بقتل العادل رزيك فقتل فى رمضان سنة ٥٨٥هـ ، وقدمت رأسه إلى شاور بدار الوزارة فى طشت (٥٠)، وبعث العاضد بخلعة الوزارة إلى شاور ، ولقبه « أمير الجيوش » وفى ذلك يقول صاحب الكواكب الدرية : « وكانت عادة خلفاء المصريين أنه إذا غلب شخص صاحب المنصب ، وعرفوا عجزه ، وقعوا للقاهر ، ورتبوه ومكّنوه ، فإن قوتهم إنما كانت تتم بعسكر وزيرهم (٥١).

وهكذا انتهت تلك المرحلة من الصراع بقتل العادل رزيك الذى انتهت بقتله دولة بنى رزيك (٥٢)، لتدخل البلاد من بعده فى دائرة جديدة من الصراع بين شاور وضرغام .

(٤٧) إطفيح : بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء النيل فى شرقية ، وفى قبلته مقام موسى بن عمران ، عليه السلام فيه موضع قدمه ؛ وهى من أعمال الاطفيحية .

انظر معجم البلدان ج ١ ص ٢١٧ وقوانين الدواوين ص ١٠٢

(٤٨) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٥٨

(٤٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٥٩ .

(٥٠) وقال فى ذلك عُمارة اليمنى وهو مشهور بوفائه :

أعْززْ علىّ أبا شجاع أن أرى ذاك الجبين مضرجاً بدمائه
ماقلبته سوى رجال قلّبوا أيديهم من قبل فى نعمائه

اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٥٩

(٥١) الكواكب الدرية ص ٤٥ .

(٥٢) وكانت مدة بنى رزيك فى الوزارة تسع سنين وشهرا وأيام ، وفى زال دولة بنى رزيك قال عمارة فى حضرة شاور .

شاور وضرغام :-

سرعان نشب الخلاف بعد تولى شاور الوزارة بينه وبين ضرغام بن عامر بن سوار الذى كان مقدما للأمراء البرقية كما كان صاحب الباب ، وانتهى الأمر إلى انقسام العسكر الى فرقتين : إحداهما تؤيد « شاور » ، والأخرى تؤيد « ضرغـام » ، وكان ضرغام « من نفسه وإخوته وأصهاره فى جيش عظيم [٥٣] » ، وكانت ثورة ضرغام على شاور بعد مضى تسعة أشهر من وزارة شاور وذلـك فى ١٨ من رمضـان سنة ٥٥٨هـ مستغلاً قتل شاور لرزيك فى حبسه ، والتقى الفريقان فى وقعة انتهت بهزيمة شاور ، وقتل ابنـه طى أكبر أولاده ، وكـذلك سليمان الطارى وهو الأصغر ، بينما أسر الكامل ثم قتل وتركت جثته ملقاةً بين القصرين مدة يومين ، وقد خرج شاور من القاهرة إلى الشام إلى الملك العادل نور الدين محمود ، فنهبت داره ، ودور أولاده وحاشيته ، « وذهب جميع ما نالوه من بنى رزيك [٥٤] » .

وتمكن ضرغام من الوزارة [٥٥] ، وكان ضرغام « فارس عصره ، كاتباً ،

— كان صالحـهـم يومـاً وعـادهـم
هم حركـوهـا عليهـم وهـى ساكـنـة
كـنـا نظن ، وبـعض الـظن مأثـمـة
فمـنـذ وقـعـت وقـوع النسر خانهم
ولم يكـونـوا عدوا ذل جانـبـه
ومـاقـصـدت بتـعـظيمى عداك سوى
ولـو شكـرت ليـاليهـم محافـظة
ولـو فتـحـت فمـى يومـاً بذمـهـم
والله يأمـر بالاحـسـان عارفـة

فى صدر ذا الـدسـت لم يقـعـد ولم يقم
والـسـلم قد تنـبـت الأوراق فى الـسـلم
بأن ذلـك جمع غير منهـزم
من كان مجتـمـعـاً من ذلـك الـرخـم
وإنـما غرقـوا من سيلك الـعـرم
تعـظيم شأنـك فاعـذرنـى ولاتـلُم
لعـهـدهـا لم يكـن بالـعـهـد من قدم
لم يرض فضـلك إلا أن يسـد فمـى
منـه وينهـى عن الـفحـشاء فى الـكلم

انظر اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٥٩

(٥٣) النكت العصرية ص ٦٨ .

(٥٤) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦١

(٥٥) فكان فى هذه السنة ثلاثة من الوزراء هم : رزيك بن الصالح وشاور وضرغام .

جميل الصورة ، فكه المحاضرة ، عاقلاً كريماً ، لايضع كرمه إلا فى سمعة ترفعـه أومداراة تتبعـه » ، وإن كان يعيبـه أنـه « كان أذنـاً متخيلاً على أصحابه ، وإذا ظنّ بإنسان شرًا جعل الشك يقيناً [٥٦] » فقتل كثيراً من الأمـراء المصريين [٥٧] ولكنـه شأنـه شأن شاور كان مغلوبـاً على أمره فى وزارته ، ففى حين كان الكامل بن شاور متحكماً فى عهد أبيه كان ضرغام مغلوباً على أمره مع أخويه ناصر الدين همام وفخر الدين حسام [٥٨] ، وكان همام كأنه مشارك لأخيه فى الوزارة « كل منهما يوقع ويقطع [٥٩] »

وفى سنة ٥٥٨هـ/١٦٦٣م سار الفرنج إلى ديار مصر بحجة عدم وفاء الفـاطميين له لهم بدفع الجزية السنوية [٦٠] ، وخرج ضرغام للقائهم ، ولكنه هزم ، وعقدت بينه وبين الفرنج هدنة على مال يدفعه إليهم [٦١] .

كما فتح ذلك الهجوم أعين الفرنج على مدى إمكانية فتح مصر الواسعة الثراء التى استشرى الضعف فيها [٦٢] .

واستغل شاور ما حدث له ، وماجرى على القاهرة من هجوم فرنجى لدى العادل نور الدين . وقد أفسح له نور الدين فى رحابه ، ولم يستمع لدعوة ضرغام إليه بالقبض على شاور وأظهر له غير مايبطن ، وبدأ نور الدين يفكر فعلياً فى التدخل فى أمور مصر لاسيما وقد عرض شاور عليه فى مقـابل إعادته ، إلى منصب الوزارة ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء ويتصرف بأمره [٦٣] ، وكان نور الدين يرمى من وراء ذلك إلى تحقيق

(٥٦) إتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦١ .

(٥٧) الكامل ج ٩ ص ٨١ .

(٥٨) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦٢ .

(٥٩) نفس المصدرج ٣ ص ٢٦٢

(٦٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٨١

(٦١) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٦٤

خطته التى كان يهدف من ورائها إلى توحيد الجبهة الإسلامية توطئة لمقاومة الخطر الفرنجى والقضاء عليه بالاضافة الى رغبته فى زيادة ملكه (٦٤) كما رأى نور الدين فى ضرب القوى الفرنجية فى مصر امتداداً لدولته حتى يحيط بقوى الفرنج وأن يلقى بغزاة الغرب إلى البحر (٦٥). وإن كانت الأخطار التى كانت تحول بين نور الدين ، وبين التدخل فى شئون مصر . مازالت قائمة : فهو يخشى ماقد تتعرض له قواته نتيجة لكون الفرنج فى طريقه إلى مصر قد يقطعون عليه خطوط مواصلاته فى الذهاب والإياب ، وكان لتدخل شيركوه (٦٦) أثره فى دفع نور الدين إلى إجابة شاور إلى مطلبه ليتسنى له أن يكون نائباً فيها عن نور الدين ، فيحقق بذلك أمله فى ولاية ضخمة ، يمكن أن يتصرف فى شئونها مستقلاً ولو إلى حدٍّ ما بدلاً من خضوعه التام لنور الدين باعتباره أحد قواده فى بلاد الشام ، ولاشك أن اضطراب الأحوال فى مصر سيجعل له اليد العليا فى مصر كما كانت لبدر الجمالى فيما مضى (٦٧).

استقر رأى نور الدين على إرسال شاور إلى مصر فى صحبة أسد الدين شيركوه فى أولى الحملات النورية على مصر (٦٨).

حملة شيركوه الأولى على مصر سنة ٥٥٩هـ

وقد تم ارسال هذه الحملة بعد سنة كاملة من لجوء شاور إلى نور الدين (٦٩) وكان اللقاء بين شاور فى الجند الشامى وضرغام فى بلبيس ،

(٦٤) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٦٤ وانظر مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٥٤ .

(٦٥) Saunders , Ahistory Of Medieval Islam, P. 164

(٦٦) وهو أسد الدين شيركوه بن شاذى بن مروان احد أمراء نور الدين ونائبه على حلب .
اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٦٥

(٦٧) مصر والشام والصليبيون ص ٩٥ .

(٦٨) شذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٦ والكامل ج ٩ ص ٨٤ .

وذلك بعد أن استولى على الأقاليم الشرقية ، على أن كثرة العكسر المصرى قد بثت الخوف فى أسد الدين شيركوه ، حيث كان يواجه قوات تبلغ ستة آلاف بقيادة الأمير ناصر الدين همام ، ولكن شاور هوّن أمرهم على شيركوه وقال له : « لايهولنك ماتشاهد من هذه الجموع فأكثرها حاكة وفلاحون يجمعهم الطبل وتفرقهم العصا ، فما ظنك بهم إذا حمى الوطيس ، وكلبت الحرب ، وأما الأمر فإن كتبهم وعهودهم معى وسترى إذا التقينا ، لكنى أريد منك أن تأمر العساكر بالاستعداد (٧٠).

وتمكن شيركوه بتوجيه من شاور خديعة المصريين حتى لجأوا إلى الراحة ثم فاجئوهم ، وتمكنوا من هزيمتهم ، وخرج قائدهم ناصر الدين همام ، بينما اختفى الأمير حسام فى مدينة بلبيس ، ثم أُسرِ بعد أن دلّ عليه بعض الكنانية .

وقد توجه همام إلى القاهرة ليخبر ضرغاما بما حل بجيشه ، وعندئذ أخذ ضرغام يجمع صفوفه لكرّة جديدة على الجيش الشامى القادم إلى القاهرة ، وتمكن الجيش الشامى بعد نضال مرير من دخول القاهرة ؛ ولعب شاور دوراً كبيراً فى تمكين الجيش الشامى من ذلك ، حيث كان يركب فى كل يوم فى مصر ويؤمن أهلها ، ويمنع الأتراك من التعرض لهم ، فى حين جانب الصواب ضرغاماً فراح يتوعد لحرق مصر على أهلها من أجل أنهم مكنوا شاوراً من دخول البلد ، ولسوء سيرته فيهم ، حيث استولى على أموال الأوقاف لإمداد جنده بالمال .

وقد لجأ ضرغام إلى الخليفة العاضد طالباً عونه ، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك ، وبلغ بضرغام الحال إلى أن وقف تحت القصر الفاطمى طالباً من الخليفة أن يطل عليه من الطاق وهو يقول : يامولانا كلمنى ، يامولانا أرنى وجهك الكريم ، يامولانا بحرمة أجدادك على الله (٧١).

(٧٠) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٦٧

وبلغ الحال بضرغام إلى أن صار فى ثلاثين فارس من أتباعه فقط ، وهكذا أصبحت الأمور ممهدة أمام شاور الذى بعث إلى الخليفة يستأذنه فى دخول القاهرة ، فأذن له ، ودخل شاور القاهرة ، وعاد إلى الوزارة (٧٢) .

أما ضرغام فقد تمكن منه بعض الشاميين ، وبعض غلمان شاور ، وتمكنوا من قتله ، واحتزّت رأسه بالقرب من مشهد السيدة نفيسة فى يوم الجمعة ٢٨ من جمادى الآخر سنة ٥٥٩هـ ، وذلك بعد تسعة أشهر من وزارته (٧٣)، وجىء برأسه إلى شاور ، فأمر برفعها على قناة ، يطاف بها فى شوارع القاهرة ، وقد رأى عمارة اليمنى رأس ضرغام ، وهى يطاف بها على الخليج ويصف عمارة ذلك فيقول : « ولما حازوا برأسه على الخليج ، وكنت أسكن صف الخليج بالقاهرة قلت ارتجالاً :

أرى حنك الوزارة صار سيفاً يجد بحده صيد الرقاب
كأنك رائد البلوى وإلا بشير بالمنية والمصاب (٧٤)

قال المقريزى » فكان كما قال عمارة (٧٥)» .

وقد أخرج شاور ابنه الكامل من دار ملهم أخى ضرغام التى كان معتقلاً بها ، وكان بصحبة الكامل فى الاعتقال القاضى الفاضل فصارا صديقين ، وقدم الكامل صديقه إلى أبيه شاور ومدحه عنده ، وأثنى عليه ، فسماه شاور : « القاضى الفاضل » وكان يعرف قبل ذلك بالقاضى الأسعد (٧٦)، وسوف يبرز دور القاضى الفاضل على مسرح الأحداث فى عهد صلاح الدين .

وقرىء سجل شاور بوزارته الثانية فى ٤ رجب سنة ٥٥٩هـ ، وكان مما

(٧٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧١ وشذرات الذهب ج ٤ ص ١٨٧ وانظر مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٥٥ .

(٧٣) الكامل ج ٩ ص ٨٥ .

(٧٤) النكت العصرية ص ٧٧ .

(٧٥) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٧٢

جاء فى سجل وزارته : « إن أمير المؤمنين يمدك فى ذلك بدعائه ، ويعدك لتدبير دولته ، وقمع أعدائه ، ورآك وإن أبعدتك الضرورات عن بابه ، وأنأتك الحادثات عن جنابه ، أنك وزيره المكين ، وخالصته القوى الأمين الذى لاينزع عن شمس وزارته ، ولايؤثر غير سلطانه ومملكته (٧٧) .

وكان أسد الدين شيركوه فى خلال ذلك مخيماً بناحية المقس ، وكان يخرج إليه وإلى رجاله فى كل يوم سائر أصناف الأطعمة ، وأراد العاضد أن يخلع عليه ، وأعد له ملبوساً وسريراً مرصعاً بالجوهر له قيمة عظيمة كان الخليفة الآمر بالله قد عمله ، ولكن شيركوه أبى ذلك ، فقد كان مايهمه هو تنفيذ المهمة التى جاء من أجلها ، وإمضاء الاتفاق الذى تم مع شاور ، فأرسل إلى شاور يستعجله الوفاء بما عاهد عليه ، وقال له : « قد طال مقامنا فى الخيم ، وضجر العسكر من الحر والغبار (٧٨)» ، وكان مافعله شاور أن أرسل إلى شيركوه ثلاثين ألف دينار ، وطلب منه الرحيل ، وصمم شيركوه على تنفيذ ماأمره نور الدين محمود فأرسل الى شاور يقول : « إن الملك العادل نور الدين أوصانى عند انفصالى عنه : إذا ملك شاور ، تكون مقيماً عنده ، ويكون لك ثلث مُغَلّ البلاد ، والثلث الآخر لشاور والعسكر ، والثلث الثالث لصاحب القصر ويصرفه فى مصالحه (٧٩)» ، وأنكر شاور ذلك ، وتنكّر لوعده لنور الدين ، وأرسل إلى شيركوه يقول : « إنما طلبت نجدة ، وإذا انقضى شغلى عادوا ، وقد سيرت إليكم نفقة فخذوها وانصرفوا ، وأنا أرضى نور الدين ، وأصر شيركوه على موقفه ، وقال : « لايمكننى مخالفة نور الدين ولاأنصرف إلا بإمضاء أمره (٨٠)» .

وإزاء هذا الموقف الصلب من شيركوه ، وإصرار شاور على المماطلة والعودة فى وعوده ؛ كان لابد من الصدام المسلح بين الطرفين ، فاستعد

(٧٧) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٣ هامش ١ .

(٧٨) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٧٣

(٧٩) نفس المصدر ج ٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤

شاور لمحاربة من استنجد به ، فى حين تأهب شيركوه لحرب شاور ، وبعث بابن أخيه يوسف بن أيوب الذى كان مصاحباً له فى هذه الحملة بطائفة من الجيش إلى بلبيس ، ليجمع مايلزم الجيش من الغلال والأتبان .

ومن ناحية أخرى عسكر شاور أرض الطبالة ، وتم اللقاء بين جيشى شاور وشيركوه فى ٢٣ من شعبان سنة ٥٥٩هـ فى كوم الريش (٨١)، وكاد شيركوه أن يدخل القاهرة ، وقد ظل محاصراً لها حتى التاسع من رمضان ، ولم يجد شاور أمامه غير الاستنجاد بعمورى ملك بيت المقدس (٨٢)، فكتب إليه يستنجده ، ويخوفه من تمكن عسكر نور الدين فى مصر ، ويخبره أنه متى استقروا فى البلاد قلعوه منها ، وأطمعه بالأموال ، فجعل له عن كل مرحلة يسيرها ألف دينار ، وقد مثّل ذلك بالنسبة للفرنج فرصة ذهبية طمعوا من ورائها إلى ملك مصر (٨٣).

ولم يجد شيركوه ، والحال كذلك ، غير التوجه إلى بلبيس حيث كان يوسف بن أيوب أعد له من الغلال وغيرها مايهيىء له مجابهة الفرنج فى حرب قد تطول ، وتوجه شاور فى عسكر مصر ، والفرنج فى عسكرهم إلى لقاء شيركوه ، وحاصروه فى بلبيس واستمر الحصار مدة ثلاثة أشهر ، أصر فيها شيركوه على الصمود ، وألا يتزحزح من موقعه (٨٤).

(٨١) بلدة بين أرض البعل ومنية الشيرج . كان النيل يمر بغربيها بعد مروره بغربى أرض البعل وكانت من أجمل متنزهات القاهرة ، يرغب أعيان الناس فى سكناها ، والمتنزه بها ، وفى سنة ٨٠٦هـ زاد النيل ، وخرب الدرب الذى كان يصل بينها وبين أرض الطبالة ، فتوالت المحن وخربتها ، وفى ذلك يقول المقريزى : ففزاً كأنك لم تك تلهو بها فى نعمة وأوانس أتراب .

أتعاظ الحنفاء ج ٣ ص ٢٧٤ هامش ٤

(٨٢) تسميه المصادر العربية مرى ، أمورى ، عمورى وهو أملريك الأول Amalrek ، حكم بيت المقدس بين سنتى ٥٥٧ ــ ٥٦٩ هـ / ١١٦٢ - ١١٧٤ م بعد وفاة بلدوين الثانى Balduin II وكان فى السابعة والعشرين من اعتلائه العرش .

أتعاظ الحنفاء ج ٣ ص ٧٦ — حاشية ٢

(٨٣) Schlumberger, Campagnes du roi Amaury de Jerusalem, P. 58

وأدرك نور الدين محمود فى الشام مدى حرج قواته فى مصر ، وكان عليه أن يضغط على عمورى ليجبره على ترك مصر ، فهاجم بعض ممتلكاته (٨٥)، واستولى على حارم (٨٦)، ووقع فى أسره بوهيمند الثالث BOHEMOND III صاحب أنطاكية وريموند الثالث RAYMOND III صاحب طرابلس (٨٧)، وصارت أنطاكية بذلك تحت التهديد المباشر لنور الدين ، لو أراد الاستيلاء عليها لتمكن من ذلك ، ولكنه خشى من استنجاد أهلها بصاحب القسطنطينية ، الذى قد يمثل خطراً أشد من خطر بوهيمند (٨٨) ، وتوجه نور الدين إلى بانياس (٨٩)، واستولى عليها وملأها بالعتاد والرجال (٩٠)وشاطر الفرنج فى أعمال طبرية وقرروا له مالاً فى كل سنة على الأعمال التى لم يشاطرهم عليها (٩١)؛ وفتّ ذلك فى عضد عمورى فاضطر إلى توقيع صلح بمقتضاه خرج الجيشان النورى والفرنجى من مصر ، وقد تقرر الصلح على أن يدفع شاور لشيركوه ثلاثين ألف دينار أخرى حملت إليه ، وكان شيركوه مضطراً إلى توقيع ذلك الصلح بعد أن

(٨٥) وكانت قد صارت إلى عمورى ممتلكات أخيه بلدوين الثالث الذى توفى فى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م دون أن يعقب ولداً .

Cam Mid. History Vol P. 308

(٨٦) حصن حصين ، وكورة جليلة تجاه أنطاكية . معجم البلدان ج ٢ ص ٢٠٥ وهى على مرحلتين من حلب فى جهة الغرب ، وبين حارم وانطاكية مرحلة .

تقويم البلدان ص ٢٥٩

(٨٧) .قد نجح عمورى فى جعل نور الدين يفرج عن بوهيمند الثالث ، كما تم الافراج عنه لقرابة بوهيمند من الامبراطور البيزنطى حيث كانت أخته متزوجة من الامبراطور

Grousset, Histore des Croisades... Vol 2, P. 470

(٨٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٤٢ وانظر حاشية ٢ فى نفس الصفحة ، مفرج الكروب ج ١ ص ١٤٥

(٨٩) بانياس اسم لبلدة صغيرة على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب

تقويم البلدان ص ٢٤٨

قلّت الأقوات عنده ، وبعد أن خسر من رجاله جماعة . ولم تصله نجدة من نور الدين ، وتم خروجه من بلبيس فى أول ذى الحجة سنة ٥٦٠هـ .

وكان توقيع ذلك الصلح فى صالح الفرنج الذين روّعتهم حملات نور الدين على أملاكهم آنئذ (٩٢).

ومن ناحية أخرى أثبت شاور أنه بحق الوزير الداهية الذى تمكن ـ وبرغم تعقد الأمور على الصورة التى رأيناها ـ من استغلال جميع الأطراف لصالحه الخاص . وإن كان لهذه الأحداث من فضل على نور الدين فهى أنها وجهت نظرة إلى خطورة الجبهة المصرية نظراً لطمع الفرنج فيها ودفعته إلى أن يعمل بصورة جديه لمعالجة قضية مصر ، ومن ثم كان عليه أن يتناسى من أجل ذلك كافة المحاذير التى كانت تثنيه عن التدخل الفعلى المباشر فى شئونها ، بالاضافة الى مااكتسبته القوات النورية من ممارسة الحرب على الأرض المصرية ، وماااكتشفه شيركوه إبان وجوده من ضعف مصر عسكرياً وسياسياً ، وما وقر فى قلبه من رغبة الانتقام من شاور وحقده عليه لتصرفاته معه (٩٣)؛ وقد وصف ابن شداد انطباع شيركوه فقال « وشاهد البلاد ، وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس فى قلبه الطمع فى البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشى الأمور فيها بمجرد الايهام والمحال (٩٤)» وقال أبو شامة : « وعاد إلى الشام ، وقد انضم إلى قوة الطمع فى البلاد شدة الخوف عليها من الفرنج ، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها ، وعرفوها من الوجه الذى عرفها ، فأقام بالشام على مضض ، وقلبه مقلقل ، والقضاء يجره إلى شىء قد قدّر لغيره وهو لايشعر بذلك (٩٥)» .

---

(٩٢) Grousset, Histoire des Croisades, Vol 2 P. 485

(٩٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٦٣ .

(٩٤) النوادر السلطانية ص ٦٤ .

وانظر Saunders, A history of Medieval Islam, P. 164

حملة شيركوه الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ :-

ومضى عامان بعد الحملة الأولى لم يقدم نور الدين خلالهما على إرسال حملة أخرى إلى مصر وذلك لخشيته من تشتيت جهوده ، وتقسيم قواته ، بينما الموقف فى بلاد الشام حرج يستدعى منه اليقظة والحوطة (٩٦). وفى سنة ٥٦٢هـ /١١٦٧م كانت حملته الثانية على مصر بقيادة أسد الدين شيركوه (٩٧)الذى كان يتوق إلى ملك مصر ، على أن ثمة فارق جوهرى كان بين هذه الحملة وبين الحملة السابقة :

فالحملة السابقة تمت بناء على دعوة من شاور ، أما هذه فكان الدافع إليها الرغبة المحضة فى ملك مصر قبل أن يسبق الفرنج إلى ذلك ، وقد ضمت هذه الحملة كسابقتها الشاب يوسف بن أيوب ، وقد سار الجيش النورى على ميمنة الفرنج عن طريق الصحراء الشرقية لنهر الأردن (٩٨)، حماية لها من جنود القدس وحصونها ، وشيع السلطان العادل نور الدين محمود الحملة بنفسه حتى اقتربت قواته من الحدود المصرية .

ونمى خبر مسير تلك القوات الى عمورى فأرسل الى شاور يخبره بها ، فسارع شاور يطلب منه مساعدته فى درء ذلك الخطر ، فبادر عمورى الى نجدته ، وهو يمنى نفسه بامتلاك مصر ، ويخشى أن تسقط فى يد نور الدين حيث كان سقوطها يعنى أن مملكته ستصبح نتيجة لذلك محصورة بين نارين مستعرتين (٩٩)، ولم يغب عن المؤرخين المسلمين سر اسراع عمورى إلى ذلك فقال ابن واصل : « وحملهم على ذلك أمران : أحدهما الطمع فى تملك الديار المصرية ، والثانى الخوف من تملك العساكر النورية

---

(٩٦) Schlumberger, Camepagnes du Roi Amaury P.P 101- 102

(٩٧) Saunders, A history of Medieval Islam, P 164

Grousset, histoire des croisades, vol 2 P.478

(٩٨) مصر والشام والصليبيون ص ٩٧

وانظر Wiet, L'Egypte Arabe P. 295

(٩٩) مصر والشام والصليبيون ص ٩٣ ، مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٥٥

لها ، وعلموا أنه إن ملكها نور الدين - رحمه الله - واستضافها إلى البلاد الشامية ، لم يبق لهم بالبيت المقدس والشام مقام ، وأن يستأصلهم ، وتصير بلاده فى وسط بلاده (١٠٠) .

وقد سار عمورى بحذاء الساحل حتى وصل إلى بلبيس حيث التقاه شاور بجيشه ، واستعدت تلك القوات المشتركة لمجابهة جيش شيركوه ، ولكن ذلك لم يتح لها حيث تمكن شيركوه من أن يسلك طريقاً آخر أبعده من خطر ذلك اللقاء ، مبتعداً عن الأماكن المأهولة حتى اقترب من الفسطاط ، وعبر النيل إلى جانبه الآخر ، واتجه إلى الصعيد ، وشن الغارات على اطفيح (١٠١)، وتمكنت الجيوش الفرنجية المصرية المتحالفة من اللحاق به حيث وصلت إلى شرونة من أعمال محافظة المنيا الحالية . وقد دارت رحى المعركة عند قرية البابين من قرى الأشمونين ، ودارت المعركة على الحلفاء وقتل منهم عدد كبير ، وبرز فى هذه المعركة دور الشاب يوسف بن أيوب الذى أبلى بلاءً حسنا ، وحمل حملات فرق بها الجموع ، وبدّد شملها ، وكاد عمورى نفسه أن يقع فى الأسر ، وأسر شيركوه من أصحابه نحواً من سبعين أسيراً (١٠٢) .

ثم إن أسد الدين شيركوه قسم جيشه قسمين : قسم تحت قيادة ابن أخيه يوسف بن أيوب سار الى الاسكندرية ، فى حين توجه شيركوه بالقسم الآخر إلى جنوب الصعيد ففتح البلاد ، وجمع الأموال .

ورأى الحليفان : شاور وعمورى أن القضاء على يوسف قد يكون أيسر من لقاء شيركوه ، وذلك لاعتقادهما بقلة خبرة يوسف ، وقد رميا من وراء ذلك تشكيل عامل ضغط على شيركوه مما يضطره إلى المسارعة إلى إنجاد ابن

(١٠٠) مفرج الكروب ج ١ ص ١٤٩ .

(١٠١) وهى بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطىء النيل فى شرقية ، معجم البلدان ج ١ ص ٥١٨ .

أخيه ، وتمكن الحليفان فعلاً من حصار يوسف بن أيوب فى الاسكندرية مدة ثلاثة أشهر ، منعا خلالها الميرة عنه ، حتى قلت الأقوات لديه غير أن يوسف تمكن من الصمود ، ويسر له ذلك ترحيب أهل الاسكندرية به وتأييدهم له (١٠٣)، وقد اضطر شيركوه فعلاً تحت ضغط حصار الاسكندرية على ابن أخيه إلى العودة من الصعيد محملاً بالكثير من الأموال التى جباها منه ، فنزل على مصر وحاصرها ، مما اضطر إلى رفع الحصار عن الاسكندرية ، والدخول فى مفاوضات للصلح استقرت على خروج الجيشين الغريبين عن مصر (١٠٤)، على أن يتحمل شاور جميع ما غرمه شيركوه فى حملته ، وأن يعطى الفرنج ثلاثين ألف دينار وكان مقتضى الاتفاق ألا يبقى جندى واحد من جنود عمورى فى مصر ، ولكن شاوراً تفاهم مع عمورى على أن يكون للفرنج شحنة (١٠٥)فى القاهرة ، وأن تكون أسوارها بيد فرسانهم حتى يحولوا بين نور الدين وبين إرسال عسكر آخر إليها ، وأن يكون للفرنج مائة ألف دينار فى كل سنة من دخل مصر ، على أن الجدير بالذكر أن كل هذا تم بتقرير من شاور دون علم الخليفة العاضد نفسه أو الرجوع إليه فى ذلك ، نظراً لضعف الخليفة الذى كان شاور متسلطاً عليه . وهكذا رحل الفرنج عن مصر ، ولكنهم تركوا بها عدة من مشاهير فرسانهم ، وكان هذا الذى تم بناء على رغبة عمورى الذى أراد أن تكون له قدم ثابتة فى مصر حتى يتمكن من معرفة تطورات الأمور فيها ، ويكون تمهيداً لعمل حاسم يزمع القيام به عما قريب (١٠٦) .

وهكذا لم تفلح الجولة الثانية بالنسبة لنور الدين محمود ، وإن كان

(١٠٣) مصر والشام والصليبيون ص ٩٩ .

(١٠٤) Kerr, The Crusades, P. 64 .

(١٠٥) الشحنة : الشحنة والشحنكية ، وظيفة يسّمى متوليها صاحب الشحنة وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن فى بلد من البلاد .

شيركوه قائده قدا ازداد تحرقاً إلى امتلاك الديار المصرية حيث عاد « وفى نفســه من مصر مالاينفصــل لأنــه خبر متحصلهــا ، وعـرف بلادهــا ، واستخف بأهلها [١٠٧]» .

وقد دعا نجاح شاور هذا إلى استبداد شاور بأمور البلاد « فكان يأمر بضرب الـرقاب بين يديه فى قاعة البستان من دار الوزارة ، ثم تسحب القتلى إلى خارج الدار [١٠٨]واشتد كذلك ظلم إخوته وأولاده وغلمانه ومن لاذ بهم وكثر تضرر الناس بهم [١٠٩] .

حملة شيركوه الثالثة على مصر سنة ٥٦٤هـ :

استبد الفرنج الذين بقوا فى مصر بأمر البلاد بعد ماتيقن لهم ضعفها ، وفى نفس الـوقت أراد عمـورى القيام بعمـل يمنع نور الدين نهائياً من التفكير فى أمر مصر ، وذلك بالاستيلاء عليها ، واتخاذها منطلقاً لاستعادة بلاد الشام إلى حكم الفرنج ، معتمداً على موارد مصر الغنية التى تعينه فى تحقيق ذلك ، وكان عمورى يصدر فى ذلك تحت ضغط من رجاله الذين أقنعوه بضرورة الاستيلاء على مصر ، وكان قد أبدى رغبته فى المحافظة على المورد المالى الثابت الذى يصل إليه من مصر ، وكان يفضل القيام بعمل عسكرى ضد دمشق نظراً لخطورة نور الدين الذين كان يصرّ على مضايقة الفرنج [١١٠]فى حين كان يخشى مهاجمة مصر حيث سيتعرض فيها ليس لمقاومة الحكام فحسب ، بل ولعامة أهل مصر وفلاحيها ، ولعل ذلك شيئاً يشرف مصر وتاريخها [١١١] .

وقد راسل عمورى مانويل الامبراطور البيزنطى ليساعده عسكرياً فى حملته على مصر كما طلب مساعده فرسان المعبد ، ولكنهم رفضوا معاونته

(١٠٧) انعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٨٧ .

(١٠٨) نفس المصدرج ٣ ص ٢٨٧ والنكت العصرية ص ٨٧ ـ ٨٨ .

(١٠٩) نفس المصدرج ٣ ص ٢٨٧ والنكت العصرية ص ٨٨ .

(١١٠) Lane- Poole, Saladin, P. 103

لخشيتهم من أن يلقى هذا التصرف بمصر فى أحضان نور الدين [١١٢] .

على أية حال ، تقدم عمورى صوب مصر دون انتظار معونة بيزنطة ، ووصـل الـداروم [١١٣]، وأحس شاور بقـدوم الملك عمـورى ، وأفزعه ذلك ، فأرسل إليه رجاله إلى أطراف الحدود الشرقية ، مستفسراً عن سر قدوم عمورى دون الاستنجاد به ، ودون أن يكون ثمة خطر يهدد مصر وقال شاور فى رسالة إليه : « إن الذى قررته إنما جعلته لك متى احتجت إلى نجدتك ، أو إذا قدم علىّ عدو ، فأما مع خلوّ بالى من الأعداء ، فلا حاجة إليك ، ولا لك عندى مقرر [١١٤]» .

وحاول الملك عمورى خداعه بأنه جاء لتأمين البلاد ضد نور الدين ، فعلم شاور أنـــه قد غدر وخـــان الأيمان ، ونقض العهـود ، وطمـع فى البـلاد [١١٥]» ، ولم ينخدع شاور بدعواه ، وتوجه عمورى إلى بلبيس ، ووجد معونة من بعض أعيان المصريين الذين كانوا يكرهون شاورا ، وكان ببلبيس أبنـاء شاور : طى والطارى والناصر ، وقد عارض طى فى نزول عمـورى بلبيس ، وقـال : أيحسب أن بلبيس جبنة يأكلهـا ، وقد قال عمورى ردًّا على ذلك فى رسالة إلى شاور : « نعم بلبيس جبنة ، والقاهرة زبدة [١١٦]» .

(١١٢) Stevenson, The crusaders in the East, p. 193 .

(١١٣) الداروم : حصن صغير جنوبى فلسطين ، بينها وبين البحر فرسخ ، حصنه عمورى قريباً من غزة ، بينها وبين مصر ، وأقام بها فرسان الداوية أو المعبد ، وتسمى أيضاً الدارون وهى فى موقع دير البلح الحالية .

انظر Lane- poole, Saladin, P. 106 .

Stevenson, The crusaders in the East, P. 199.

وفى معجم البلدان : الداروم قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر الواقف فيها يرى البحر ، الآن بينها وبين البحر مقدار فرسخ .

ج ٢ ص ٤٢٤

(١١٤) انعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٩٢ .

وهكذا أسفر عمورى عن وجهه القبيح ، ولما لم يكن فى استطاعة مصر مقاومة الخطر الفرنجى كان عليها الاستنجاد بقوة نور الدين محمود ، وجاء الاستنجاد هذه المرة فى رسالة من الخليفة العاضد إلى نور الدين دون علم شاور (١١٧)، وفى طيها ذوائب نساء أهل القصر مجزوزة مبالغة فى طلب النجدة ، وبذل له إن وصل ثلث البلاد ، وأن يكون أسد الدين شيركوه مقيماً عنده فى عسكر ، وإقطاعهم عليه ، خارجاً عن الثلث الذى لنور الدين (١١٨).

وعندما بلغت أنباء ذلك التحرك الفرنجى الخطير نور الدين محمود ، شرع فى إعداد جيش كبير على عجل أمّر عليه قائده أسد الدين شيركوه ، واستدعاه لذلك على عجل من إقطاعه فى حمص ، فجاء أسد الدين شيركوه ليتولى قيادة الجيش النورى المتوجه إلى مصر ، وسار من دمشق فى ١٢ ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ فى جيش بلغ تعداده ستة آلاف فارس : وخرج فى هذه الحملة كذلك يوسف بن أيوب الذى كان كارها أن يسير إلى مصر وكان « كأنما يساق إلى الموت (١١٩)، وفى ذلك يقول المقريزى : « فأخرجه نور الدين كرهاً ليحق قول الله سبحانه إذ يقول : «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » فإن نور الدين أحب سير صلاح الدين وكان مسيره اليها لخروج الملك عن أولاده ، وكره صلاح الدين مسيره إلى مصر ، فكان فى مسيره إليها تملكه إياها وغيرها من الأقاليم (١٢٠)» .

وعبرّ أبو شامة عن بغض صلاح الدين للخروج مع شيركوه بقول صلاح الدين عندما دعى إلى ذلك « فكأنما ضرب قلبى بسكين » وأن نور الدين

(١١٧) وقال له : « هذه شعور نسائى من قصرى يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج » .
الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩١

(١١٨) مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٨ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩١ .

(١١٩) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢٩٤

أجبره على الخروج مع شيركوه وأن صلاح الدين قال « وكأنما أساق إلى الموت (١٢١)» ، وبمثل ذلك عبرّ ابن الأثير (١٢٢)، ولعل ذلك الاجماع من المؤرخين على تأبى صلاح الدين هو ابراز أهمية الدور الذى يلعبه القدر والنصيب المكتوب (١٢٣).

على أية حال ، تمكن عمورى من الانتصار عند بلبيس ، وخال أنه فتح مصر وملكها ، وقسّم أهل المدينة غنائم على عسكره شكراً لله على ماأولاه من الفتح ، ثم بدأ يوزع أنحاء مصر فى شكل إقطاعات وولايات على رجاله ، ثم تقدم بعد ذلك صوب القاهرة وأصر شاور على المقاومة ، فأمر الناس أن يهجروا مدينة مصر - الفسطاط وماحولها - إلى داخل القاهرة ، فتركوا أموالهم وأثقالهم ، ونجوا بأنفسهم ، وأولادهم وحرمهم » وقد ماج الناس ، واضطربوا اضطراباً عظيماً (١٢٤)» ، ونهبت مصر وافتقر أهلها وذهب أموالهم ونعمهم (١٢٥)» ، وقد اعتبر المقريزى إساءة عمورى فى بلبيس منّة من الله تعالى حيث قال : « وكان هذا من لطف الله ، فإنه لو قدر أن الفرنج أحسنوا السيرة فى أهل بلبيس لكان الناس لايدافعونهم عن القاهرة ألبته لما فى قلوبهم من كراهة شاور (١٢٦)» .

وقد أشعل شاور النار فى مدينة مصر حتى لاينتفع بها عمورى ، عندما يصل لمحاصرة القاهرة (١٢٧)، وقد وجد عمورى لدى نزوله القاهرة مقاومة ضارية حيث قاتل المصريون عنها قتالاً شديداً وبذلوا جهودهم ، واضطر

(١٢١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩٤ .

(١٢٢) الكامل ج ٩ ص ١٠٣ .

(١٢٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٦٦٩

(١٢٤) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٩٦

(١٢٥) مفرج الكروب ج ١ ص ١٥٧

(١٢٦) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٢٩٦

عمورى إلى العودة عن القاهرة ، وإن كان قد فاز من شيركوه بمبلغ مائة ألف دينار (١٢٨).

ووصلت الجيوش النورية إلى مصر ، وما إن وصلت أنباء وصولها إلى مسامع عمورى حتى سارع الفرنج إلى مغادرة مصر بخفى حنين خائبين مما أملوه (١٢٩)، دون أن يشتبك فى أية معركة « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال (١٣٠)» ، وكان الخليفة العاضد يميل إلى شيركوه ، وكذلك الشعب المصرى ، ولم يسر ذلك شاور وبدأ يدبر للقبض على شيركوه (١٣١) وإن كان يبدى له من الود حتى كان « يركب كل يوم إليه ويسير معه ويعده ويمنيه (١٣٢)» .

وقد ضايق موقف شاور هذا الشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاتفق مع بعض رجاله على القبض عليه فى غيبة أسد الدين شيركوه الذى كان قد توجه لزيارة قبر الشافعى بالقرافة (١٣٣)، حيث كان شاور قصد مخيم أسد الدين شيركوه للاجتماع به كالعادة ، فلما لم يجده خرج إليه فى

(١٢٨) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠ وانظر ابن الفرات ج ٤ مجلدا ص ٣٠ .
Schlumberger: C'ampagnes du roi amoury PP. 208- 209 .

(١٢٩) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٧ .
وانظر التاريخ الباهر ص ١٣٨ .

(١٣٠) مفرج الكروب ج ١ ص ١٦٠
Kerr, The Crusades, P.164 .

(١٣١) عزم على أن يدعوه وجميع أمرائه حتى إذا صاروا إليه ، قبض عليهم ، واستخدم من معهم من الجند يمنع بهم الفرنج ، وقد عارضه ابنه شجاع فى ذلك وهدده بإخبار شيركوه ، فقال له شاور : يابنى والله لئن تفعل هذا لنقتلن جميعاً . فقال له : لأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فإنه ليس بينك وبين عودهم إلا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ، وحينئذ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل معه فارساً واحداً ، فترك شاور ماعزم عليه .
مفرج الكروب ج ١ ص ١٦١ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٠
وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩٦ ووفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٧

(١٣٢) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٠ .

الفصل الثانى

الدور الأيوبى حتى وفاة نور الدين

٥٦٤هـ ـ ٥٦٧هـ / ١١٦٩م ـ ١١٧٢م

تولى صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة المصرية خلفاً لعمه شيركوه وكان آنذاك فى الحادية والثلاثين من عمره (١٥١)، وكان معه من قادة الجيش النورى من هو أكبر سناً منه مثل عين الدولة الياروقى ، وقطب الدين خسرو بن التليل ، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وشهاب الدين وهو خال صلاح الدين وكان كل هؤلاء يطمح إلى منصب الوزارة (١٥٢)

ولعل هذا يدفعنا إلى عدة تساؤلات : هل كان ذلك هو اختيار الخليفة العاضد نفسه أما اختيار المحيطين بالعاضد أشاروا به عليه ، أم هو اختيار نور الدين أملاه على الخليفة العاضد ؟، ثم ماهى الأسباب التى دفعت إلى اختيار صلاح الدين دون سواه من القادة ؟

وقد اختلفت أقوال المؤرخين حول هذا الموضوع ، فرأى ابن واصل أن الخليفة العاضد هو الذى اختار صلاح الدين « وكان الذى حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، وعلم أنه إذا ولى وليس له عسكر ، ولارجال ، كان تحت يده وحكمه ، ولايجسر على المخالفه (١٥٣)» ، ويشاركه فى هذا الرأى ابن خلكان الذى رأى أن العاضد اختاره لظنه « أنه إذا ولى صلاح الدين ، وليس له عسكر ولا رجال ، كان فى ولايته مستضعفاً ، ويحكم عليه ، ولايجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر

(١٥١) الدولة الأيوبية ص ٤٦٠

(١٥٢) ابن الفرات [illegible]

الشامية من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين ، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين صاحب الشام (١٥٤) » .

ويرى أبو شامة كذلك أن العاضد هو الذى اختار صلاح الدين للوزارة ولكنه يرى فى سبب الاختيار رأياً آخر حيث يقول : « وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع ، وأعجبه عقله وسداد رأيه وشجاعته ، وإقدامه على شاور فى موكبه ، وأنه قد قتله حين جاءه أمره ولم يتريث ولاتوقف ، فسارع إلى تقليده الوزارة (١٥٥) » ويرى هذا الرأى ابن الفرات المصرى حيث يقول أن العاضد كان يميل إلى تولية صلاح الدين الوزارة : « لشجاعته وبراعته وكرمه وصباحته (١٥٦) » .

أما الرأى القائل بأن الاختيار كان من جانب الأمراء المحيطين بالخليفة العاضد فقد ارتآه المقريزى الذى بين أن ثمة خلافاً نشأ بين هؤلاء الأمراء فى شخصية من يتولى الوزارة ، وانتصر الرأى الذى اختار صلاح الدين ، فيقول المقريزى أن أهل القصر وحواشى الخليفة من الأستاذين وغيرهم انقسموا فريقين : «فرأى أحد الفريقين والذى كان يتزعمه مؤتمن الخلافة جوهر (١٥٧)، الذى رأى أن تئول الأمور بعد شيركوه إلى بهاء الدين قراقوش ، وأن يرحّل برجاله إلى الشرقية إقطاعاً لهم ، فيمثلون بذلك حاجزاً بينهم وبين الفرنج ، يقاتلون عنهم إذ طمع الفرنج فى العودة إلى مصر حيث يذودون عن حرمهم وإقطاعاتهم ، بينما رأت طائفة أخرى أن

(١٥٤) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٩٧ .

(١٥٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٣٩ .

(١٥٦) ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٥٦ .

(١٥٧) وهو خصى من الأستاذين المحنكين بالقصر الفاطمى ، وكان يتولى زمام القصر ، وإليه الاشراف الكامل عليه ، وقد برهن مؤتمن الخلافة هذا بسلوكه فيما بعد على إصراره على تحقيق هدفه فى التخلص من صلاح الدين والجيش النورى بأجمعه »

تكون الوزارة إلى صلاح الدين الذى هو ابن أخى شيركوه » والذى هو منه وإليه (١٥٨) » .

ويرى ابن الأثير هذا الرأى حيث قال : « وكان الذى حمله مع ذلك أن أصحابه قالوا له : ليس فى الجماعة أضعف ولاأصغر سناً من يوسف والرأى أن يولى ، فإنه لايخرج من تحت حكمنا (١٥٩) » .

والحق فيما نرى أن شخصية صلاح الدين وبراعته العسكرية شىء برهنت عليه الأحداث منذ اشتراكه فى حملات شيركوه الثلاث على مصر ، ولولا تلك البراعة والشخصية ماجعله شيركوه على نصف جيشه إلى الاسكندرية ، كما امتاز صلاح الدين بالحسم فى المواقف الصعبة فهو الذى دبّر لاغتيال شاور وقبض عليه ، مع أن شيركوه نفسه كان لايميل إلى التخلص من شاور بقتله .

ويضاف إلى ذلك أن صلاح الدين قد قبس من إيمان نور الدين وسياسته ، وبعد نظره واتجاهاته فى العمل ، وأنه أخذ عن عمه شيركوه الجرأة والاقدام وفن الحرب (١٦٠) وشرب من طموحه ، بالاضافة الى مواهبه الشخصية .

وهذا يدحض الرأى القائل بأن الاختيار وقع على صلاح الدين لحداثة سنة وضعفه ، وقد كان من بين القادة المصريين فيما يبدو من أدرك تلك القوة ورأى فيها خطورة على الكيان الفاطمى ، ونقصد بذلك الرأى الذى تزعمه مؤتمن الخلافة جوهر بعدم اختيار صلاح الدين .

ونحن نرجح ـ بناء على ماتقدم ـ الرأى القائل بأن الخليفة العاضد نفسه هو الذ اختار صلاح الدين « لشجاعته وبراعته وكرمه وصباحته » وأن « صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع وأعجبه عقله وسداد رأيه

(١٥٨) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٨ .

(١٥٩) الكامل ج ٩ ص ١٠٢

وشجاعته ، وإقدامه على شاور فى موكبه . . . . . » والذى هو « من شيركوه وإليه » ، ولاينفى هذا الرأى انقسام المحيطين بالعاضد من حاشيته وأستاذى قصره حول هذا الاختيار .

فالخليفة العاضد ـ من هذا المنطلق قد اختار صلاح الدين كوريث شرعى لأسد الدين شيركوه ، ولحاجة الخلافة إلى شخصية مخلصة ترسى فيها دعائم الاستقرار بعد طول عهد من الاضطراب ؛ بل يذهب ابن تغرى بردى إلى أن العاضد ألزمه وأخذ كارها ثم قال : «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل (١٦١)» .

على أن بعض المؤرخين قد رأى أن نور الدين كان هو صاحب الاختيار بصفته أمير البلاد والرئيس الأعلى ، وأنه لم يبلغ به الأمر أن يترك للعاضد ورجال قصره أن يختاروا له نائبه على مصر ، وأن العاضد لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه (١٦٢)، ولو صحّ ذلك ماحدث الخلاف بين القادة فى الجيش النورى ، وعودة بعض القواد عنه إلى نور الدين فى الشام ، كما فعل عين الدولة الياروقى الذى كان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً حيث صمم على ألايكون تابعاً لصلاح الدين وصمم على مفارقته وقال : « أنا لاأخدم يوسف أبداً » وعاد إلى نور الدين محمود ! بلاد الشام (١٦٣).

وهذا وقد قام الفقيه عيسى الهكارى وبهاء الدين قراقوش بدور كبير فى تجميع القلوب حول صلاح الدين فى المعسكر النورى ، ويدل نجاحهما فى مسعاهما على أن صلاح الدين كان الشخصية الوحيدة التى يمكن أن تحظى بدرجة عالية من الإجماع .

« صلاح الدين والأخطار التى جابهته فى مصر »

أولاً : حتى سقوط الدولة الفاطمية :

أصبح صلاح الدين وزيراً للخليفة العاضد الذى خلع عليه ولقبه

(١٦١) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧ .

(١٦٢) نور الدين ص ٣٢٢

بالملك الناصر (١٦٤)وكان فى نفس الوقت قائداً لجيش نور الدين صاحب الشام ، وهو بهذا الوضع وزير لخليفة شيعى قائد لأمير سنى ، فهو موزع الولاء ، ورغم غرابة هذا الوضع فقد اتبع صلاح الدين سياسة سداها الحكمة ولحمتها التؤدة بين الرجلين (١٦٥). وعلى الساحة المصرية أثبت صلاح الدين قدرته وطول باعه فى التقرب إلى المصريين ، واستمالتهم بالأموال ، بل واستمالة الخليفة العاضد نفسه ، ورسم لنفسه صورة حسنة فى نفوس المصريين ، وقد وصف المقريزى سياسة صلاح الدين تلك وصداها فى النفوس فقال : « واستمال صلاح الدين قلوب الناس ، وساس الأمور ، وكاتب الأطراف ، وأقبل على الجد ، وتاب عن الخمر ، وأعرض عن اللهو ، وتقرّب إلى الخليفة العاضد بما يرضيه ، فأحبه وأدناه حتى كان يدخله إليه القصر راكباً ، ويقيم عنده بالقصر عدة أيام ، وعظم فى الدولة حتى حسده الأمراء ، وباينه جماعة منهم ، وتوجهوا إلى الشام ، وشرع فى استمالة قلوب الناس إليه فبذل فيهم المال ، وأخرج ماكان فى خزائن عمه أسد الدين ، واستدعى من العاضد ، فأمده بشىء كثير من المال ، فكان أمره فى زيادة وقوة ، وأمر العامة فى نقص وضعف (١٦٦) ، كما أحسن صلاح الدين إلى العسكر الشامى والمصرى فأحبوه وأطاعوه (١٦٧).

وهكذا ثبتت قدم الملك الناصر صلاح الدين فى مصر ، وصارت الخطبة على المنابر فى مصر للخليفة العاضد ، وبعده الملك العادل نور الدين ، وأصبح الأمر والنهى فى يد صلاح الدين يتصرف الخليفة عن أمره ؛ وكان نور الدين محمود يخاطبه بالأمير الاسفهسلار (١٦٨)، وإن كان نور الدين

(١٦٤) الكامل ج ٩ ص ١٠٢ .

(١٦٥) مصر فى العصر الفاطمى ص ٤٥٥ .

(١٦٦) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٠٠ وانظر النوادر السلطانية ص ٦٩ والباهر ص ١٤٣ وفى مفرج الكروب يقول ابن واصل « وضعف أمر العاضد »ج ١ ص ١٧٤ .

(١٦٧) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٥٥ .

(١٦٨) كلمة اسفهلار مركبة من لفظين فارسى وتركى ، إذ أن « أسفه » بالفارسية بمعنى « المقدم » ، و« سلا » بالتركية بمعنى العسكر ، فيكون معنى اللقب « مقدم العسكر » أى قائد

يكتب اسمه قبله ، وكان لايفرده بالمكاتبة ، بل يكتب إليه : « الأمير الاسفهسلار صلاح الدين ، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا (١٦٩) » .

ولاشك أن ذلك كان حسن سياسة من نور الدين حرصاً منه على صلاح الدين حتى يستلّ الحقد ضده من صدور الأمراء معه ، وليس صحيحاً لأن وزارة صلاح الدين كان أمراً يسوء نور الدين إلى درجة أنه أقام ثلاثة أيام لايقدر أن يراه أحد من شدة ماعظم عليه ذلك وأغضبه .

كما ينفى أن يكون الأمر كذلك خشية نور الدين على صلاح الدين حتى من أهله ، وهو فيما يخشى عليه يخشى على مصر كذلك ، وذلك أن صلاح الدين أرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يسيرّ إليه إخوته ، فأجابه نور الدين : « أخاف أن يخالف احد منهم عليك فتفسد البلاد (١٧٠) ، ولكنه عندما رأى الخطر الفرنجى يحدق بمصر فإنه أرسل إليه العساكر ، وفيهم إخوة صلاح الدين ، وقال لأخيه توران شاه بن أيوب : « إن كنت تسير إلى مصر ، وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك ، وأنت قاعد فلاتسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضرك حينئذ وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر ، وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ماهو بصدده » فأجابه توران شاه : « أفعل معه الخدمة والطاعة مايتصل بك خبره إن شاء الله تعالى »

فكلام نور الدين لتوران شاه كلام رجل يعرف أقدار الرجال ، ويقدر دور صلاح الدين فى خدمة الاسلام والمسلمين الذى كان أهم أهداف نور الدين .

والحق ، أن ذلك يتعارض تماماً وقول بعض المؤرخين : وكتب إلى

---

(١٦٩) التاريخ الباهر ص ١٤٢ .

(١٧٠) التاريخ الباهر [illegible]

الأمراء بمصر بمفارقته وتركه بمصر وحيداً ليوهن أمره ، وشرع يذمه ، ويذكره بالسوء ، ويعنته فى الطلب بحمل الأموال إليه ، وصار كثيراً مايقول : ملك ابن ايوب ويستعظم ذلك احتقاراً له (١٧١) » ، وقد أورد أبو شامة هذا الرأى لابن أبى طى ثم علق بقوله : « قلت : والذى أنكره نور الدين هو إفراط صلاح الدين فى تفرقة الأموال ، واستبداده بذلك من غير مشاورته » ثم يضيف : « هذا مع ان ابن أبى طى متهم فيما ينسبه إلى نور الدين مما لايليق به ، فإن نور الدين رحمه الله كان أذل الشيعة بحلب ، وأبطل شعارهم ، وقوى أهل السنة ، وكان والد ابن أبى طى من رءوس الشيعة فنفاه من حلب » ثم يقول : «وقد ذكر ذلك كله ابن أبى طى فى كتابه (١٧٢) مفرقاً فى مواضع ، فلهذا هو فى الكتاب الذى له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله ، فلا يقبل منه ماينسبه إليه مما لايليق به (١٧٣) » .

وقد قال ابن أبى طى كذلك أن نور الدين قال فى مرض موته : « ماأخطأت إلا فى إنفاذى أسد الدين إلى مصر ، بعد علمى برغبته فيها ، وما يحزننى شىء كعلمى بها ينال أهل من يوسف بن أيوب (١٧٤) » . ولاندرى ماذا كان يريد نور الدين من صلاح الدين أكثر مما ذكره ابن أبى طى أيضاً على لسان صلاح الدين حيث قال : « والله لقد صبرت منه على مثل حز المدى ووخز الابر ، وماقدر أحد من أصحابه أن يجد علىّ مايعتده ذنباً ، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لى هفوة يعتدها على فلم يقدر ، ولقد كان يعتمد فى مخاطباتى ومراسلاتى على الأشياء التى لايصبر على مثلها ، لعلى أتضرر أو أتغير ، فيكون ذلك وسيلة له إلى منابذتى ، فما أبلغته أربه يوماً قط (١٧٥) » .

---

(١٧١) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١١ ، وهو رأى ابن الأثير المعروف بميله عن صلاح الدين وأسرته .

اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٠ ، ٣١١ هامش ٣ ، ٢

(١٧٢) يقصد كتاب ابن أبى طى : « السيرة الصلاحية » .

(١٧٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٤١

(١٧٤) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٤١

ويبرهن أبو شامة على كذب مايدعيه ابن أبى طى فيورد خطاباً بخط نور الدين يشكر فيه صلاح الدين ثم يقول « وذلك ضد ما قاله بن أبى طى (١٧٦)» ، والخطاب يوجهه نور الدين إلى شرف الدين بن أبى عصرون بتولية قضاء مصر ويقول فى ختامه : « وقد كتبت هذا بخطى حتى لايبقى علىّ حجة . تصل أنت وولدك عندى حتى أسيركم إلى مصر والسلام . بموافقة صاحبى واتفاق منه صلاح الدين ، وفقه الله ، فأنا منه شاكر كثير كثير ، جزاه الله خيراً وأبقاه ، ففى بقاء الصالحين والأخيار صلاح عظيم ، ومنفعة لأهل الإسلام ، والله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان الخير» (١٧٧)

وهكذا يتبين أن الأمر بين صلاح الدين ونور الدين لم يكن كما أراد بعض ذوى الأهواء تصويره وإن صدقهم البعض وساروا على دربهم كما يتبين أن نور الدين لم يكن يعارض فى أن يلى صلاح الدين الوزارة فى مصر ، وأن يكون نائبة فيها .

والآن بعد هذا الاسهاب فى هذه القضية التى كثر النقاش حولها ننتقل إلى الأخطار التى جابهت صلاح الدين فى مصر إبان تلك الفترة :

الأخطار الداخلية :

أصبح واضحاً للعيان أن صلاح الدين أصبح ينتوى القضاء على الخلافة الفاطمية وأصبح العاضد معه صورة لاأمر له ولا نهى (١٧٨)، فأقطع ـ صلاح الدين ـ أصحابه البلاد ، وأسند إليهم المناصب وذلك أنه « رأى النظر فى حق أعوانه وأوليائه أولى ، وسد خللهم وإغنائهم أحرى ، فأقطع الأجناد البلاد ، وأعطى الأمراء والأصحاب من القرى نفائسها ، ومن الأمكنة عرائسها (١٧٩)» .

(١٧٦) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٤٤٢ .

(١٧٧) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ .

(١٧٨) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤٠ .

(١٧٩) ابن الفرات المجلد الرابع ج ١ والمواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢

وعندما ازدادت وطأته على أهل القصر الفاطمى ، وبدا واضحاً استبداده بأمور الدولة ، وإضعاف شأن الخلافة ، استاء منه رجال القصر ممثلين فى رئيس بلاط قصر الخليفة النوبى جوهر مؤتمن الخلافة (١٨٠) وأخذ يدبر للقضاء على صلاح الدين ، وتسرب أثناء ذلك التدبير إلى صلاح الدين ، فدبر صلاح الدين عليه واستغل خروج مؤتمن الخلافة فى جماعة من رجاله إلى منظرة له بناها بناحية الخرقانية (١٨١) فى بستان فأمر من هجم عليه ، واستباح دمه ، ودم جماعته ، وقد احتزت رأس مؤتمن الخلافة بعد قتله ، وأتى بها إلى صلاح الدين (١٨٢) . وكان ذلك مما أثار غضب السودان جميعاً فى مصر ، فثاروا حمية له لأنه كان من جنسهم ، ولأنه كان يتعصب لهم ، كما ثاروا كذلك نتيجة لضعف نفوذهم واستبعادهم فى عهد صلاح الدين وكان ذلك فى ١٦ من ذى القعدة سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٩م ، وكانت جميع طوائف السودان تحارب صفاً واحداً : الريحانية والجيوشية والفرحية (١٨٣)، وكان بأسهم شديداً حتى كادت الهزيمة تقع بجند صلاح الدين ، ولكن أخاه توران شاه تمكن من انقاذ الموقف بحملته على السودانيين ، وقتله بعض مقدميهم ، مما فت فى قوتهم ، وزادت عندئذ حملة جند صلاح الدين عليهم . وكان الخليفة العاضد نفسه يتمنى ـ آنذاك ـ أن يقضى السودانيون على هؤلاء المحتلين الجدد ، ويخلصوه من سطان صلاح الدين الذى تزايد زيادة كبيرة حتى إن أهل القصر الذين كانوا يشاهدون المعركة من منظرة الخليفة راحوا بأمر من الخليفة يلقون جند

(١٨٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٧ وكان أحد الأستاذين المحنكين بالقصر . المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢ .

(١٨١) وهى قرية على شاطىء النيل بقرب قليوب . ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٦٩ ويسميها المقريزى الخاقانية . المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٨٨ وانظر قوانين الدواوين ص ٨٥ .

(١٨٢) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣ .

(١٨٣) وكان الجيش الفاطمى آنذاك يتكون من عنصرين أساسين هما : المصريون والسودانيون الذين كان معظمهم من النوبيين الذين كثروا فى عهد الخليفة المستنصر بسبب أمه النوبية ، وعرفوا لكثرتهم بعبيد الشراء . الناصر صلاح الدين ص ٨٤

صلاح الدين بالنشاب والحجارة ، مما اضطر صلاح الدين إلى إحضار النفاطين وهدد بإحراق منظرة القصر الفاطمى ، وأسقط فى يد الخليفة الذى خشى على نفسه ، فتظاهر بغير مايبطن ، فأمر أحد الأستاذين بالخروج من المنظرة والصياح بصوت عالٍ إلى توران شاه الذى كان على رأس النفاطين ، وقال له :

« أمير المؤمنين يسلم على شمس الدولة ، ويقول ، دونكم والعبيد الكلاب أخرجوهم عن بلادكم (١٨٤) » . وكان لإنصراف تأييد العاضد عن السودانيين أثره فى جند السودانيين الذين كانوا يحاربون من أجل هيبة الخلافة ففت « فى أعضادهم فجبنوا ، وتخاذلوا ، وأدبروا (١٨٥) » ، وجند صلاح الدين يتبعونهم ، وأراد الأرمن الذين كانوا بين القصرين فى دارهم التى تحفل بعدد عظيم منهم مؤازرة السودانيين ، وتمكنوا من إيقاف مسيرة جند صلاح الدين عن متابعة السودانيين غير أن شمس الدولة تمكن من إحراق دارهم وأهلكهم حرقاً وقتلاً (١٨٦) ، ثم تبع السودانيين حتى حصرهم عند باب زويلة ، وأعمل فيهم القتل مدة يومين ، كما أحرقت أعظم حاراتهم التى كانت تعرف بالمنصورة ، وطلب السودانيون الأمان فى ٢٨ ذى القعدة فأمنوا ، ثم خرجوا إلى الجيزة ، فلحق بهم شمس الدولة بجنوده « وحكموا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا الشريد ، وتلاشى منذئذ أمر العاضد (١٨٧) ولم يعد باقياً للعاضد الا الخطبة له وبعده للملك العادل صاحب الشام (١٨٨) .

هذا ، ومازال صلاح الدين يتبع أمر السودان حتى قضى على نفوذهم نهائياً فى سنة ٥٧٢هـ /١١٧٦م (١٨٩) ويجدر بالذكر هنا أن صلاح الدين

(١٨٤) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣ .

(١٨٥) الكامل ج ٩ فى حوادث سنة ٥٦٥ هـ .

(١٨٦) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣ .

(١٨٧) نفس المصدر ج ٢ ص ٣ .

(١٨٨) ابن الفرات المجلد ٤ ج ١ ص ٧١ .

(١٨٩) الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٧٣ وانظر الفاطميون فى مصر ص ٣٠٩

كان يقوم بتلك الأعمال فى هذه المرحلة بوصفه نائباً عن نور الدين ، لاباسم الخليفة الفاطمى بوصفه وزيراً له (١٩٠)

الفرنج وصلاح الدين :-

لم تقتصر الأخطار التى واجهت صلاح الدين آنئذ على تلك الأخطار الداخلية بل كان ثمة خطر أكبر يتهدده من ناحية الفرنج الذين ساءهم استيلاء صلاح الدين باسم نور الدين على مصر مما جعلهم فى موقف صعب يهدد وجودهم بوقوعهم بين شقى الرحى حيث أصبحت القوات النورية تحيط بمملكة بيت المقدس الصليبية من الشمال الشرقى والجنوب الغربى (١٩١) ، « وأيقنوا أن بلاد الساحل من المسلمين على شفا جرف هار ، وأنهم إن لم يتداركوا الأمر وإلا ذهبت البلاد من أيديهم (١٩٢) » ، وخافوا من صلاح الدين « أن يملك بلادهم ،ويخرب ديارهم ، ويقلع آثارهم ، لما حدث له من القوة والملك (١٩٣) » ، ومن ناحية أخرى كانت سيطرة نور الدين وقائده صلاح الدين على مينائى الاسكندرية ودمياط فى شمال مصر وغيرهما من موانىء الدلتا تؤثر على سيادة الصليبين البحرية ، وتجعل هذه السيادة للمسلمين فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط (١٩٤) .

وأثار ذلك فزع عمورى ملك بيت المقدس ، واستقر رأيه على الاستنجاد بملوك أوربا ، فأرسل سفارة إلى فردريك باربروسا امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلترا ، وكذلك وليم الثانى ملك صقلية ، وغيرهم من الأمراء حتى يقوموا بحملة صليبية جديدة ينقذون بها إخوانهم فى بلاد الشرق (١٩٥) ؛ ولكنهم لم يلبوا

(١٩٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٠٩ .

(١٩١) الكامل ج ٩ ص ١٠٥ والتاريخ الباهر ص ١٤٣

(١٩٢) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٧٩ ، ١٨٠

(١٩٣) النوادر السلطانية ص ٧٠

هذه الدعوة لانشغال أغلبيتهم بمسائل تتعلق بدولهم (١٩٦)، واكتفوا بامدادهم بالأموال والرجال والسلاح (١٩٧).

ولم يكن الانزعاج من نصيب الفرنج فقط فقد انزعج مانويل امبراطور الدولة البيزنطية للأمر ، ولذلك لم يتردد عندما لجأ إليه الفرنج طالبين معونته من مدِّ يد المعونة إليهم بأسطول بيزنطي ليجدد بذلك اتفاقيته مع الفرنج حول الاشتراك فى مهاجمة مصر واقتسامها (١٩٨)، مؤملاً فى تحقيق أطماعه بتوسيع رقعة البلاد الداخلة فى دائرة نفوذه (١٩٩). هكذا اجتمع رأى الفرنج والبزنطيين على مهاجمة مصر ، ورأوا أن يقصدوا إلى دمياط ، وكان قصدهم دمياط بالذات « لتمكن القاصد لها من البر والبحر ، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مغرس قدم (٢٠٠)» ولتكون فى نفس الوقت ظهراً لهم يمكنهم من امتلاك بقية مصر (٢٠١).

ووصلوا إلى دمياط فى صفر سنة ٥٦٥هـ / ، ورأى صلاح الدين ضرورة النهوض لمجابهة الفرنج بدمياط مستشعراً مدى الخطر الذى تمثله حملتهم على البلاد ، لاسيما وأنه لم يكد يفيق بعد من معركة السوادنيين الأولى (٢٠٢)، وأرسل إلى نور الدين مبيناً له عن مخاوفه ، وأوضح له « أنه إن تخلف عن دمياط ملكها الأفرنج ، وإن سار إليها خلفه المصريون فى مخلفية ومخلفى عسكره بالسوء ، وخرجوا عن طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه (٢٠٣)» . وقد اهتم نور الدين برسالة صلاح الدين أبلغ

(١٩٦) الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٣٣ وأنظر فى ذلك أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٣٨٢ - ٣٩٢ .

(١٩٧) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٠ والباهر ص ١٤٣ .

(١٩٨) وهى اتفاقية سنة ١١٦٨ م . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١١ .

(١٩٩) الدولة الفاطمية فى مصر ص ١٣٣ وانظر نور الدين والصليبيون ص ١٣٤ - ١٣٦ .

(٢٠٠) النوادر السلطانية ص ٧٠ .

(٢٠١) التاريخ الباهر ص ١٤٣ .

(٢٠٢) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٩ .

الاهتمام ، فجهز إليه العسكر أرسالاً « كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً (٢٠٤)، وخرج بنفسه إلى بلاد الفرنج بالساحل واستباحها (٢٠٥).

أما صلاح الدين فأرسل ابن أخ له هو عمر بن شاهنشاه بن أيوب على رأس قوة إلى دمياط ، وأتبعه بالأمير شهاب الدين الحارمى ، وقام أهل دمياط بدور بالغ فى الدفاع عن مدينتهم ضد الفرنج ، وصبروا على حربهم ، وفى ذلك يقول المقريزى : « والناس فيها صابرون فى محاربتهم » وكان أهل دمياط يقدرون موقف صلاح الدين الحرج ونصرهم الله رغم قلة عددهم وعددهم (٢٠٦)، وقد استغل أهل دمياط ظاهرة جريان النيل من الجنوب الى الشمال فى إرسال أوان فخارية تحتوى على مواد مشتعلة ، وذلك على سطح الماء فأنزلت الضرر البالغ بالأسطول البيزنطى (٢٠٧).

ووقع الخلاف بين الفرنج والبيزنطيين ، واستشعر الفرنج مبلغ الخطر الذى يهددهم من نور الدين الذى أخذ يعبث فى بلادهم ، ففضلوا جميعاً العودة من حيث أتوا بعد أن فشلوا فى حملتهم فشلاً ذريعاً ، وعقب ابن الأثير على هذا بقوله : « وهذا موضع المثل : ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين (٢٠٨)» .

وقد سانده الخليفة العاضد آنذاك بالكثير من الأموال ،وحمد له صلاح الدين هذا الموقف فقال : « مارأيت أكرم من العاضد ، أرسل إلىّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرى سوى الثياب وغيرها (٢٠٩)» .

(٢٠٤) التاريخ الباهر ص ١٤٣

(٢٠٥) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٥

(٢٠٦) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٩ وانظر ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٨٣ .

(٢٠٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧١٣

(٢٠٨) التاريخ الباهر ص ١٤٤ والنوادر السلطانية ص ٧٢ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧

ولكن الخليفة العاضد لم يكن يخفى عليه ما صار عليه صلاح الدين من قوة وتمكن فى مصر ولم يكن يرضيه ذلك فرمى بسهمه الأخير لمحاولة إضعاف قوته عن طريق طلبه من نور الدين أن يسحب الجند الأتراك من القاهرة ، ويطلب منه الاقتصار على الملك الناصر صلاح الدين ومن يلزمه من خواصه ، فلم يجبه نور الدين إلى طلبه وأرسل إليه يعلمه « أنه ماأرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات (٢١٠) الفرنج ، ليس لها إلا اسهام الأتراك ، فإن الفرنج لايرعبون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية ، وتحصلوا منها على الأمنية ، فلعلّ الله ييسرّ فتح المسجد الأقصى ، مضافاً إليه نعمه التى لاتحصى (٢١١) » .

وقد زاد عسكر صلاح الدين وأقاربه وأصحابه بمصر ، وقد وصل إليه أبوه وأقاربه فى سنة ٥٦٥هـ / ١١٧٠ مما قوى من موقف صلاح الدين ، وعزم على إحلال الأمراء الشاميين محل الأمراء المصريين فى دورهم وأموالهم وإقطاعاتهم ، فكان الأمير الشامى يقف بأتباعه على باب الأمير من أمراء مصر ، فإذا خرج قبض عليه واستولى على داره وأخذها لنفسه ، وبذلك « صار الأمراء الشاميون فى سائر نعم أمراء مصر ، وأصبح الأمراء المصريون أسرى معتقلين فى أيدى أعاديهم . فآل أمرهم إلى أن صار الأمير منهم بواباً على الدار التى كان يسكنها ، وصار آخر منهم سائس فرس كان يركبها ، وصار آخر وكيل القبض فى بلدٍ كانت إقطاعاً له ، ونحو ذلك من الهوان (٢١٢) » .

وقد ساء هذا الذى لحق بالأمراء المصريين الخليفة العاضد ، فأرسل

---

(٢١٠) القنطاريات : نوع من الأسلحة فى خزانة السلاح وتكون مذهونة ومذهبة . التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٢٧٧

(٢١١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٠ ، والقنطاريات : نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف باليونانية بهذا الاسم . مفرج الكروب ج ١ ص ١٨٣ حاشية ١ وانظر مصطلحات صبح الأعشى ص ٢٧٧ .

يسأل صلاح الدين عن السبب الذى حدا به إلى ذلك ، فأجابه صلاح الدين بأن هؤلاء الأمراء « كانوا عصاة لأمرك ، والمصلحة قتلهم ، وإقامة غيرهم ممن يمتثل أمرك » فسكت الخليفة (٢١٣) .

وهكذا صار واضحاً للعيان أن الخليفة العاضد لم يعد له من الأمر شىء ، فلا نور الدين بالشام يسمع له ، ولا صلاح الدين نائب نور الدين فى مصر يعير احتجاجه أدنى التفات .

محاولة القضاء على المذهب الشيعى فى مصر :

كان صلاح الدين سنى المذهب (٢١٤) وقائداً لنور الدين محمود ، وهو سنى متعصب لسنيته ، فى حين كان وزيراً للخليفة العاضد وهو شيعى اسماعيلى ، وهو من هذا المنطلق مزدوج الولاء عملاً ومذهباً (٢١٥) ، وقد بدأ صلاح الدين بعد أن تيقّن من استقرار سلطته فى مصر فى العمل على القضاء على المذهب الشيعى لمصر ، وعودة مذهبى السُّنة : الشافعى ومالك إلى انتشارهما الأول قبل مجىء الفاطميين (٢١٦) ، وكانت الخطوة الأولى تعيين قضاة سنين من المذهب الشافعى ، فعزل فى سنة ٥٦٦هـ قضاة مصر من الشيعة ، وولىّ قاضى القضاة صدر الدين عبد الملك بن درباس الهدبانى الشافعى (٢١٧) .

---

(٢١٣) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٢١ .

(٢١٤) كان صلاح الدين شافعى المذهب هو وجميع أسرته باستثناء الملك المعظم عيسى بن العادل الذى اهتم اهتماماً كبيراً بالمذهب الحنفى ، وتعصب له تعصباً شديداً ، وكان نور الدين محمود حنفى المذهب ، لكنه سوّى فى اهتماماته بين المذاهب الأربعة جميعاً . مصر والشام والصليبيون ص ١٠٦ حاشية ٢ .

(٢١٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٦ ، وسيرة القاهرة ص ٥٣ . وانظر Grousset, Histoire des Croisades T. 2, P. 539 .

(٢١٦) الناصر صلاح الدين ص ٨١ .

(٢١٧) هو صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المادرانى ، وقد استمر فى منصبه حتى نهاية عصر صلاح الدين المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٣٣ واتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣١٩ حاشية ٤

ويبدو أن صلاح الدين وشيركوه كانا يرعيان المذهب الشافعي حيث كانا معتنقيه وكان شيركوه يزور ضريح الإمام الشافعي ، وكان من ذلك يوم مقتل شاور حيث صادف زيارة شيركوه لضريح الشافعي ، وكان مذهبا مالك والشافعي موجودين في عهد الفاطميين ، حيث لم يقض الفاطميون على شعائر المذاهب المخالفة (٢١٨) هذا ، وقد شرد صلاح الدين الدعاة الفاطميين ، وألغى مجالس دعوتهم ، وعمل على إزالة أصول المذهب الشيعي ، فأبطل الأذان « بحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر » ، وفي ذلك يقول المقريزى « فكانت أول وصمة دخلت على الدولة (٢١٩) » ، ثم أمر أن يذكر في الخطبة يوم الجمعة الخلفاء الراشدون : أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، وتم ذلك في يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة سنة ٥٦٥هـ .

ثم إن صلاح الدين أمر بأن يذكر الخليفة العاضد في الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة فكان الخطيب يقول : « اللهم أصلح العاضد لدينك لاغيره (٢٢٠)، ثم تطور الأمر فيما بعد إلى إبطال ذكر العاضد من الخطبة حيث كان الخطيب يدعو « للامام أبي محمد » تلبيساً بأنه العاضد بينما هو يريد أبا محمد الحسن المستضىء بأمر الله الخليفة العباسى (٢٢١) .

ثم أضاف صلاح الدين إلى ذلك تعطيل الجامع الأزهر ، وظل الجامع الأزهر معطلاً من إقامة الخطبة فيه مائة عام من حين استولى السلطان صلاح الدين إلى أن أعيدت الخطبة في أيام السلطان الظاهر بيبرس (٢٢٢) .

ثم اتبع صلاح الدين ذلك بخطوة تهدف إلى تجميع من يرغب في

(٢١٨) الناصر صلاح الدين ص ٨١ .

(٢١٩) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٧ .

(٢٢٠) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٨ .

(٢٢١) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٢٢ وهو الخليفة الثالث والثلاثون من أسرة العباسيين ، حكم بين سنتى ٥٦٦ هـ (في أواخرها) وسنة ٥٧٥ هـ (١١٧١ ـ ١١٨٠ م) . نفس المصدر ج ٣ ص ٣٢٢ حاشية (٤) .

(٢٢٢) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٧٦ . وانظر Wiet, L'Egypte arabe, P. 302

النشاط العلمى وتشبع رغبتهم فأنشأ المدارس المختلفة على غرار مدارس حلب ودمشق لتعينه على التخلص من كل آثار الشيعة ولتحل محل الأزهر الذى لم يشترك في نشر التراث السنى إلا بعد فترة (٢٢٣)، وكانت هذه المدارس للمذاهب الفقهية الأربعة ، ومن أهمها مدرسة الشافعية بجوار جامع عمرو بن العاص والتى عرفت باسم المدرسة الشريفية (٢٢٤) وهى أول مدرسة عمرت بمصر لإلقاء العلم (٢٢٥) ، ومدرسة للمالكية بجوار الجامع أيضاً وعرفت باسم المدرسة القمحية ، لأن القمح في أيام صلاح الدين كان يوزع على فقهائها من ضيعة بالفيوم عرفت بالحنبوشية أوقفها صلاح الدين عليها ، وكان موقعها قبل ذلك قيسارية (سوق) عرفت بقيسارية الغزل بجوار الجامع العتيق بمصر ، ووقف عليها صلاح الدين أيضاً قيسارية الوراقين وعلوها بمصر، وكانت أجل مدرسة للمالكية (٢٢٦) .

وتنسب إلى صلاح الدين أيضاً المدرسة السيوفية التى حل محلها الآن مسجد المطهر بالصاغة بشارع المعز لدين الله ، وخصصت لفقهاء الحنفية (٢٢٧)، كما سمح للحنابلة أيضاً بممارسة نشاطهم (٢٢٨) .

كما أن تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين اشترى منازل الغز وبناها مدرسة للشافعية (٢٢٩) وقد اندثرت مدارس القاهرة التى انشئت في العصر الأيوبى (٢٣٠) .

(٢٢٣) الحياة الثقافية بين القاهرة وبغداد ابراهيم مدكور ج ١ ص ٦١ من أبحاث الندوة .

(٢٢٤) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٦٣ ، وعرفت هذه المدرسة أولاً بالمدرسة الناصرية ثم عرفت بابن زين التجار أحد أعيان الشافعية الذى درس بهذه المدرسة مدة طويلة .
وأنظر الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧١

(٢٢٥) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣١٩ .

(٢٢٦) وفي سنة ٨٢٥ م أخرج السلطان الأشرف برسباى ناحيتى الأعلام والحنبوشية من وقفها وجعلها إقطاعين لمملوكين له . المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٦٤

(٢٢٧) العمارة الاسلامية في مصر ص ٢٤ . أبحاث الندوة مجلد ١ ص ٢٥٤

(٢٢٨) أبحاث الندوة مجلد ١ ص ٢٥٤ .

(٢٢٩) المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٥٠ .

(٢٣٠) خصائص عمارة القاهرة التى أنشئت في العصر الأيوبى أحمد فكرى أبحاث الندوة الدولية

وبذلك يمكن القول أن صلاح الدين اتبع سياسة يمكن أن يطلق عليها سياسة الإزاحة ، أى إزاحة مذهب لإحلال مذهب آخر مكانه (٢٣١) .

ولاشك أن صلاح الدين فى إنشائه لتلك المدارس ، كان يحذوحذو مولاه نور الدين محمود الذى أكثر من بناء المدارس بالشام ، حيث كان نشر الثقافة وسيلة من وسائل نور الدين لتجميع الرأى العام حوله (٢٣٢) .

هذا ، وقد ألغى صلاح الدين المكوس (٢٣٣)والضرائب غير المشروعة التى كانت تجبى أيام الفاطميين متأثراً فى هذه الخطوة للتخفيف عن كاهل الناس بما فعله نور الدين فى الشام كذلك (٢٣٤) » .

وكانت النتيجة أن استعاد المذهب السنى قوته فى حين أخذ المذهب الاسماعيلى فى الاختفاء تدريجياً حتى لم يبق له أنصار فى مصر (٢٣٥) .

كان نور الدين محمود حريصاً على اسقاط الخلافة الفاطمية فى مصر لاسيما وقد تحقق من ضعفها ، وأنه لم يبق من أمراء السودان والعساكر المصرية أحد ، وأنه لم يبق لهم منعة ، وأن شوكة صلاح الدين قد قويت وزال من يخالفه (٢٣٦)، ولكن صلاح الدين كان يرى أن ثمة محاذير تحيط به ، وأن إسقاط خلافة وإعلان خلافة أمر يحتاج إلى وقت ، ولكن أمام إلحاح نور الدين شاور صلاح الدين الأمراء فى ذلك الأمر فانقسموا فى

---

(٢٣١) القاهرة ص ١١٥ .

(٢٣٢) الناصر صلاح الدين ص ٨١ ، ومصر والشام والصليبيون ص ١٠٧ ، وكان نور الدين نفسه قد حذا حذو ملكشاه السلجوقى الذى كان وزيره نظام الملك قد بنى المدرسة النظامية فى بغداد . سيرة القاهرة ص ١٦٧ .

(٢٣٣) اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٢١٩ والمواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٣٣ والمكوس مفردها « مكس » ضريبة تفرض على الانتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة فى الموانى .
التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٢٥

(٢٣٤) مصر والشام والصليبيون ص ١٠٧ .

(٢٣٥) مصر الفاطمية / د سرور ص ١٣٥ .

(٢٣٦) ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ١٦٢ .

الرأى بين مؤيد ومعارض ، وانبرى للأمر أمير أعجمى كان قد أتى ديار مصر حديثاً يعرف بالأمير العالم (٢٣٧)، فقال : أنا أبتدىء بها ، وفى أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ صعد الأمير العالم المنبر قبل الخطيب ، ودعا للخليفة الامام المستضىء بنور الله ، فلم ينكر ذلك أحد عليه ، وفى الجمعة الثانية أمر صلاح الدين بقطع الخطبة للخليفة العاضد فى مصر والقاهرة وإقامة الخطبة للخليفة المستضىء بنور الله « فلم يتحرك مخالف لذلك ولا مفكر له ، وانتظم الأمر (٢٣٨) » ، وقد عبر ابن الأثير وغيره عن هذا بقولهم : « فلم ينتطح فيها عنزان (٢٣٩) » .

وهكذا أجمعت المصادر التاريخية على الاشارة إلى أن الناس فى مصر استقبلوا هذا التغيير دون اكتراث أواهتمام بزوال الخلافة الفاطمية (٢٤٠) .

ولعل فى ذلك ترويجاً لقول السيوطى بأن « أهل مصر كانوا عبيداً لمن غلب (٢٤١) »

وهو قول سنناقشه بعد قليل لنبين صدى سقوط دولة الفاطميين لدى أهل مصر .

وقد اخفى أصحاب العاضد ذلك عنه ، حيث كان العاضد مريضاً ،

---

(٢٣٧) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ ، ويجعله المقريزى رجلاً من أهل المغرب يقال له اليسع بن عيسى بن حزم بن عبد الله بن اليسع أبو يحيى الغافقى الأندلسى . اتعاظ الحنفاج ٣ ص ٣٢٣ ، ويقول عنه رنسيمان : انه متصوف أتى من الموصل زائراً.تاريخ الحروب الصليبية ج ٣ ص ٦٣٦ ، وقيل رجل من بعلبك اسم محمد بن المحسن بن أبى المضاء البعلبكى . النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٥ .

(٢٣٨) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ والكواكب الدرية ورقة ٥٣ .

(٢٣٩) الكامل ج ٩ ص ١١١ والمختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٠ وتتمة المختصر ج ٢ ص ٧٩ .

(٢٤٠) الحروب الصليبية / باركر ص ١١٠ .

(٢٤١) يرجع المقريزى هذا القول

وقالوا «إن سلم فهو يعلم فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الأيام التى بقيت من أجله (٢٤٢).

وذكر ابن أبى طى أن الخليفة العاضد علم بالأمر قبل موته ، وأنه أهتم لذلك ، وقام ليدخل إلى داره ، فتعثر وسقط ، فأقام مريضاً مدة خمسة أيام ومات ، وقيل إنه امتص فص خاتمه ، وكان تحته سم فمات (٢٤٣)، وحكى القاضى الفاضل أنه قتل نفسه لما سمع بقطع خطبته (٢٤٤)، وقيل إن طبيبه المعروف بابن السديد امتنع من مداواته ، وقد نعى المقريزى موقف هذا الطبيب من العاضد فقال أنه « خذله مساعدةً عليه للزمان ، وميلاً مع الأيام (٢٤٥)» ؛ كما قيل كذلك أن توران شاه أخا صلاح الدين هو الذى قتله بنفسه (٢٤٦)، أو أن العاضد حصل له غيظ من شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخى صلاح الدين فسمّ نفسه ومات (٢٤٧)»

وكانت وفاة الخليفة العاضد فى ١٠ من المحرم سنة ٥٦٧هـ (٢٤٨)، وعلم صلاح الدين بموت العاضد فقال : « لو علمنا أنه يموت فى هذه الجمعة ماغصصناه برفع اسمه من الخطبة » فقال له القاضى الفاضل : « لو علم أنكم ماترفعون اسمه من الخطبة لم يمت » إشارة إلى أن العاضد قتل نفسه (٢٤٩).

وهكذا سقطت دولة الفاطميين لتحل محلها الخلافة العباسية التى ظلت قائمة رغم ضعفها وانحلالها لرغبة المسلمين فى الاحتفاظ بها لاعتقادهم أنه

(٢٤٢) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ والتاريخ الباهر ص ١٥٦ وقرة جلبى ص ٢٣٩ .

(٢٤٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٩ والكواكب الدرية ورقة ٥٣ .

(٢٤٤) الكواكب الدرية ورقة ٥٣ .

(٢٤٥) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٢٥ والنجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٥٧ .

(٢٤٦) الناصر صلاح الدين ص ٨٦ .

(٢٤٧) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٢ .

(٢٤٨) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٠١ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٩ وأنظر .
Ency- de L'Isl, arte al adid, T. 1., PP. 203- 204

نظام لابد منه لصلاح العالم الإسلامى ، واستقامة شئونه (٢٥٠).

هذا . وقد أرسل الخليفة المستضىء بهذه المناسبة الخلع إلى نور الدين إكراماً له ، وكذلك أرسل خلعاً إلى صلاح الدين إلا أنها أقل من خلع نور الدين ، وسيرت الأعلام السود لتنصب على المنابر (٢٥١).

وهكذا رجعت الدعوة العباسية بعد أن كانت قد قطعت بالديار المصرية مائتين وعشر سنين (٢٥٢).

صدى سقوط الخلافة الفاطمية فى مصر :-

صمتت أغلب المصادر عن الافصاح عن حقيقة الشعب المصرى من إنهاء الخلافة الفاطمية ، ونحن نقرر بدءاً أن موقف المصريين لم تدل عليه ثورة عارمة فورية وهذا ما عُبِّرَ عنه بقولهم : « ولم ينتطح فيه عنزان » فهل كان من المنتظر أن يهب المصلون على أثر إعلان الخطبة للعباسيين فى ثورة عارمة فورية بين أرجاء المسجد ؟! إذا كان هذا هو المراد ، فهو خطأ فى استعجال النتائج ، وما هكذا تتفجر الثورة أمام حاكم له السلطة وله الجيش وله القوة المسلحة ، ولكن المتدبر لما أعقب ذلك من ثورات مصرية يعلم أنه قد انتطح فيها أكثر من عنزين .

وقد فطن بعض المؤرخين إلى غرابة تصديق أن يمر الأمر هكذا ، ولكنه أقر فى النهاية بأن التغيير قد تم فيقول : « ومهما كان من غرابة هذا الأمر ، وصعوبة تصديقه ، فواقع الأمر أن التغيير الفورى هذا قد تم ، ولم ينتطح فيه عنزان (٢٥٣)» .

كما استدل ستانلى لين بول على أن التعصب الشيعى كان لايزال قوياً

(٢٤٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٩ والكواكب الدرية ورقة ٥٣

(٢٥٠) Saunders, A history of medieval Islam, p. 164

(٢٥١) التاريخ الباهر ص ١٥٧ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ ودول الاسلام ج ٢ ص ٨٠

(٢٥٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٤١ ودول الاسلام ج ٢ ص ٨٠

فى القاهرة بعد اثنتى عشرة سنة كاملة على سقوط دولة الفاطميين ، وذلك من خلال وصف الرحالة ابن جبير لمشهد الإمام الحسين بن على ، ومايفعله الناس فى هذا الضريح ، وذلك حيث قال ابن جبير : « وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين ، متوسلين إلى الله سبحانه ببركة التربة المقدسة ، ومتضرعين مايذيب الأكباد ، ويصدع الجماد ، والأمر فيه أعظم ، ومرأى الحال أهول ، نفعنا الله ببركة ذلك المشهد الكريم [٢٥٤] » .

والذى نخلص إليه أن سقوط دولة الفاطميين التى كان لها فى نفوس المصريين مكانة كبيرة حيث كانت تعنى بالنسبة لهم مصر المستقلة القوية التى كانت تناوىء - فى عهد قوتها - خلافة العباسيين والتى كانت تعتمد على المصريين فى دواوينها ، بالإضافة إلى أن أيامها فى مصر كانت أعياداً متصلة ، لم يعرف لها مثيل من قبل للمسلمين وللمسيحين على حد سواء ، وكانت تعرف لدى المؤرخين بدولة المصريين [٢٥٥] .

ولم يكن قضاء صلاح الدين على الخلافة الفاطمية يعنى سوى أن مصر قد صارت دولة تابعة لخلافة العباسيين ، وقد عبرّ ابن جبير عن هذا المعنى حيث قال أنه « بإنهاء خلافة الفاطميين تملّك الغزّ ديار مصر » .

والحق أن شعب مصر عبرّ عن وفائه لتلك الدولة ، وعبرّ عن شعوره بالأسى لزوالها ، وكان من مظاهر ذلك جزعهم لوفاة الخليفة العاضد الذى فاق الحدود فقد كان لموته بمصر « يوم عظيم إلى الغاية » وقد وَجد عليه المصريون وجداً عظيماً حتى إن نفوسهم « كادت تزهق حزنا [٢٥٦] » .

وفى حب المصريين للفاطميين ورغبتهم فى أن تعود أيامها قال ابن

(٢٥٤) سيرة القاهرة ص ١٦٠ ، ١٦٢ ورحلة ابن جبير ص ٤٨ .

(٢٥٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٧ والنوادر السلطانية ص ٧٩ وانظر ظهور دولة الفاطميين وسقوطها ص ٤٩٢ .

خلكان « وكان أهل مصر يؤثرون عودهم [٢٥٧] » ، كما يحدثنا ابن شداد « عما كان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين [٢٥٨] » .

وقد أدرك صلاح الدين نفسه ذلك ، وعبر فى إحدى رسائله إلى نور الدين عن أن المصريين يناصبونه العداء ، وأنهم أعداء وإن قعدت بهم الأيام ، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمة الاسلام [٢٥٩] .

ولاشك أن إساءة صلاح الدين السيرة فى أهل الخليفة العاضد كانت من دوافع المصريين إلى هذا الاستياء ، فقد احتاط قراقوش على أهل العاضد وأولاده ، وأخرجهم من القصر ، ثم فرّق بين الرجال والنساء لئلا يتناسلوا ، وليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم [٢٦٠] ، وقد باع الجوارى والعبيد ، وباع محتويات القصر ، واستمر ذلك البيع مدة عشرة أعوام ، وملك صلاح الدين القصور التى أخرج منها أهلها لأمرائه ، « فأعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه ، وأسكن أباه نجم الدين أيوب بن شادى فى قصر اللؤلؤة على الخليج ، وأخذ أصحابه دور من كان ينسب إلى الدولة الفاطمية ، فكان الرجل إذا استحسن داراً أخرج منها سكانها [٢٦١] » ، وأخليت أمكنة من القصر الغربى سكن فيها الأمير موسك والأمير أبو الهيجاء السمنى وغيرهم من الغز ، وملئت المناظر المصونة والمتنزهات التى لم يخطر ابتذالها فى الخاطر [٢٦٢] » ، ويعقب المقريزى على ذلك بقوله : « فسبحان مظهر العجائب ومحدثها ووارث الأرض وموزثها [٢٦٣] » .

(٢٥٧) وفيات الأعيان ط السعادة ١٩٤٨ ج ٦ ص ١٥٦ .

(٢٥٨) النوادر السلطانية ص ٧٩

(٢٥٩) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٤٨ .

(٢٦٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٦ والمواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦

(٢٦١) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦

(٢٦٢) نفس المصدر ج ١ ص ٤٩٦ وانظر كذلك الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧١

(٢٦٣) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦

هذا وقد عمل صلاح الدين على القضاء على معالم الدولة الفاطمية ، فنزع المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة ، والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين والتى كان وزنها خمسة آلاف درهم فضة نقرة (٢٦٤).

وقد أحس المصريون بأن أموال مصر وخيراتها تخرج للترك الغرباء فى مصر والشام/ وأحسوا باختفاء العملة الذهبية والفضية من التداول أيام صلاح الدين ، وظهرت بدلها عملة رديئة هى الفلوس التى كانت من النحاس المخلوط بالفضة ، وعبرّ المقريزى عما أصاب المصريين من ذلك فقال : « وعمت بلوى الضائقة بمصر لأن الذهب والفضة خرجاً منها ومارجعا ، وعدما فلم يوجدا ، ولهج الناس بما عمهم من ذلك ، وصاروا إذا قيل دينار أحمر ، فكأنما ذكرت حرمة الغيور له ، وان حصل فى يده ، فكأنما جاءت بشارة الجنة له (٢٦٥).

كذلك استبعد صلاح الدين رجال مصر من وزارته وجيشه ، وأنزل رجاله فى بيوتهم ، وهم كذلك بإخراج القبط من الدواوين لولا خوفه من أن يتوقف دولاب العمل (٢٦٦).

وإذا كان بعض من وفد على الدولة الفاطمية قد وفى لها ، فكيف بأهل البلاد الذين يودعون دولة عاشوا فى أعطافها ماينيف على قرنين من الزمان ؟! . لقد وفى عمارة اليمنى الشاعر الوافد على دولة الفاطميين لهؤلاء الفاطميين الذين أكرموا وفادته ورثى دولتهم بقصيدة رائعة حاز بها إعجاب المقريزى الذى قال « ولله در الفقيه عمارة » وقال ابن سعد عن هذه القصيدة : « ولم يسمع فيما يكتب فى دولة بعد انقراضها أحسن منها (٢٦٧)» .

(٢٦٤) السلوك ج ١ ق ٢ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢٦٥) السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٧ .

(٢٦٦) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ٦٩ وظهور دولة الفاطميين وسقوطها ص ٤٩٣ .

(٢٦٧) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦ .

وهى القصيدة التى يقول فيها :-

رميت يادهر كفَّ المجد بالشلّل ... وجيده بعد الحسن بالعطل

وفيها :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة ... على فجيعتها فى أكرم الدول

وينعى على صلاح الدين مافعله بالفاطميين ، ويرى أن الفرنج لو تمكنوا منها مافعلوا أقبح مما فعل فيقول :-

ماذا عسى كانت الأفرنج فاعلة ... فى نسل آل أمير المؤمنين على

هل كان فى الأمر شىء غير قسمة ما ... ملكتمو بين حكم السبى والنَّفل

ثم يتحسر على القصر الخالى من أصحابه فيقول :-

مررتُ بالقصر والأركان خالية ... من الوفود وكانت قبلة القبل

فملتُ عنها بوجهى خوف منتقدٍ ... من الأعادى ووجه الود لم يمل

ثم يعدّد أيام أعيادهم ومكارمهم ، ثم يظهر كراهيته علناً لمن سلبهم ملكهم فيقول :

والله لافاز يوم الحشر مبغضكم ... ولانجا من عذاب الله غير ولى

ولاسقى الماء من حر ومن ظمأ ... من خان عهد الامام العاضد بن على

ثم هو يقسم على حبهم حتى آخر عمره فيقول :-

والله مازلت عن حبى لهم أبداً ... ماأخر الله لى فى مدة الأجل (٢٦٨)

وقال عمارة فى قصيدة أخرى ينعى العاضد ، ويعرّض بصلاح الدين :

أسفى على زمن الإمام العاضد ... أسف العقيم على فراق الواحد

لهفى على حجرات قصرك إذ خلت ... يابن النبى من ازدحام الواحد

وعلى انفرادك من عساكرك الذى ... كانوا كأمواج الخضم الراكد

قلّدت مؤتمن الخلافة أمرهم ... فكبا وقصّر عن صلاح الفاسد (٢٦٩)

ولم يقف الأمر على عمارة ، فربما عبرّ بالكتابة على الجدران ينعى دولة

(٢٦٨) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٤٩٦ .

(٢٦٩) وهو يشير إلى فشل ثورة مؤتمن الخلافة فى القضاء على صلاح الدين ، وفى قوله « صلاح

الفاطميين ، فمن ذلك ماوجد مكتوباً على بعض جدران القصر :-

ياهـذه الـدنيا عجبت لمولـع   بك كيف أضحى فى هواك يقاد
ماصحّ منك لآل أحمد موعـد   فكيف منـك لغـيرهـم ميعـاد
أمـا نعيمـك فهـو ظل زائـل   وصـلاح ما تأتيه فهـو فساد (٢٧٠)

ولعلنا نخلص من ذلك إلى أن رنة الفرح التى سادت أرجاء دولة العباسيين بصيرورة مصر إحدى ولاياتها ، قابلها رنة الحزن فى قلوب المصريين الذين فقدوا استقلالهم بزوال دولة الفواطم .

وإذا كان الحال كذلك فلا غرو أن تقوم بعض الحركات فى مصر تستهدف إعادة الدولة الفاطمية ، وتخليص البلاد من استبداد صلاح الدين ، ومن تبعيتها لدولة العباسيين ، وعلى ذلك فإن ثورات المصريين ضد صلاح الدين نبعت من باعث وطنى ضد الاحتلال التركى (٢٧١) .

حركة عمارة اليمنى :-

كانت أكبر المحاولات لإعادة الخلافة الفاطمية هى تلك الحركة التى شارك فيها عدد كبير من المصريين فيهم القاضى والداعى والكاتب والأمير وأستاذ القصر والعوام من الشعب (٢٧٢)، فقد اشترك فيها المفضل بن كامل القاضى ، وابن عبد القوى الداعى ، والعوريس ، وكان يتولى ديوان النظر ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرما كاتم السر ، وعبد الصمد القشة أحد امراء المصريين ونجاح الحمامى ورجل منجم نصرانى ، وكان ممن تزعم هذه الحركة عمارة اليمنى الذى ظل على وفائه للفاطميين حتى حبل المشنقة ولم يكن هناك ود بين عمارة وبين الحكم الجديد فقد « كان عمارة مستشعراً من الغز وهم أيضاً منه لأنه كان من أتباع الدولة المصرية (٢٧٣)» ، وقد

(٢٧٠) اتعاظ الحنفاء ج ٣ ص ٣٣٤ وفى البيت الأخير كذلك تورية واضحة وتعريض بصلاح الدين .

(٢٧١) الناصر صلاح الدين ص ٩٢ .

(٢٧٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦١ .

اشترك فى الحركة كذلك السودانيون ، وبعض التركمان ، وأسرة شاور ، وبنورزيك ، وكل من كان ساخطاً على قيام النظام الجديد (٢٧٤)، وكان ذلك فى سنة ٥٦٩هـ /١١٧٣م (٢٧٥) . وكانوا قد اتفقوا على تولية الخلافة إلى ابن العاضد الأكبر ، ولقبوه « الحامد لله » ، غير أنهم كانوا قد أدخلوا معهم رجلاً من الأجناد ليس من أهل مصر ، فحضر عند صلاح الدين وأخبره بأمرهم (٢٧٦) .

وكانت الظروف آنذاك تساند الثائرين حيث ساءت الأحوال فى بلاد اليمن فى أعقاب استيلاء عبد النبى على زبيد ، وقطع الخطبة العباسية بها والخطبة لنفسه ، مما دفع توران شاه رجل صلاح الدين القوى الذى كان قد عاد من بلاد النوبة بعد غزوه لها حيث لم يطب له المقام إلى ابداء الرغبة فى فتح اليمن فوافقه صلاح الدين وزيّن له عمارة اليمنى ذلك الأمر حيث رأى الخير فى غيبة توران شاه عن مصر أثناء تفجر الثورة (٢٧٧) .

ويقول المؤرخون أن زعماء الحركة اتصلوا بعمورى ملك بيت المقدس ليؤازرهم فى إنجاح حركتهم ، ففى حين يهاجم الفرنج فى وقت حدوده ، يقوم هؤلاء بحركتهم فى الداخل ، ويعيدون دولة الفاطميين .

وهذا الادعاء يعوزه الدليل ، ويضعفه محاولة تكرار تلك الوصمة فى كل محاولة مصرية رغبة فى تشويه الأهداف (٢٧٨)، ولم يكن الفرنج فى كل حركة قاموا بها ضد مصر فى حاجة إلى تآمر أو استدعاء ، فهم كانوا يستشعرون على الدوام الخطر النورى على مصر ، ويحاولون القضاء عليه ، وقد سبق أن جاءعمورى إلى مصر دون يستدعيه شاور طامعاً فى احتلالها (٢٧٩)،

(٢٧٤) مصر العربية الإسلامية ص ٢٣٨

(٢٧٥) الناصر صلاح الدين ص ٩٢

(٢٧٦) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٤٣٥

(٢٧٧) وقد وقعت ثورة عمارة بعد مسير شمس الدولة إلى البلاد اليمنية الأخبار السنية ص ١٦٢ .

فهؤلاء كان يدفعهم الطمع فى اخلاق صلاح الدين والأمل فى الحصول على المغانم (٢٨٠).

وكذلك أضاف المؤرخون (٢٨١)أن ثمة اتصالاً جرى بين الثائرين فى مصر وبين رشيد الدين بن سنان سليمان فى مصياف (٢٨٢)مقر الحشيشية حيث أرسلوا إليه : « أن الدعوة جامعة ، وأن مابين أهلها خلاف إلا فيما يفترق به كلمة ، ولا يجب به قعود عن نصرة » واستدعوا منه من يقتل صلاح الدين غيلة أو يبيت له مكيدة وحيلة (٢٨٣).

وعلى أية حال ، لم ينجح الثائرون للفاطميين فى حركتهم ، واكتشف أمرهم نتيجة للخيانة ، ونتيجة ليقظة صلاح الدين لما يتهدده من أخطار من ناحية المصريين . واستفتى صلاح الدين الفقهاء فى أمرهم فأفتوا بقتلهم فأمر بقتلهم (٢٨٤) ، وشنق أقطاب الثائرين جميعاً فى يوم السبت ١٢ رمضان سنة ٥٦٩هـ بين القصرين : فشنق عمارة وصلب فيما بين بابى الذهب وباب البحر ، وابن كامل فى رأس الخروقيين ، التى تعرف اليوم بسوق أمير الجيوش ، والعوريس على درب السلة ، وعبد الصمد ، وابن سلامة وابن المظبىّ الأمير ومصطنع الدولة والحاج عبد القوى بالقاهرة ، وشنق ابن كامل القاضى بالقاهرة يوم الأربعاء ١٩ رمضان ، وشنق أيضاً ابن شبرما وأصحابه ، وجماعة من الأجناد والعبيد والحاشية ، وبعض أمراء صلاح الدين ، واستولى صلاح الدين على جميع ماهم من مال وعقار ، ولم

(٢٨٠) الناصر صلاح الدين ص ٩٣ وانظر كذلك .
Kirk, A Short history of the midde East, P. 47 .

(٢٨١) « وأكثرهم من أنصار السنة أصحاب صلاح الدين » الناصر صلاح الدين ص ٩٤ .

(٢٨٢) حصن حصين مشهور للاسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس ، ويقال له مصياب .
معجم البلدان ج ٥ ص ١٤٤

(٢٨٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٥ والحروب الصليبية / باركر ص ٩٢ .

يمكن ورثتهم من شىء ألبتة (٢٨٥)، ويقال إنه لم يتعرض بسوء لجنده وقواده الذين خرجوا عليه ، وإنما تجاهل فعلتهم عساهم يرتدون عن غيهم (٢٨٦).

ومما يدلّ على أن الحركة لم تكن محدودة أن صلاح الدين « تتبع كل من له هوى فى الدولة الفاطمية ، فقتل منهم كثير ، وأسر كثير (٢٨٧)» ، ثم ما أصدره صلاح الدين من أمر بترحيل كافة الأجناد ، وحاشية القصر والسودانيين إلى أقصى بلاد الصعيد (٢٨٨)، وقبض على كثير من السودانيين فكووا بالنار فى وجوههم وصدورهم (٢٨٩).

وقد واكب هذه الحركة الثورية حركة أخرى فى مدينة الاسكندرية حيث قام بذلك رجل يسمى قديد من دعاة الفاطميين ، فقبض عليه صلاح الدين كذلك (٢٩٠)، وقد وصف صلاح الدين مدى الخطر الذى مثّله ذلك الرجل فى خطابه إلى نور الدين حيث قال له : « ومما يطرق به المولى أن ثغر الاسكندرية على عموم مذهب السنة فيه ، اطلع البحث أن فيه داعية خبيثاً أمره ، محتقراً شخصه ، عظيماً كفره ، يسمى قديداً القفاص ، وأن المذكور مع خموله فى الديار المصرية قد فشت فى الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته ، وأن أرباب المعايش فيها يحملون إليه جزءاً من كسبهم ، والنساء يبعثن إليه شطراً من أموالهن ، ووجدت فى منزله بالاسكندرية عند القبض عليه والهجوم إليه ، كتب مجردة ، فيها خلع

(٢٨٥) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥٠ ودول الإسلام ج ٢ ص ٨٤ والسلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ .

(٢٨٦) Lane- Poole, Saldin, P. 101 .

(٢٨٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ والحروب الصليبية / باركر ص ٢١٢ وانظر
Wiet, L'Egypte arabe, P. 300 .

(٢٨٨) مصر فى العصور الوسطى / د . على إبراهيم ص ١٧٨ وانظر
Lane- Poole, Saladin, P. 101

(٢٨٩) السلوك ج ١ ق ١ ص ٧٥ .

(٢٩٠) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ٧٥

العذار ، وصريح الكفر الذى ما عنه اندفاع واعتذار ، ورقاع يخاطب فيها بما تقشعر منه الجلود ، وكان يدعى النسب إلى أهل القصر ، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً ، ونشأ على الضلالة كبيراً ، وبالجملة فقد كفى الإسلام أمره ، وحاق به مكره ، وصرعه كفره [٢٩١] » ، ولسنا ندرى كيف يكون أمره محتقراً من « فشت فى الشام دعوته ، وطبقت عقول أهل مصر فتنته .

هذا ماكان من شأن أخطر الثورات المصرية لاعادة الحكم الفاطمى وماواكبها ، تلك الحركة التى قال صاحب الكواكب الدرية عن مدبريها « وكاد أمرهم أن يتم [٢٩٢] » .

أما الفرنج الذين هاجموا الاسكندرية ، والذين كانت أنظارهم دائماً تتجه إلى مصر طمعا فيها ، والذين كانوا يعلمون مدى تحرج موقفها بعد سقوط دولة الفاطميين فقد وصلت قوات وليم النورمانى فى ٧ صفر سنة ٥٧٠هـ [٢٩٣]، فى ستمائة قطعة مابين شانى وطرادة وبطسة [٢٩٤]، وغير ذلك وكانت قواتهم تبلغ ثلاثين ألفاً ، وقد تمكنت هذه القوات من حصار

(٢٩١) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٦ .

(٢٩٢) الكواكب الدرية ورقة ٦٢ .

(٢٩٣) النوادر السلطانية ص ٨٠ ، وجعل أبو شامة نزولهم فى ٢٦ ذى الحجة سنة ٥٧٠ هـ وانهزامهم فى أول المحرم . الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٦٨ .

(٢٩٤) الشانى أو الشينى تجدف بثلاثة وأربعين ومائة مجدافاً ، ومزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، وتحتوى على أهراء القمح وصهاريج لخزن الماء العذب .

تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ص ٧٤ .

وتاريخ التمدن الاسلامى ج ٢ ص ٢٠٠ وقوانين الدواوين ص ٣٤٠

Muslim sea Power, P. 134 .

والطريدة : مركب برسم حمل الخيل ، وأكثر مايحمل فيها أربعون فرساً .

قوانين الدواوين ص ٣٣٩

والبطسة : من السفن الحربية العظيمة التى تستعمل على عدة طبقات وعلى قلوع كثيرة تقدر بأكثر من أربعين قلعا وتستخدم فى حمل الأذواد والذخيرة والرجال .

تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى ص ٧٤ ـ ٧٥

وأنظر Muslim sea Power, P. 137 .

ثغر الاسكندرية ، ومحاربته مدة ثلاثة أيام ، ولكن مقاومة المصريين الباسلة التى أسفرت عن إحراق بعض سفنهم واضطرت هذه القوات إلى العودة خائبة خاسرة بعد أن أسرع صلاح الدين لنجدة الاسكندرية [٢٩٥] .

أما الملك عمورى صاحب بيت المقدس فإنه كان قد توفى فى بيت المقدس دون أن يرسل قوات تعاون القوات الصقلية [٢٩٦] .

ولعل وصول هذه القوات متأخراً عن زمن قيام ثورة عمارة وشركائه دليل على أنه لم يكن ثمة تخطيط بين القائمين على الثورة وملوك الفرنجة ، وإنما كان الدافع إلى تحرك الفرنج أنهم علموا بتغييرات الأحوال فى الديار المصرية وتقلبات الدول بها ، فداخلهم الطمع فى البلاد كما قال ابن شداد [٢٩٧]

على أن القاضى الفاضل فيما يرويه عنه أبى شامة يجعل إقدام صاحب صقلية على القدوم إلى مصر الرغبة فى الثأر ، وذلك حيث يقول : « ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية ، وكان حين علم بأن صاحب الشام ، وصاحب قسطنطينية ، قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغُلِبا وقُسِرا ، وهُزِمَا وكُسِرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثر عدته ، وتنتخب عدته ، إلى أن وصل منها فى السنة الخالية أمر رائع ، وخطب هائل ، ماأثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله ، وماهو إلا إقليم بل أقاليم نقله ، وجيش مااحتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله [٢٩٨] » .

(٢٩٥) الكواكب الدرية ورقه رقم ٦٣

(٢٩٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٣٣٢ .

ومصر فى العصور الوسطى ص ١٧٧

(٢٩٧) النوادر السلطانية ص ٧٩ .

(٢٩٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٢١

ثورة الكنز فى صعيد مصر :-

لم تقف الحركات ضد صلاح الدين على ماحدث فى مصر والقاهرة والإسكندرية ، بل امتد ذلك حتى أقاصى الصعيد حيث قام به كنز الدولة والى أسوان ثائراً ، وسيطر على جنوب الصعيد (٢٩٩) ، واجتمع إليه من المصريين والسودانيين والعرب وغيرهم كثيرون (٣٠٠)عن إخلاص للدولة الفاطمية فقد « كان فى قلوب القوم من مهاواة المصريين ما تستصغر هذه الأفعال عنده (٣٠١)» ، وقد امتدت ألسنة تلك الثورة حتى شملت إقليم قوص (٣٠٢)بأكمله ، فجرّد له صلاح الدين قطعة كبيرة من العسكر بقيادة أخيه العادل سيف الدين أبى بكر ، ومعه من الأمراء حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وعز الدين موسك ، وعدة من الأمراء وأصحاب الاقطاعات هناك ، وصحبه فى تلك الحملة مهذب بن ممّاتى صاحب كتاب قوانين الدواوين (٣٠٣) ، وقد وصف ابن شداد جيش العادل هذا ودافعهم إلى القتال بأنهم : من الذين ذاقوا حلاوة البلاد المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم (٣٠٤)» ، ففر الكنز إلى مدينة طود (٣٠٥)حيث واكبت ثورته فيها ثورة عباس بن شادى أحد المخلصين للفاطميين كذلك ليتقوى به ، فهاجم الجيش العادلى مدينة طود ، وتمكن من هزيمة الحليفين ،

(٢٩٩) مصر العربية الاسلامية ص ٢٣٩ .

(٣٠٠) الكامل ج ٥ ص ١٣٠ .

(٣٠١) النوادر السلطانية ص ٧٩ ووفيات الأعيان ج ٦ ص ١٥٦ .

(٣٠٢) وكانت قوص قاعدة لإقليم يعرف بالقوصية منذ عهد الفاطميين إلى آخر أيام المماليك . وهى قصبة صعيد مصر . مراصد الاطلاع ج ٢ ص ١١٣٣ . النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨٣

(٣٠٣) التاريخ الحربى لصلاح الدين ص ٤٧ .

(٣٠٤) النوادر السلطانية ص ٧٩ .

(٣٠٥) طود : وصفها ياقوت بأنها « بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ، ودون أسوان لها مناظر

وقتل عباس بن شادى ، فى حين تمكن كنز الدولة من الفرار ، ولكن بعض جند العادل لحقوا به وقتلوه (٣٠٦)» .

وقد بلغ أتباع الكنز وعباس بن شادى مائة ألف من أهل الصعيد الأقوياء ، والجنود الكثيرين من المصريين والسودانيين ، الذين كان صلاح الدين نفاهم إلى الصعيد ، وقد بلغ من النكاية بهم أنه قُتل منهم ثمانون ألفاً ، ونهبت بلاد الصعيد ، وأخذ الأسرى الكثيرون من أهلها ، حيث صلب منهم نحو ثلاثة آلاف على الأشجار بعمائمهم وطيالسهم على حد قول المقريزى (٣٠٧) .

وهكذا ، ومما تقدم ، نرى أن سقوط الدولة الفاطمية لم يمر فى هدوء بالنظر إلى تلك الحركات الثورية القوية التى أعقبتها ، والتى كاد ينجح بعضها كالحركة التى تزعمها عمارة اليمنى ، ولاشك أن تلك الثورات كانت تعبيراً عملياً عما اختلج فى قلب المصريين من حزن وأسى عميقين لذهاب دولتهم دولة المصريين ؛ ولكن صلاح الدين ورجاله « من الذين ذاقوا حلاوة البلاد المصرية ، وخافوا على فوت ذلك منهم » بما تهيأ لهم من إمكانيات عسكرية تمكنوا من إخماد هذه الثورات قبيل انفجارها أوبعده .

على أن الانتصارات الصلاحية التى أحرزها صلاح الدين على الجبهة الفرنجية فيما بعد أظهرت الناس على بطل إسلامى مرتقب لتحرير بلاد المسلمين فالتفوا حوله وأيدوه حتى إنه عندما خرجت فى سنة ٥٨٤هـ طائفة بمصر ممن ظلوا على إخلاصهم للفاطميين ونادوا فى الليل « ياآل على ياآل على » لم يجبهم أحد من العامة أو التفت إليهم ، وتم أخذهم بسهولة (٣٠٨) ، وكيف لمثل هذه الحركة أن تنجح بعد انتصار حطين العظيم الذين حققه صلاح الدين على الفرنج فى سنة ٥٨٣هـ ؟!

(٣٠٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٠٢ .

(٣٠٧) التاريخ الحربى لصلاح الدين ٨٩ وظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ص ٤٩٨ ، ٤٩٩ .

(٣٠٨)البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٣١ .

ورغم ذلك فإنه بعد وفاة داود بن العاضد فى سنة ٦٠٤ هـ فى محبسه. وكان يزعم أن العاضد عهد إليه ، وأنه الإمام من بعده ـ فإن أصحابه استأذنوا الملك الكامل أن ينوحوا عليه ، وأن يندبوه ، فأذن لهم « فبرزت النساء حاسرات ، والرجال فى ثياب الصوف والشعر ، وأخذوا فى ندبه ، والنياحة عليه ، واجتمع معهم من فى الاستتار من دعاتهم [٣٠٩] » ، ورغم أن الكامل قد أذن لهم ، فإنه صبر عليهم ، حتى تكاملت أعدادهم ، ثم أرسل إليهم جنوده ، فنهبوهم وقبضوا على المعروفين منهم ، ولم يكونوا قلة فقد « ملأ بهم السجون [٣١٠] » ، وقد استولى الكامل على أموالهم ، ومع ذلك فرّ بعضهم ولكن منذئذ « زال أمر الاسماعيلية من ديار مصر ، ولم يجسر أحد بعدها أن يتظاهر بمذهبهم [٣١١] »

والسؤال الآن : هل يمكن بعد ذلك أن يقال أن المصريين لم يأسوا على زوال دولة الفاطميين « دولة المصريين » ولم يبالوا بسقوطها ؟! ولعل جوستاف فون جروبناوم يجيب على ذلك السؤال حيث قال : « وبرغم أن الكثير مما أرساه الفاطميون فى مصر قد ألغى أو عدل على نحو محا طابعه تماماً فى خلال بضع سنوات بعد تركهم لكراسى الحكم ، إلا أن قصة الفاطميين قد بقيت فى ذاكرة المصريين باعتبارها طوراً مجيداً ، بل ومحيراً فى تاريخهم الطويل [٣١٢] » .

ونختم حديثنا فى هذا الموضوع بقول المقريزى عن دولة الفاطميين وأتباعها حيث يقول : « وكانت أساسات دولتهم راسخة فى التخوم ، وسيادة شرفهم قد أنافت على النجوم ، وأتباعهم وأولياؤهم لايحصى لهم عدد ، وأنصارهم وأعوانهم قد ملئوا كل قطر وبلد [٣١٣] »

(٣٠٩) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦٩ .

(٣١٠) نفس المصدر ج ١ ق ١ ص ١٦٥ .

(٣١١) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٦٩ .

(٣١٢) أبحاث الندوة الدولية ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣١٣) اتعاظ الحنفا ج ٣ ص ٣٤٦ .

ونلمح إلى قوله فى تحيز من كتب ضدهم من البغداديين والشاميين دون المصريين ، حيث يقول : « فحكمّ العقل ، واهزم جيوش الهوى ، وأعط كل ذى حق حقه ، ترشد إن شاء الله تعالى [٣١٤] » .

ولاشك أن الثورات التى حدثت فى عهد صلاح الدين قد دفعته إلى أن يسرع فى التفكير فى بناء قلعة تكون حماية له من خطر الفاطميين فى الداخل ، وكذلك من أى خطر خارجى ، ولعله كان يقتدى فى ذلك بما شهد منذ حداثته فى بلاد الشام ، حيث كان الصليبيون يحيطون مدنهم بسور خارجى فى داخله قلعة تقيهم شر الثورات الداخلية ، أو الغزو الخارجى [٣١٥] .

(٣١٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٣١٥) التاريخ الحربى لصلاح الدين ص ٨٩ ، ٩٠ .

« العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين »

يذكر المؤرخون أن العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين لم تكن على ماينبغى وعبروا عن هذا بقول مبهم هو « الوحشة فى الباطن »، والحق أن الخلاف بين الرجلين لم يتعدّ أن يكون خلافاً فى الرأى حول بعض الأمور ، والخلاف فى الرأى - لا يفسد للود قضية كما يقال :

على أننا ينبغى أن نتذكر أن نور الدين - فيما يرويه هؤلاء المؤرخون - هو الذى أرغم صلاح الدين على الذهاب - إلى مصر على غير رغبة من صلاح الدين ، وصلاح الدين - فيما يروى هؤلاء المؤرخون ايضاً - هو الذى قال : « والله لو أعطيت ملك مصر ماسرت إليها » وهو الذى قال بعد أن أجبره نور الدين على المسير إلى مصر : فكأنما أساق إلى الموت » وقال « فسرت وكأنما طعنوا قلبى بسكين » ، وفيه قال ابن الأثير « عجبت لقوم يساقون إلى الجنة رغم أنوفهم » ورغم ذلك فقد سار إلى مصر بأمر من نور الدين الذى قال له : « لابد من مسيرك إلى مصر »

فصلاح الدين جاء إلى مصر باختيار نور الدين وهو رجله أولا وقبل كل شىء ، وكان صلاح الدين يعرف لنور الدين قدره ويعرف محله منه فكان « لايخرج عن أمر نور الدين ، ويعمل له عمل القوى الأمين ، ويرجع فى جميع مصالحه إلى رأيه المتين [٣١٦]»

ولكن هذه العلاقة لم تكن لتمنع الخلاف بين رجلين وهُبِ كل منهما درجة عالية من الكفاية والمقدرة .

١ - ولعل أول ما وقع من خلاف فى الرأى بينهما هو ماحدث فى شأن قطع الخلافة الفاطمية ، حيث كان صلاح الدين فى مصر يرى أن الوقت لم يحن بعد للإقدام على هذه الخطوة ، ويخشى من قيام الفتنة ، فى حين

(٣١٦) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٠٣ .

كان نور الدين يرى ضرورة حسم هذا الأمر وكان فى رأيه هذا يصدر عن بعد نظره السياسى ، وتعامله منذ فترة طويلة مع الوزراء المصريين ، وكان يدرك ضعف الخلافة الفاطمية التى أصبحت بلا شخصية قيادية قادرة ، بعد وفاة شاور الوزير الداهية ، كما أن الخليفة العباسى المستنجد بالله من ناحية أخرى كان قد أرسل إليه يعاتبه فى تأخير إقامة الدعوة له بمصر [٣١٧] .

٢ - وقد أكدّ نور الدين حرصه على صلاح الدين عندما أرسل إليه إخوته وأباه [٣١٨]بناء على طلبه بعد أن كان قال له : « أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد » ، كما قال لشمس الدولة توران شاه الأخ الأكبر لصلاح الدين - الذى اشتهر بقوة شكيمته وطموحه - « إن كنت تسير إلى مصر ، وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذى كان يقوم فى خدمتك وأنت قاعد ، فلا تسر ، فإنك تفسد البلاد ، وأحضر حينئذ ، وأعاقبك بما تستحقه ، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر ، وقائم فيها مقامى ، وتخدمه بنفسك كما تخدمنى ، فسر إليه واشدد أزره ، وساعده على ماهو بصدده » فأجابه توران شاه بالسمع والطاعة .

٣ - قام نور الدين بأعمال عسكرية فى بلاد الفرنج ليؤمن وصول نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، ومن صحبه من العسكر إلى صلاح الدين [٣١٩] .

٤ - كان فتح مصر من وجهة نظر نور الدين خطوة هامة يقصد من ورائها توجيه الضربة القاضية للفرنج للقضاء على مملكة بيت المقدس قضاء مبرما [٣٢٠]، لاسيما وأن مملكتهم كان قد أصابها الوهن آنذاك ، وملوك

(٣١٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦٠

(٣١٨) وقد وصل أيوب فى ٢٤ رجب سنة ٥٦٥ هـ ، وخرج العاضد للقائه

وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٥٧

أوربا فى شغل عن الشام وأهله ، والبيزنطيون الذين أصاب امبراطورهم مانويل الوهن كانوا عاجزين عن التدخل (٣٢١)، وقد عبر نور الدين عن هذا المعنى حين أرسل إليه صلاح الدين بهدية من مصر حيث قال : « ماكان بنا حاجة إلى هذا المال ، وهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب فى ملك مصر وبنا فقر إلى هذا الذهب ، وماهذا المحمول فى مقابلة ماجدنا به مقدار . . لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة إلى وفور العدد من الجند ، وقد عم البلاء بالفرنج ، فينبغى أن تقع المساعدة والمعاونة بالأمداد (٣٢٢) ولم يكن هدف نور الدين غائباً عن صلاح الدين نفسه ، فقد كان مما جاء فى رسالته مع هديته إلى نور الدين « علم المملوك «يعنى نفسه » بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يقصّ أجنحتهم ، ويفل أسلحتهم ، ويقطع موادهم ، ويخرب بلادهم (٣٢٣)» .

والسؤال الذى يرد الآن لماذا لم يتعاون صلاح الدين مع نور الدين فى محاربة الفرنج كما كان يريد نور الدين ؟ لقد كانت وجهة نظر صلاح الدين أن الخطر بمصر ماثل فى كل وقت ، وهو يخشى فى كل آن وكل مكان قيام ثورة تقتلع جذوره من مصر فهو لم يكن مطمئناً اطمئناناً كاملاً إلى وضعه الداخلى فى مصر، ومن ناحية أخرى كان لايأمن الخطر الخارجى المتمثل فى مؤامرات الفرنج عليه ، وعلى هذا الأساس كان صلاح الدين يرغب فى الاطمئنان على أنه يقف على أرض ثابتة ، قبل أن يتجه بجهد مركز ضد الفرنج أعداء مصر والشام على السواء (٣٢٤).

كما أن حصار الكرك (٣٢٥) بقصد الاستيلاء عليها - كما أراد نور الدين -

(٣٢١) نور الدين محمود ص ٣٤٠ .

(٣٢٢) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢٦ .

(٣٢٣) نفس المصدرج ١ ص ٢٢٥ .

(٣٢٤) مصر والشام والصليبيون ص ١١٥ .

(٣٢٥) الكَرَك : بفتح أوله وثانيه [illegible]

كان أمراً شاقاً طويل المدى يستدعى تفرغاً عسكرياً لهذا الحصار ويستدعى أن يكون صلاح الدين مطمئناً تمام الاطمئنان على أوضاع مصر الداخلية ، وكلا الأمرين لم يكن ميسوراً لصلاح الدين (٣٢٦).

وقد كانت الكرك من القوة بحيث لم يستطع نور الدين - الذى كانت أموره مستقرة بالشام تماماً - من فتحها ، كما أن صلاح الدين لم يفتحها إلا فى سنة ٥٨٤هـ /١١٨٨ بعد وفاة نور الدين بخمس عشرة سنة ، بعد تحرير فلسطين واسقاط بيت المقدس (٣٢٧).

وكل مايمكن أخذه على صلاح الدين هو توقيت انسحابه لدى علمه باقتراب نور الدين ، وإن كانت هناك رواية أخرى تنفى عدم وصول صلاح الدين أساساً لمساندة نور الدين فى حصار حصن الكرك والشوبك (٣٢٨)، وأنه أرسل إلى نور الدين يعتذر إليه باختلال الأحوال فى مصر « وأنه يخاف عليها من البعد عنها (٣٢٩)» .

وصور بعض المؤرخين رغبة نور الدين فى لقاء صلاح الدين بمصر على أنه بقصد أخذ مصر منه (٣٣٠)، والأغلب أن نور الدين فكر فى ذلك

= الربض .
وانظر .Ency de L'Isl, Aart al- Kerak,T 2, P. 905- 906 .
Eineyelopedia Britanica vol 13 P. 231 .

(٣٢٦) مصر والشام والصليبيون ص ١١٥ .

(٣٢٧) نفس المصدر ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٣٢٨) الشوبك : حصن شديد الحصانة بناه بلدوين الأول Baldwin I صاحب بيت المقدس سنة ٥٠٩ هـ جنوب البحر الميت ، فى منطقة عالية ليسهل منه مراقبة القوافل السالكة فى الطريق بين الشام ومصر ومهاجمتها ، وهو قريب من حصن الكرك الفرنجى .
Stevenson, The crusaders in the East, P, 65 .
وانظر معجم البلدان ج ٣ ص ٣٧١ وتقويم البلدان ص ٢٤٦ .

(٣٢٩) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٢١ والتاريخ الباهر ص ١٥٨ .

(٣٣٠) التاريخ الباهر ص ١٥٨ والتاريخ الحربى لصلاح الدين ص ٣٤ .

لصرف اهتمام صلاح الدين الشديد بأموره الداخلية ، لا لكى يعاقبه (٣٣١) .

وليس ثمة ما يمنع من أن بعض رجال صلاح الدين فهم خطأ أن انتواء نور الدين لقصد مصر كان لعزل صلاح الدين ، ومن ثمّ فهموا خطأ كذلك أن فى قدرتهم إقناع صلاح الدين بمخالفة مولاه ، أو لعلهم رموا من وراء ذلك أن تعلو مكانتهم فى ظل دولة صلاح الدين إذا ما استقل عن نور الدين ، وهم لاشك كانوا مخطئين على أى حال فى توهم نجاح هذا الشقاق بالنظر إلى مقدرة نور الدين وشرعيته وإمكانية صلاح الدين الوقوف فى وجهه ، وهذا ما بين زيفه نجم الدين أيوب لصلاح الدين حين قال له : « والله لو رأيت أنا ، وهذا خالك ، نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ، ونقبّل الأرض بين يديه ، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا ، فإذا كنا هكذا ، كيف يكون غيرنا ؟ فكل من تراه من الأمراء والعساكر . لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسر على الثبات على سرجه ، ولا وسعه إلا النزول ، وتقبيل الأرض بين يديه ، وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها ، وإن أراد عزلك فأى حاجة به إلى المجىء ، يأمرك بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته ويولى بلاده من يريد » وقال للجماعة : قوموا عنا ، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا مايريد (٣٣٢) ، ولم يكتف والد صلاح الدين بهذا الكلام الذى قاله أمام الجماعة بل أفرد ابنه بمثل هذا الكلام ثانية فقال له : « ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر ، وكانوا أسلموك إليه (٣٣٣) » .

وكان صلاح الدين نفسه يرى أن الطاعة لنور الدين واجبة ولايجيب إلى محاولة شق عصا تلك الطاعة رغم طول الالحاح - فيما يبدو - من رجاله

(٣٣١) نور الدين محمود ص ٣٤٣ .

(٣٣٢) التاريخ الباهر ص ١٥٨ ، ١٥٩ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥١٩ .

الذين كانوا يلحون عليه فى ذلك وهو يخالفهم فى الرأى حتى ورد الخبر بوفاة نور الدين ، فقد قال صلاح الدين لمؤرخه بهاء الدين بن شداد بعد وفاة نور الدين بزمان : « كان بلغنا عن نور الدين أنه قصدنا بالديار المصرية ، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نكاشف ونخالف ، ونشق عصاه ، ونلقى عسكره بمصاف نرده إذا تحقق قصده ، وكنت وحدى أخالفهم ، وأقول : لايجوز أن يقال شىء من ذلك ، ولم يزل النزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته (٣٣٤) » .

٦ - ويتصل بهذا الأمر أمر آخر ، وهو أن صلاح الدين أمر أخاه توران شاه بفتح اليمن لتكون ملجأ له إذا اتجه نور الدين إلى مصر وعزله (٣٣٥) ، ويكذّب هذا أن مافكّر فيه صلاح الدين من فتح تم بناءً على إذن من نور الدين نفسه (٣٣٦) ، والحق أن اليمن كانت تدين بالولاء للفاطميين سياسياً ومذهبياً حتى فى أحرج أوقات الضعف الفاطمى فى مصر ، وهى بذلك تمثل خطراً على صلاح الدين فى مصر حيث لايستبعد أن تشارك فى إعادة سلطان الفاطميين إلى مصر ، ولهذا كان فتحها ضرورة مذهبية لتأمين الاستقرار السنى بمصر حيث بالاستيلاء عليها يتم استئصال جذور المذهب الشيعى من اليمن أكبر مساعد للفاطميين (٣٣٧) .

ومن كل ماتقدم وغيره نتبين أن العلاقة بين الرجلين كانت علاقة ينتظمها الحب والاحترام ، ومعرفة كل منهما لقدر صاحبه ، وإن شابها بعض الخلاف فى وجهات النظر دون الغايات فى أكثر من مسألة ، وأن بلاط كلا الرجلين لم يخل من رجال يحاولون بث الشكوك بينهما ، ولكن الرجلين كانا على مستوى الأحداث .

(٣٣٤) النوادر السلطانية ص ٧٨ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨١ .

(٣٣٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٤ .

(٣٣٦) مفرج الكروب ج ١ ص ٢٣٨ والكامل ج ٩ ص ١٢٢ .

« الفصل الثالث »
الدور الأيوبى حتى وفاة الصالح إسماعيل
٥٦٧هـ - ٥٧٧هـ (١١٧٢ - ١١٨٢م)

توفى الملك العادل نور الدين محمود بدمشق يوم الأربعاء ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ ١١٧٤ م ، بعد أن قام بدور كبير فى الجهاد ، وكان ملكه قد اتسع اتساعاً عظيماً ، فقد أطاعه أصحاب دياربكر ، وملك الشام والديار المصرية ، وأمر بمسير جند من مصر إلى اليمن ، فساروا ـ ومقدمهم شمس الدولة ابن أيوب أخو صلاح الدين ـ فملكها ، وخطب له بالحرمين مكة والمدينة [٣٣٨]، وهو فى نظر أبى المحاسن صاحب الفضل الأول فى فتح مصر ، ولولاه ماكان صلاح الدين شيئاً مذكوراً فيقول : « ومصر أيضاً من جملة فتوحاته ، وأيضاً ما فتحه صلاح الدين من البلاد والحصون هو شريكه فى الأجر والثواب ، ولولاه إيش كان صلاح الدين ! حتى ملك مصر من أيدى تلك الرافضة من بنى عبيد خلفاء مصر وقوة ثوابهم [٣٣٩]» .

وكان على صلاح الدين من بعده أن يسير على دربه وقد سار ، وحقق الكثير « ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للاسلام من الفتوح الجليلة على يدى صلاح الدين من بعده لقرّت عينه ، فإنه بنى على ماأسسه نور الدين من جهاد المشركين ، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها [٣٤٠]» .

---

(٣٣٨) التاريخ الباهر ص ١٦٢ ، وكان نور الدين كما قيل :

جمع الشجاعة والخشوع لربه ۝ ماأحسن المحراب فى المحراب

المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٥

(٣٣٩) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٧١ .

على أن طريق صلاح الدين بعد وفاة نور الدين لم يكن طريقاً مفروشاً بالورود ، فقد وقع على كاهله أن يواجه ثلاثة قوى خطيرة هى قوى الزنكين ، والباطنية والصليبيين ، تلك القوى التى تحالفت ضده لتحول بينه وبين تحقيق مايريده من الوحدة الاسلامية بين العراق والشام ومصر ، مما يهدد الحلفاء الثلاثة جميعاً (٣٤١) .

صلاح الدين والزنكيون :ـ

وبادىء بدء نقرر أن سياسة صلاح الدين تجاه الزنكين كانت تقوم على مزيج من السياسة والحرب ليكسب الجولة ضد ورثة نور الدين (٣٤٢) .

وقد خطب صلاح الدين للملك الصالح اسماعيل الصبى بمصر ، وضرب السكة باسمه فيها (٣٤٣) : وكان الصالح اسماعيل تحت وصاية شمس الدين بن المقدم (٣٤٤) ، وقد ارسل صلاح الدين إلى الصالح اسماعيل متظاهراً بالود والاخلاص له ـ رسائل التعزية التى تبينّ فداحة الخطب به ويرى أن تستمر سياسة نور الدين التى اتخذها حيال الفرنج فقال : « الأهم شغل الكفار عن هذه الديار ، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البدار (٣٤٥) » ، كما حذّر فى رسالة أخرى من وقوع الخلاف نتيجة لوفاة نور الدين فقال : « فالله الله أن تختلف القلوب

---

(٣٤١) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ ، ٧٥١ .

(٣٤٢) Saunders, A history of Medieval Islam, P. 165 .

(٣٤٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٥ و Brakelman, history of Islamic Peopl, p. 226 .

وانظر Eny. de L'Isl, Cart al- Malik al- Sâlih, T4 PP, 114- 115 .

(٣٤٤) وهو محمد بن عبد الملك بن المقدم ، كان من أكابر أمراء السلطانين نور الدين ثم صلاح الدين ، حضر جميع فتوحات صلاح الدين وكان وصيا على الملك الصالح اسماعيل بعد موت والده نور الدين ، مات يوم النحر بعرفة سنة ٥٨٣ هـ بسبب ضربة سهم من أحد مماليك طاشتكين أحد أمراء الخليفة العباسى على أثر خلاف قام بينه وبين طاشتكين .

والأيدى ، فتبلغ الأعداء مرادها ، وتعدم الآراء رشادها » ، ثم يقول : « فكونوا يداً واحدة ، وأعضاءاً متساعدة ، وقلوباً يجمعها ود ، وسيوفها يضمها غمد ، ولاتختلفوا فتنكلوا ، ولا تنازعوا فتفشلوا (٣٤٦) » ، ثم يبين موقفه وموقعه فى خطاب ثالث فيقول : « الخادم مستمر على بدأته من الاستشراف لأوامرها ، والتعرض لمراسمها ، والرفع لكلمتها ، والإيالة لعسكرها ، والتحقق بخدمتها فى بواطن الأحوال وظواهرها ، والترقب لأن يؤمر فيمتثل ، ويكلف فيحتمل ، وأن يرمى به فى نحر عدوه فيتسدّد بجهده (٣٤٧) .

وكأن صلاح الدين كان ينظر بعين الغيب إلى ماسوف يحدث بعد وفاة نور الدين وولاية الصبى الصغير الصالح إسماعيل :

لقد اجتمع ورثة نور الدين على تشتيت دولته ، وعلى تفتيت وحدتها بعد أن أمضى حياته مجاهداً فى سبيل بنائها ، فقد ورثه ابنه الصالح إسماعيل الصبى الصغير فى ملك حلب ودمشق ، تحت وصاية الأمير شمس الدين بن محمد عبد الملك المعروف بابن المقدم ، الذى كان رجلاً قليل الكفاية والعقل (٣٤٨) ، وقد ضرب السكة وأقام الخطبة لنفسه ، فى حين زعم سيف الدين على بن الداية نائب نور الدين محمود فى حلب أنه أكبر أمراء نور الدين وأولى بالوصاية على ابنه ، وأرسل يطلب الغلام من دمشق .

وقد ظهر صوت يتّسم بالحكمة فى خلال ذلك متمثلاً فى كمال الدين محمد الشهرزورى الذى نصح بمشاورة صلاح الدين فيما يجرى باعتباره الأقوى سلطاناً استفادة برأيه وتوقياً لخطورته فقال له : « لقد علمتم أن صلاح الدين من مماليك نور الدين ونوابه ، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ، ولا نخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعة الملك الصالح ، ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا لأنه له مثل مصر ، وربما أخرجنا وتولى

---

(٣٤٦) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٥٨٧ .

(٣٤٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٨ .

(٣٤٨) نور الدين محمود ص ٣٥٨

هو خدمة الملك الصالح (٣٤٩)»، ولكن قوله لم يجد قبولاً حيث خشى الأمراء أن يدخل صلاح الدين فيخرجهم .

وهكذا لم يتفق الأمراء على موقف موحد من التعاون فيما بينهم ، كما لم يتفقوا حتى على موقف موحد يعاون فيه بعضهم بعضاً ضد عدوهم المشترك صلاح الدين (٣٥٠) .

أما سيف الدين غازى الثانى ابن أخى نور الدين صاحب الموصل الذى سرته وفاة نور الدين ، فاظهر الفسق ، وأمر بإعادة المكوس ، وتظاهر بالمنكرات (٣٥١)»، وأسرع إلى الاستيلاء على نصيبين (٣٥٢)، وبلد الخابور وحران (٣٥٣)، وكذلك الرها والرقة وسروج (٣٥٤)، « واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر (٣٥٥)»

كذلك ظهرت على المسرح السياسى آنذاك شخصية أخرى هى شخصية سعد الدين كمشتكين دزدار قلعة الموصل الذى ترك جيش سيف الدين غازى ووصل إلى حلب ، واستقر الأمر بينه وبين ابن الداية ، على

(٣٤٩) التاريخ الباهر ص ١٦٢ ومفرج الكروب ج ٢ ص ٣ .

(٣٥٠) مصر والشام والصليبيون ص ١٢١ .

(٣٥١) مفرج الكروب ج ٢ ص ٩ .

(٣٥٢) مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام ، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام . معجم البلدان ج ٥ ص ٢٨٨ .

(٣٥٣) حران : مدينة قديمة ، قصبة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان
وتقويم البلدان ص ٣٩٤
مراصد الاطلاع ج ١ ص ٣٨٩

(٣٥٤) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر ، بينها وبين البيرة مرحلة فى الجبال .
مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٧١٠ .
وتقويم البلدان ص ٢٧٦

(٣٥٥) التاريخ الباهر ص ١٧٥ .
وانظر Brokelman, History of Islamic people, P. 226

أن يذهب سعد الدين إلى دمشق ، لاستدعاء الملك الصالح اسماعيل . وأقنع القائمين بأمر دمشق بها فى سفر الصالح إسماعيل إلى حلب من المصالح ، وحمايتها من السقوط فى يد صاحب الموصل سيف الدين غازى الثانى ، وقد علت يد كمشتكين فى حلب بعد وصول الملك الصالح اسماعيل معه ، وتمكن من القبض على ابن الداية وإخوته ، وعلى ابن الخشاب رئيس حلب ، وقد قتل ابن الخشاب وأودع الباقون جميعاً فى جب تحت الأرض (٣٥٦) .

وأدرك ابن المقدم أن ذهاب الصالح اسماعيل إلى حلب كان مؤامرة موجهة ضده فكاتب سيف الدين غازى ليسلم إليه دمشق ، غير أن سوء الظن الذى كان يغلب على الأمراء آنذاك ، جعل غازى يخشى أن يكون ما أقدم عليه ابن المقدم مكيدة عليه ليعبر الفرات إلى دمشق فيمنع عنها ، وعندئذ يقصده ابن عمه من وراء ظهره ، فلا يمكنه الثبات فيهلك (٣٥٧). وراسل غازى الملك الصالح وأقره على مابيده ، ومكث الملك الصالح بحلب محجوراً عليه تحت يد سعد الدين كمشتكين (٣٥٨) .

وأمام هذه التطورات عدّل أمراء دمشق موقفهم من صلاح الدين ، ودعوه إلى الحضور إلى دمشق لتسلمها ، فبادر صلاح الدين إلى ذلك على الفور وسار إلى بلاد الشام (٣٥٩) .

وقد كان الفرنج من ناحية أخرى أرادوا استغلال تلك الفرصة التى أعقبت وفاة نور الدين ، وما صاحبها من اختلاف فى الكلمة ، فخرج عمورى ملك بيت المقدس لاسترداد بانياس (٣٦٠)»وصمدت المدينة الباسلة

(٣٥٦) التاريخ الباهر ص ١٧٦ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨ والنوادر السلطانية ص ٨١ .

(٣٥٧) التاريخ الباهر ص ١٧٦

(٣٥٨) نفس المصدر ص ١٧٦

(٣٥٩) نفس المصدر ص ١٧٦

(٣٦٠) Stevenson, The crusaders in The East, p. 213

للحصار مدة أسبوعين فى الوقت الذى خرج فيه ابن المقدم على رأس جيشه من الدماشقة دفاعاً عن المدينة (٣٦١)، وكان ما فعله ابن المقدم أن هدد الفرنج بصلاح الدين « وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم ، وأنه قد عزم على جهادهم (٣٦٢)»، ثم عرض عليهم ترك بانياس فى مقابل أموال يحصلون عليها ، وأن يطلق لهم أسراهم ، وتمت على هذا الأساس المصالحة بينهما (٣٦٣).

وعندما بلغت تلك الأنباء صلاح الدين أنكر عليهم ذلك التصرف ، واستصغر أمرهم ، وعلم ضعفهم ، وحوّل ذلك إلى خطابات تمتلىء بالتوبيخ واللوم إلى جماعة من الأعيان ، وكان من تلك الخطابات خطاب من إنشاء القاضى الفاضل إلى الشيخ شرف الدين ابن أبى عصرون (٣٦٤)، يبين فيه أنه قد اهتم لقصد الفرنج لبانياس وأنه خرج لتأديبهم « ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام من دفع القطيعة ، وإطلاق الأسارى » ثم قال له : « وسيدنا الشيخ أول من جرّد لسانه الذى تغمد له السيوف وتجرد ، وقام فى سبيل الله قيام من يقظ عادية من تعدّى وتمرّد (٣٦٥)» .

— دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب والصبيبة اسم لقلعتها وهى من الحصون المنيعة ، وبانياس فى لحف جبل الثلج وهو مطل عليها والثلج على رأسه كالغمامة لايعدم منه صيفا ولاشتاء .
تقويم البلدان ص ٢٤٨

(٣٦١) Michaud, histoire des croisades, vol 2 P, 248 .

(٣٦٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٨٩ .

(٣٦٣) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٥٨٩ ومفرج الكروب ج ٢ ص ٧ .

(٣٦٤) هو أبو سعد عبد الله بن أبى السرى محمد بن هبة الله بن مطهر بن على بن أبى عُصرون ابن أبى السرى التميمى الحديثى ثم الموصلى ، الفقيه الشافعى الملقب شرف الدين ، كان من أعيان الفقهاء ، وفضلاء عصره ، وممن سار وانتشر ذكره ، وتعيّن بالشام ، وتقدم عند نور الدين صاحب الشام ، وبنى له المدارس بحلب وحماه وحمص وبعلبك وغيرها ، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرها من دياربكر ، ثم عاد إلى دمشق فى سنة ٥٧٠هـ ، وتولى القضاء بها فى سنة ٥٧٣ هـ ، ثم عمى فى آخر عمره قبل موته بعشر سنين . وفيات الأعيان ج ٣ ص ٥٤ .

وهكذا بدأ صلاح الدين يعد العدة للتدخل الفعلى لوضع حد لتلك المهزلة التى أصبحت تعانى منها أملاك نور الدين فى بلاد الشام نتيجة لضعف القائمين بأمرها ، واختلاف كلمتهم ، وخطّط لذلك الأمر تخطيطاً سياسياً بارعاً ، فأرسل كتاباً - إلى الأوصياء بإشارة القاضى الفاضل وكلماته (٣٦٦)جاء فيه : « إن الملك العادل « نور الدين » لو علم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه مثل ثقته بى لسلّم إليه مصر ، التى هى أعظم ممالكه ، وولاياته ، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحد بتربية ولده ، والقيام بخدمته سواى ، وأراكم قد تفردتم بخدمة مولاى ، وابن مولاى دونى ، فسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها ، وأقابل كُلًّا منكم على سوء صنيعه ، وإهمال أمر الملك الصالح ، ومصالحه ، حتى أخذت بلاده (٣٦٧)» .

وكذلك أرسل صلاح الدين إلى الخلافة فى بغداد يصورّ لها الموقف فقال : « وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيّفون بها الأطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم ، وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعماد الذين خدموا الأطراف لا الصدور ، وجعلوا للقيام لا للقعود فى المجلس المحصور ، قد مدوا الأيدى والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ، ويجعلهم لظهره سندا ، وعلمنا أن البيت المقدس لم يتيسر إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم لقلعه ، وإلا نبتت عروقه . . . وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة

(٣٦٦) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٣ .

(٣٦٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٩٠ .

جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة » ثم يقول : « والمراد الآن هو كل مايقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسى كل ماتطيقه العهاد ، وهو تقليد جامع بمصر واليمن والمغرب والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا ، وسيوف عساكرنا (٣٦٨) » .

وهكذا ظهر صلاح الدين بمظهر المدافع عن حوزة الاسلام وعن مولاه ابن مولاه لدى الأمراء والأوصياء والعلماء والفقهاء والخلافة ، وأمام الرأى العام (٣٦٩) .

وعلى الجملة ، كان المسرح السياسى آنذاك قد تهيأ لاستقبال صلاح الدين ، ولذلك فإنه عندما استدعاه ابن المقدم وأمراء دمشق ـ كما أشرنا ـ إلى التقدم إلى دمشق وتسلمها بعد أن أدركوا حرج موقف دمشق وأنها باتت فى خطر ، وخشوا أن يقصدهم سعد الدين والملك الصالح ، وأن يعاملهم سعد الدين بما عامل به بنى الداية لاسيما وأن سيف الدين غازى الثانى لم يجبهم إلى طلبهم باستلام دمشق منهم (٣٧٠)ـ « طار صلاح الدين إليهم (٣٧١) » .

توجه صلاح الدين إلى دمشق :ـ

كان صلاح الدين قد تخلّص من متاعبه الداخلية ، وقرّر قواعد دولته الحربية فى البر والبحر ، وذلك قبل نهاية سنة ٥٦٩هـ (٣٧٢) ، وأصبح فى استطاعته بسط سلطانه على بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ليخلق دولة سورية مصرية إسلامية موحدة ، وذلك حتى يواجه المسلمون قوى الفرنج

(٣٦٨) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٢٢ ، ٦٢٣ .

(٣٦٩) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٤ و Lane- Poole, Saladin, P. 137 .

(٣٧٠) الكامل ج ٩ ص ١٣١ وانظر التاريخ الباهر ص ١٧٦ .

(٣٧١) حقائق الأخبار ج ٢ ص ١٥٢ .

صفًا واحداً متراصاً (٣٧٣) ، وقد صرّح صلاح الدين بذلك لدى خروجه إلى بلاد الشام حيث قال : إنا نؤثر للاسلام وأهله إلا ماجمع شملهم وألّف كلمتهم (٣٧٤) » .

وقد دخل صلاح الدين دمشق ، فاستقبل فيها استقبالاً حسناً ، وقضى الليلة التى وصل فيها فى دار أبيه المعروفة بالعقيقى ، وفى الصباح سلم من بدمشق من الأمراء المدينة إليه كما تسلم قلعتها (٣٧٥) ، واستقر صلاح الدين بدمشق دون أن تشق عليه عصا (٣٧٦) ؛ وقد قابل صلاح الدين أهل دمشق بنثر الدراهم والدنانير عليهم ، وأظهر صلاح الدين ولاءه للملك الصالح إسماعيل فلم يقع خطبته وقال : « إنى إنما جئت لأخدم مولاى وابن مولاى ، وأسترد له بلاده التى أخذها ابن عمه (٣٧٧) » كما أنه جاء ليحفظ « ماله من المصالح وتدبير ملكه ، فهو أحق بصيانة حقه (٣٧٨) » .

ومنذ أول يوم وطئت فيه قدما صلاح الدين دمشق كان قد حدد الهدف من وراء ذلك فى أمرين هما : استرداد أملاك الملك الصالح التى استولى عليها سيف الدين غازى الثانى أتابك الموصل فى الجزيرة ، وجهاد الفرنج لتحرير الأرض وقد بادر صلاح الدين بتنفيذ سياسته حتى يعيد الجبهة الاسلامية المتحدة إلى سابق عهدها ، بحيث تمتد من شمال العراق إلى الشام فمصر (٣٧٩) .

وكان صلاح الدين يعتمد إلى حد بعيد على الرأى العام فى تأييده ، وتأييد تحركاته ، وفى سبيل الفوز بذلك التأييد « نشر علم العدل

(٣٧٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٢ .

(٣٧٤) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨ .

(٣٧٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٦ .

(٣٧٦) النوادر السلطانية ص ٨٢ .

(٣٧٧) التاريخ الباهر ص ١٧٧ .

(٣٧٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٢

والاحسان ، وعفّى آثار الظلم والعدوان ، وأبطل ماكان الولاة استجدوه من القبائح والمنكرات ، والمؤن والضرائب والمحرمات [٣٨٠] .

على أن استيلاء صلاح الدين على دمشق قد ساء من بحلب : الملك الناصر وسعد الدين كمشتكين وغيرهما ، فأرسلوا إلى صلاح الدين قطب الدين ينال بن حسان يحمل رسالة تمتلىء بالتهديد والتخويف قالوا له فيها : « هذه السيوف التى ملكتك مصر بأيدينا ، والرماح التى حويت بها قصور المصريين على أكتافنا ، والرجال التى ردت عنك تلك العساكر هى تردك ، وعما تصدّيت له تصدك ، وأنت فقد تعدّيت طورك ، وتجاوزت حدّك ، وأنت أحد غلمان نور الدين ، وممن يجب عليه حفظه فى ولده [٣٨١] » ، وقد قابل صلاح الدين ابن حسان هذا بعد وصوله بثلاثة أيام ، وضرب صفحاً عما يحمله من تهديد ، وأجابه بقوله : « ياهذا ، اعلم أننى وصلت إلى الشام لجمع كلمة الإسلام ، وتهذيب الأمور ، وحياطة الجمهور ، وسد الثغور ، وتربية ولد نور الدين ، وكف عادية المعتدين [٣٨٢] » ، وتطاول ابن حسان عليه ، وردد وجهة نظر أمراء حلب حيث قال : « إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك ، ونحن لانطاوعك على ذلك ، ودون ماترومه خرط القتاد ، وفتّ الأكباد ، وايتام الأولاد [٣٨٣] » .

وهكذا تبدت نيات القائمين على الأمور فى حلب ، وأدرك صلاح الدين ألا مناص من خوض القتال :

وقد بدأ صلاح الدين بقصد الشام الأسفل ، وتوجه إلى حمص فأخذها فى ١١ جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ / ١٠ ديسمبر ١١٧٤م ، ولم يشتغل بقلعتها [٣٨٤] التى امتنعت عليه ، وتركها إلى حين ، ثم توجه بعد ذلك إلى

---

(٣٨٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٥ .

(٣٨١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٧ .

(٣٨٢) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٠٧ .

(٣٨٣) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٠٧ .

مدينة حماه فملكها فى جمادى الآخرة [٣٨٥] ، ومنها أرسل صاحبها جرديك رسولاً بينه وبين من بحلب ، فقبض عليه أصحابها ووضعوه فى الجب مع بنى الداية [٣٨٦] .

توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى حلب ، وحصرها فى ٣ جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ولكنه لم يتمكن من فتحها ، فرحل عنها إلى حماه ، ثم إلى حمص التى كان الفرنج حاصروها بناء على استعانة أصحاب حلب بهم ، فرحلوا عنها ، وتمكن صلاح الدين من احتلال قلعة حمص التى كانت قد استعصت عليه وذلك فى ٢١ شعبان ، ثم استولى على بعلبك بعد تأمين واليها وأهله ، وبذلك « صار أكثر الشام بيده [٣٨٧] » .

وقد استشعر الزنكيون خطر صلاح الدين عليهم ، وكان لابد أن يتحدوا فى مواجهة ذلك الخطر ، فراسلوا سيف الدين غازى الثانى يستنجدونه على صلاح الدين ، وأراد سيف الدين غازى أن يجمع لذلك جنوده ، وجنود أخيه عماد الدين زنكى الثانى صاحب سنجار ، ولكن عماد الدين رفض التعاون مع أخيه ، حيث كان صلاح الدين أطمعه فى الملك لأنه هو الأخ الأكبر [٣٨٨] . فأرسل سيف الدين غازى جيشاً لمؤازرة الحلبيين ، فى حين سار فى جيش آخر لحرب أخيه ، وتمكن صلاح الدين من هزيمة الجيش الحلبى والجيش الموصلى الذى جاء لنجدته . وجرت مفاوضات بين صلاح الدين وسيف الدين غازى ولكنها وصلت إلى طريق مسدود ، وأرسل سيف الدين غازى جيشاً قوياً مع أخيه عز الدين زلفندار لمؤازرة الجيش الحلبى فى حربه مع صلاح الدين وزحف جيش الحلفاء على حماه ، ورأى صلاح الدين أن يقنع فى هذه المرحلة بامتلاك دمشق ، منتمياً

---

(٣٨٥) الكامل ج ٩ ص ١٣٢

(٣٨٦) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٨ .

فيها إلى الملك الصالح إسماعيل [٣٨٩]، فراسل سيف الدين غازى يعرض له التنازل عن حمص وحماه ، ورأى سيف الدين غازى فى عرض صلاح الدين فرصة لفرض شروطه وقال له : « لابد من تسليم جميع ماأخذ من بلاد الشام والعود إلى مصر [٣٩٠]» ، « وكان القضاء يجرى إلى أمور وهم لايشعرون [٣٩١]» ، ودارت رحى معركة طاحنة عند قرون حماه [٣٩٢] فى ١٩ رمضان سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، ولم يستطع جيش الحلفاء الوقوف فى وجه صلاح الدين وانهزم لايلوى أخ « على أخيه » [٣٩٣] ، وكان من أسباب الهزيمة جهل عز الدين أخى سيف الدين بفنون القتال [٣٩٤] ، وكسب صلاح الدين فى هذه المعركة غنائم كثيرة فإذا أضفنا إلى ذلك فى هذه المرحلة كسب صلاح الدين للرأى العام الشامى الذى بدأ يرى فيه رجلا يعمل لصالح المسملين ، وجمع كلمتهم ، وذلك حين أرسل مبعوثه جرديك إلى الحلبيين فاعتقلوه ، وألقوه فى الجب ، وكذلك حين عرض التنازل لهم عما وراء دمشق ، وكان الرأى العام يرقب تلك التطورات بيقظة تامة ، مؤيدا صلاح الدين فى كل خطواته [٣٩٥] .

هذا ، وقد تبع صلاح الدين المنهزمين الى أبواب حلب ، وحاصرهم بها ، وبدأ يعيد حساباته ، ووجد أن الموقف فى صالحه : أمام الرأى العام

(٣٨٩) مفرج الكروب ج ٢ ص ٩٢ والكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩٠) النوادر السلطانية ص ٨٣ والكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩١) النوادر السلطانية ص ٨٣ .

(٣٩٢) قرون حماه : مدينة كبيرة بسوريا على جانب نهر العاصى بها قلعة حصينة .
النوادر السلطانية ص ٨٣ حاشية ١

(٣٩٣) النوادر السلطانية ص ٨٣ والكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩٤) ويروى ابنالأثير أنه لم يثبت غير عز الدين هذا بعد انهزام أصحابه ، فقال صلاح الدين : « إما أن هذا أشجع الناس ، أو أنه لايعرف الحرب ، وأمر أصحابه بالحملة عليه فحملوا ، فأزالوه عن موقفه ، وتمت الهزيمة » .

الكامل ج ٩ ص ١٣٣

الشامى ، وأمام الخلافة نفسها ، التى كان يطالعها بخطواته أولا بأول ، فأقدم على خطوة حاسمة حيث قطع خطبة الملك الصالح ، وأزال اسمه عن السكة فى بلاده [٣٩٦] ، واسقط فى أيدى الحلبيين المحاصرين ، فراسلوه فى طلب الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم منها ، فوافق صلاح الدين على ذلك الصلح ، الذى تضمن كذلك أن تساعد حلب صلاح الدين فى وقت الخطر ضد الفرنجة العدو المشترك وألا يغير صلاح الدين الدعاء للملك الصالح على جميع منابر البلاد التى تحت يده ، وأن تكون السكة باسمه [٣٩٧] .

ورحل صلاح الدين عن حلب فى العشر الأول من شوال سنة ٥٧٠ هـ ووصل إلى حماه ، وفيها وصلت إليه خلع الخليفة العباسى المستضىء بالله مع رسله « ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السود ، وتوقيع من الديوان بالسلطنة ببلاد مصر والشام » [٣٩٨] ، وذلك فى ذى القعدة سنة ٥٧٥ هـ [٣٩٩] .

وهكذا يكشف انتصار صلاح الدين فى قرون حماه النقاب عن حقيقة

(٣٩٦) الكامل ج ٩ ص ١٣٣ .

(٣٩٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٣٩ .

(٣٩٨) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٣٩ وتاريخ الحروب الصليبية / رنسيمان ج ٣ ص ٦٥٨ وانظر .

Grousset, Histoire des croisades. T. 2, PP. 760- 761،

Lone- Poole, Saladin, P. 181 .

وفى هذه الخلع يقول ابن سعدان الحلبى :

ويأيها الملك العزيز فضله ... لقد غدوت بالعلا مليا

كفى أمير المؤمنين شرفاً ... أنك أصبحت له وليا

طارحك الود على شحط النوى ... فكنت ذاك الصادق الوفيا

أولاك من لباسه زخرفة ... لم يولها قبلك آدميا

ناسبت الروض سنا وبهجة ... حتى حكته رونقاً وزيا

الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٤٠

موقفه (٤٠٠) . على أن الموصل التى انهزم جيشها مع المنهزمين والتى كانت بعيدة عن سهام صلاح الدين أبت الاعتراف بالصلح الذى وقعه الحلبيون الذين كانوا فى أحرج مواقفهم ، وجمع سيف الدين غازى الثانى جيشاً ضخماً من بلاد الجزيرة وديار بكر ، وانضم إليهم كمشتكين بقواته الحلبية ، ناقضا بذلك المعاهدة التى لم يكن مدادها قد جف بعد (٤٠١) : وقد تكون لهم جيش من أكثر من عشرين ألف فارس ، وقد استغرقت تلك التعبئة منهم وقتاً طويلا ، أتاح لصلاح الدين الفرصة حتى وصلته نجدة مصرية من أخيه العادل وقد وصف ابن شداد حالة الاستعداد على الجانبين فقال : « والسلطان قد أنفذ فى طلب العساكر من مصر ، وهو يترقب وصولها ، وهؤلاء يتأخرون فى أمورهم وتدابيرهم ، وهم لايشعرون أن فى التأخير تدبيراً حتى وصل عسكر مصر » (٤٠٢) .

ثم كان اللقاء بين صلاح الدين ، وأعدائه المتحالفين فى ١٠ شوال سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م ، ودارت رحى معركة طاحنة بين الفريقين كانت أقوى من اللقاء الأول ، وتمت الهزيمة على جيش المتحالفين (٤٠٣) ، وأصيب بخسائر فادحة ، وقد فرّ سيف الدين غازى الثانى من ميدان المعركة ، مخلّفا وراءه حتى متعلقاته الخاصة التى اتخذها صلاح الدين وسيلة للتشنيع عليه ، فأرى الناس بيت شرابه ، وسرادقه الخاص ، وماكان به من آلات الصيد والطرب والخمور ، والجوارى والمحظيات، والمغنين والمغنيات ، وقد أرسل صلاح الدين إلى سيف الدين غازى بأقفاص طيوره المغردة ، وأرسل إليه يقول : « عد إلى اللعب بهذه

(٤٠٠) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٦ .

(٤٠١) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٧ .

(٤٠٢) النوادر السلطانية ص ٨٥ ورواية صاحب الروضتين : « وهم لايشعرون أن فى التأخير تدميراً » .

الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٥٠

الطيور ، فإنها ألذمن مقاساة الحرب » (٤٠٤) .

ومرة أخرى لم يقتصر النصر على ميدان الحرب بل تعداه إلى الرأى العام الشامى الذى هالهُ مارأى من انحراف القادة المناوئين لصلاح الدين ، وماهم غارقون فيه من الضلالات ، وتزايد التفاف الناس حوله ، وأيده العلماء فى جهوده (٤٠٥) .

ثم إن صلاح الدين سار إلى بزاعة (٤٠٦) ، فاستولى عليها ، كما استولى على مدينة منبج (٤٠٧) وقلعتها بعد طول مقاومة من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان وقد أسر صلاح الدين ينال بن حسان ثم أطلقه (٤٠٨) ، ثم استولى على قلعة عزاز (٤٠٩) فى ٤ ذى القعدة ، وكانت من أمنع القلاع وأحصنها (٤١٠) ، وكانت عزاز تمثل خطورة على صلاح الدين حيث كانت قاعدة لتجمع الجيوش المتحالفة من عسكر حلب وفرنج أنطاكية (٤١١)

(٤٠٤) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٥١ ، ٦٥٢ .

(٤٠٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٨ .

(٤٠٦) بلدة من أعمال حلب فى وادى بطنان بين منبج وحلب ، بينها وبين كل واحدة منها مرحلة .

معجم البلدان ص ٤٠٩

وهى طيبة الثرى واسعة الذرى ، تصغر عن المدن وتكبر عن القرى ، وفى أعلاها قلعة كبيرة حصينة .

رحلة ابن جبير / تحقيق نصار ص ٢٣٧

وانظر الدر المنتخب ص ٤٧ .

(٤٠٧) منبج إحدى بلاد الشام ، وهى فى برية ، وهى خصبة كثيرة القنى ، ويحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، ولها قلعة حصينة فى جوفها تنقطع عنها وتنحاز منها رحلة ابن جبير / تحقيق نصار ص ٢٣٧ و تقويم البلدان ص ٢٧٠ .

(٤٠٨) النوادر السلطانية ص ٨٧ والكامل ج ٩ ص ١٣٧ ، وكان ينال بن حسان هذا شديد البغض لصلاح الدين . المختصر ج ٣ ص ٥٨ .

(٤٠٩) بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب ، بينهما يوم ، وكانت قديماً تعرف بتل عزار .

الدر المنتخب ص ١٦٨ ومراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٣٧ .

(٤١٠) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٥٨ وقرة جلبى ص ٢٤١ .

(٤١١) Lane-Poole, Saladin, P. 211

وبذلك قطع الجوار بين الفرنج والحلبيين . ثم تقدم صلاح الدين إلى حلب لفتحها ، وطرد الأمراء المتآمرين منها ، وإطلاق قادة نور الدين الذين كانوا قد أودعوا المعتقلات ، وتم له حصار حلب فى منتصف ذى الحجة (٤١٢) ، وقارب صلاح الدين الاستيلاء عليها ، وأدرك الحلبيون أن المدينة على وشك السقط ، فلجأو إلى حيلة علّها تنجيهم ، ولعلهم أرادوا أن يكسبوا جولة واحدة أمام الرأى العام فأخرجوا رسولا منهم إلى صلاح الدين إبنة لنور الدين محمود صغيرة تسمى الخاتون (٤١٣) تطلب منه الكف عن محاربة حلب ، وأن يهبها قلعة عزاز « وكانوا قد علموها ذلك » ، فسلمها إليهم (٤١٤) ، ونجح صلاح الدين أمام الرأى العام مرة أخرى حينما رعى ماكان لنور الدين فى عنقه .

وتم الصلح مع الملك الصالح على أن له (أى صلاح الدين) من حماه ومافتحه إلى مصر ، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الداية (٤١٥) ، وكان الصلح عاما لهم وللمواصلة وأهل ديار بكر وكتب فى نسخة اليمين أنه : « إذا غدر منهم واحد وخالف ، ولم يف بما عليه وحالف ، كان الباقون عليه يدا واحدة وعزيمة متعاقدة ، حتى يفىء إلى الوفاء والوفاق ، ويرجع إلى مرافقة الرفاق » (٤١٦) .

ولنترك الآن هذه الجبهة التى أثبت فيها صلاح الدين كفاءته وتفوقه على الزنكيين سياسياً ودعائيا وحربيا ، حتى وقف على أبواب حلب ، لنرى ماذا كان موقف الباطنية والفرنج منه ، وموقفه منهم فى هذه المرحلة .

---

(٤١٢) المختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٥٨ .

(٤١٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ .

(٤١٤) الكامل ج ٩ ص ١٣٧ والمختصر ج ٣ ص ٥٨ .

(٤١٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ٦٦٩ .

(٤١٦) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ ورنسيمان ج ٣ ص ٦٦٠ .

صلاح الدين والباطنية (٤١٧) :-

وأول راج عن نشاطهم أن عمارة اليمنى ورفاقه ، اتصلوا بهم عقب اعلان سقوط الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وكاتبوا سناناً (٤١٨) صاحب الحشيشية (٤١٩) ليدبر كمينا لاغتيال صلاح الدين على يد بعض الفدائية (٤٢٠) سواء فى الشام أو فى مصر ووعدوه بالمنح والعطايا

---

(٤١٧) وهم من غلاة الشيعة ، وأخطر طوائفهم طائفة الحشيشية ، وفى ذلك الوقت كانوا يسيطرون على عدة قلاع حصينة ، فيها كل وسائل الراحة والرفاهية ، وقد صار بناؤها على رءوس الجبال بحيث ازدادت قوتها الدفاعية قوة على قوة ، وكان زعيمهم يسكن قصر الكهف ، وكانوا يسمونه الشيخ .

قلعة ألموت ص ١٦١ ولويس التاسع فى الشرق الأوسط ص ٢٠٩

ويقسم ابن ميسر الاسماعيلية إلى أقسام : الذين بالشام منهم يقال لهم « الحشيشية » ومن كان بألموت يقال لهم : الباطنية والملاحدة ، ومن كان بخراسان يقال لهم : « التعليمية » ، وكلهم إسماعيلية . أخبار مصر ج ٢ ص ٦٨

(٤١٨) ويصفه المقريزى أنه « صاحب قلاع الاسماعيلية ، ومقدم الطائفة الباطنية ، وإليه تنسب الطائفة السنانية » السلوك ج ١ ق ١ ص ٦٢ .

ووصفه ابن جبير الذى جاز بقلاع الحشيشية بأنه : شيطان من الانس يعرف بسنان ، خدعهم بأباطيل خيالات ، وموه عليهم باستعمالها ، وسحرهم بمحالها ، فاتخذوه إلها يعبدونه ، ويبذلون الأنفس دونه ، وحصلوا من طاعته وامتثال أمره بحيث يأمر أحدهم بالتردى من شاهقة جبل فيتردى ، ويستعجل فى مرضاته الرضى .

رحلة ابن جبير / تحقيق نصار ص ١٤٣

(٤١٩) وذلك لدأبهم على تدخين الحشيش أومضغه .

خلاصة تاريخ العرب / سيديو ص ١٣٨ ،

وانظر Kerr, The crusades, Bernard Louis, The arabs in history P. 149 .

(٤٢٠) وقد وصف الرحالة ماركبولو الذى مر بألموت نفسها فى سنة ١٢٧١ م كيف كان زعيم الاسماعيلية يعد أتباعه ليطلب منهم بعد ذلك ما شاءه حيث يخدرهم بمادة الحشيش ثم يحملهم إلى حديقة فى جماعات صغيرة ، فإذا ما أفاقوا اعتقدوا أنهم فى جنة الفردوس ، فإذا ما أفاقوا اعتقدوا فى قدرته ، وتفانوا فى خدمته وطاعته

Le Livre de Markabole PP.97- 100

الجزيلة (٤٢١)، وقد كان القتل بالنسبة للحشيشية امتدادا لتحركهم السياسى حيث يتولون اغتيال من يقع عليهم اختيارهم الغادر (٤٢٢)، وكان عداؤهم للمسلمين أكثر من عدائهم للفرنج ، على أساس أنهم يحاربون أهل السنة نيابة عنهم (٤٢٣).

ومن الثابت أن الباطنية فزعوا لسقوط الخلافة الفاطمية ، وانتصار المذهب السنى فى مصر ، وأحسوا بالخطر الذى هددهم بالشام (٤٢٤)، ولذلك أرادوا إجراء تحالف بينهم بين الفرنج بعد أن اعتقدوا أنهم أقل خطراً عليهم وعلى كيانهم من نور الدين محمود (٤٢٥). وأرسل راشد الدين سنان برسله من أجل ذلك ، ويقال إنه عرض فيه على عمورى رغبته فى التحول إلى المسيحية ، وإن كان تصديق ذلك بعيد (٤٢٦) وفى سنة ٥٧٠هـ /١١٧٥م تآمر أصحاب حلب مع الباطنية على صلاح الدين (٤٢٧) بعد أن استولى صلاح الدين على حمص وحماه ؛ ووقف على مشارف مدينة حلب ، فراسلوا سناناً زعيم الحشيشية ، وعينوا للباطنية

(٤٢١) The Legacy of persia, P, 85 .

(٤٢٢) الدولة البورية ص ١٠٠ ، ١٠١ وانظر .
Bernard Louis, The arabs in history P. 149 .
Michaud, histoire des croisades P 310 .

(٤٢٣) Michaud, histoire des croisades, P. 329 .

(٤٢٤) تاريخ الحروب الصليبية / رنسيمان ج ٣ ص ٦٤١ وتراجم اسلامية شرقية وأندلسية ص ٥٩ .

(٤٢٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٣٢ .

(٤٢٦) رنسيمان ج ٣ ص ٦٤١ والحركة الصليبية ج ٢ ص ٤٣٧ .

(٤٢٧) وقد يبدو غريباً أن الوحيد الذى أبقى عليه الحشيشية هو ريتشارد قلب الأسد ، وذلك لأنهم رغبوا عن تذليل العقبة أمام منافسهم صلاح الدين .
Bernard Lois The arabs in history, P. 149 .
بل يقال انها قتلت كونراد دى مونتفرات بتحريض ريتشارد قلب الأسد فى سنة ٥٨٨ .

ضياعاً ، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً (٤٢٨). فأرسل سنان جماعة من الفداوية المشهورين بفتكهم ، وشاء حظهم العاثر أن يوجد فى عسكر صلاح الدين الأمير ناصح الدين خمارتكين صاحب قلعة بوقبيس (٤٢٩)الذى تعرف عليه « لأنه جارهم فى البلاد كثير الاجتماع بهم والقتال لهم (٤٣٠)»، فتعرض لهم فقتلوه ،وأثخنوا بالجراح من حاول الدفاع عنه ، ثم جرى أحدهم إلى حيث صلاح الدين مزمعاً قتله ، شاهراً سكينه ، ولكن أحد رجال صلاح الدين ، وهو طغريل أمير جاندار احتفظ بثباته ، ورباطة جأشه ، والرجل يتقدم إلى صلاح الدين ، فأطاح بسيفه رقبته ، وهكذا أنقذ صلاح الدين من خطر ذلك الباطنى ، أما بقية زملائه من الباطنية فقد نشروا الذعر فى عسكر صلاح الدين ، وقتلوا بعضاً منهم ، حتى تم قتلهم فى النهاية (٤٣١).

ولم يقف نشاط الباطنية ضد صلاح الدين عند محاولة قتله على حلب سنة ٥٧٠هـ فتكررت المحاولة فى سنة ٥٧١هـ /١١٧٦م فى الحادى عشر من ذى القعدة ، وكان ذلك بناءً على تآمر أصحاب حلب معهم مرة ثانية حيث كتبوا إلى سنان يرغبونه بالأموال ، ويبذلون له الوعود حتى يرسل من يفتك بصلاح الدين (٤٣٢) أثناء حصاره لقلعة عزاز ، وقد استجاب سنان لهذا الطلب ، وسلك هذه المرة مسلكا أكثر حيطة مما سلكه فى محاولته الأولى (٤٣٣) فأرسل بعض الفداوية فى زى الجنود المصرية ، وهكذا تيسر

(٤٢٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦١٣ وانظر
Brokelman, history of Islamic Peopel, P. 226 .

(٤٢٩) حصن يقابل قلعة شيزر .

(٤٣٠) الكامل ج ٩ ص ١٣٢ .

(٤٣١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ ورنسيمان ج ٣ ص ٣٥٧ والتاريخ الحربى لصلاح الدين ص ٦١ - ٦٣ .
وتراجم اسلامية ص ٥٩ .

(٤٣٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٥٩ .

لهم الاندساس فى صفوف المقاتلين ، وإمعاناً فى تحايلهم حتى لايكشف أمرهم ، حاربوا مع جند صلاح الدين وأحسنوا البلاء فى ضرب أعدائه ، وصاروا يترقبون الفرصة للفتك به [٤٣٤] . ولاحت لهم تلك الفرصة عندما توجه صلاح الدين إلى خيمة الأمير جاولى الأسدى « لمشاهدة الآلات ، وترتيب المهمات ، وحض الرجال ، والحث على القتال [٤٣٥] وبينما صلاح الدين فى وسط رجالـه وجنوده ، قفز أحدهم عليه ، وضربه فى رأسه بسكينه ، ولكن السكين لم تؤثر فى رأسه بفضل الزرد الذى كان صلاح الدين يحيط به قلنسوته - حيث كان صلاح الدين يفعل ذلك خوفاً من الباطنية بعد نوبة حلب [٤٣٦] ، فقد منعته صفائح الحديد المدفونة فى لمته من تمكينه ، ومع ذلك فإن السكين خدشت خده ، وتمكن صلاح الدين منه وجذبه إليه وبرك فوقه حتى أتاه سيف الدين ياركوج فقط رأسى الحشيشى ، وكانت المؤامرة هذه المرة متكاملة بحيث إذا فشل حشيشى تلاه آخر ، ولذلك فإن حشيشياً آخر توجه نحو صلاح الدين فاعترضه الأمير داود بن منكلان من التقدم نحو صلاح الدين ، وتمكن الحشيشى من إصابته إصابة فى جنبه مات منها بعد أيام ، وعندما فشل ذلك الثانى تقدم ثالث فقبض عليه الأمير على بن أبى الفوارس ، وشل حركته من خلف ، ونادى على من تولى قتله وقال : « اقتلوه ، واقتلونى معه » فجاء ناصر الدين محمد بن شيركوه ، فطعن بطن الباطنى بسيفه « ومازال يخضخضه فيه حتى سقط ميتا » ، ونجا ابن أبى الفوارس [٤٣٧] ، أما رابعهم فقد يئس بعد محاولة من سبقوه ، وفضّل الفرار ، وخرج ناشراً سكينه فى وجه كل من يقترب منه حتى تمكن منه بعض أصحاب الأمير شهاب الدين محمود خال صلاح الدين وقطعوه بسيوفهم [٤٣٨] .

---

(٤٣٤) الروضتين ج ١ ق ٢ ٦٦٠ وتراجم اسلامية ص ٥٩ .

(٤٣٥) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٥٨ .

(٤٣٦) قلعة ألموت ص ١٦٥ .

(٤٣٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠ .

هكذا نجا صلاح الدين بأعجوبة من تلك المؤامرة الأربعية [٤٣٩] ، وهو لايكاد يصدق ، وكان لهذا الحادث الثانى من الباطنية ضد صلاح الدين أثره عليه ، وعلى جنده ، فبدأ السلطان يحتاط لنفسه ، ويحصن خيمته ، ونصب له فى وسط سرادقـه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام ، ولايدخل عليه إلا من يعرفه [٤٤٠] ، بل يبدو أن ثمة بلبلة سرت فى صفوف الجند بشأن حياته ، ممادفعه إلى أن يركب ليشاهدوه ، فسكن العسكر ، وعاد إلى خيمته [٤٤١] ، وانهار بذلك مشروع سنان وحلفائه مرة أخرى [٤٤٢] .

وتعدت الاشاعات حدود الشام - إلى مصر مما دفع صلاح الدين إلى الكتابة إلى أخيه العادل نائبه فى مصر يطمئنه على سلامته ، ويأمره بمعاملة مروجى تلك الاشاعات بالحزم والشدة ، حتى لا تتاح الفرصة للاسماعيلية فى مصر للقيام بثورة [٤٤٣] ، وجاء فى كتابه إلى العادل : « السلامة شاملة ، والراحة بحمد الله للجسم الشريف الناصرى حاصلة ، ولم ينله من الحشيشى الملعون - إلا خدش ، قطرت منه قطرات دم خفيفة ، انقطعت لوقتها ، واندملت لساعتها ، والركوب على رسمه ، والحصار لعزاز على حكمه ، وليس فى الأمر بحمد الله مايضيق صدراً ، ولا ما يشغل سراً [٤٤٤] » .

وكان الاعتداء على صلاح الدين نذيراً له بما يمكن أن يحيق به وبدولته من غدر الباطنية ومؤامراتهم [٤٤٥] ، فعوّل على مهاجمة قلاعهم وسحق

---

(٤٣٩) التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين ص ٧٥ .

(٤٤٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠ .

(٤٤١) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠

(٤٤٢) تراجم اسلامية ص ٦٠ .

(٤٤٣) التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين ص ٧٦ .

(٤٤٤) نفس المصدر ص ٧٦ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٠

(٤٤٥) تراجم اسلامية ص ٦٠ .

نفوذهم ، فسار إليهم فى العام التالى ٥٧٢هـ ، وحاصر مصياف أمنع قلاعهم والتى فيها مركز زعامتهم ، ونصب على الحصن مجانيقه ، وتمكن من قتل عدد كبير منهم ، وأسر عدداً آخر ، كما ساق أبقارهم ، وخرّب ديارهم مما ألجأهم إلى تشفيع خال صلاح الدين شهاب الدين محمود ابن تكش صاحب حماه فيهم لديه ، بحكم الجيرة بينهم وبين شهاب الدين فشفع فيهم ، وقبل صلاح الدين شفاعته بعد أن قام بتأديبهم ، وكان السلطان قد رأى أن الفرنج قد يستغلون ابتعاده عن الشام الأعلى فيهاجموه أو يظفروا منه بطائل (٤٤٦) .

وقيل إن شفاعة خال صلاح الدين فى الباطنية كانت نتيجة تهديد من سنان الذى أرسل إليه « إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم ، وسأل الصفح عنهم (٤٤٧) » .

كما يروى رنسيمان أن سناناً لم يكن موجوداً لدى مهاجمه صلاح الدين لحصن مصياف ولكنه عجل بالعودة ، ويذكر أنه كان بوسع عساكر رجال صلاح الدين أسره لولا أن قوة خفية تنطوى على شىء من السحر منعتهم من ذلك ، وأن الأحلام المزعجة كانت تنتاب صلاح الدين كما أنه عثر فى فراشه عندها هب فجأة على كعك ساخن ، من نوع لايخبزه إلا الحشيشية ، كما وجد خنجراً مسموماً ، وقصاصة ورق بها أشعار تنطوى على التهديد والوعيد ، وأن صلاح الدين اعتقد أن سناناً نفسه هو الذى كان بخيمته ، وأن صلاح الدين انهارت أعصابه ، وأرسل إلى سنان يطلب منه أن يغفر له ذنوبه مع الوعد بألا يتعرض للحشيشية بأذى مقابل بذل الأمان له ، فعفا عنه شيخ الجبل (٤٤٨) .

← ومثل ذلك لايمكن تصديقه ، ولايتفق مع شخصية صلاح الدين ،

(٤٤٦) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٠ و Brokelman, history of Islamic Peaple P. 227

(٤٤٧) الكامل ج ٩ ص ١٣٩

ولو تيسرت مثل تلك الفرصة لشيخ الجبل أو أحد أتباعه ماتردد لحظة فى الفتك بصلاح الدين بدلاً من أن يخلف له كعكاً وأشعاراً تنطوى على التهديد .

والحق أن صلاح الدين اكتفى بما حققه فى قلاع الاسماعيلية ، ورأى أن القضاء التام على مثل هؤلاء القوم قد يتطلب وقتاً أطول هو بلاشك فى صالح الفرنج الذين سيستغلون انشغال صلاح الدين بقتال الحشيشية وبعده عن الشام الأعلى ، فيصولون فيه ويجولون ، وقد كانت الأخبار وصلته فعلاً أثناء حصار صلاح الدين لحصن مصياف بحدوث ذلك فعلاً حيث أغار الفرنج على جبهة الدفاع الواقعة بين دمشق وبعلبك وتصدى لهم الأمير محمد بن المقدم والى بعلبك وأسر منهم مائتى أسير أحضرهم إلى صلاح الدين ، وهو على حصار مصياف (٤٤٩) .

وقد كان للسلطان الظاهر بيبرس فيما بعد الفضل فى القضاء على نفوذ تلك الطائفة حيث سيرَّ إليهم حملة مصرية فى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م حاصرت قلاعهم ، واقتحمت قلعة مصياف أمنع حصونهم ومقر زعامتهم ، وخربت قلاعهم ، ومزقت قواهم كل ممزق ، وبذلك انهار نفوذهم فى الشام ، كما انهار فى فارس قبل ذلك بقليل .

واستحالت هذه الطائفة الإرهابية الخطيرة بعد ذلك إلى شراذم لاأهمية لها سواء من الوجهة السياسية أو المذهبية ، وانتهى بذلك تاريخها الحافل بالجرائم والمؤمرات (٤٥٠) ، وقد تخلى الحشيشيون فى عهد بيبرس عن قلاعهم ليقطعهم بيبرس بعض الأراضى المصرية ليستوطنوها ، ثم إنه تيسر له بعد ذلك استخدامهم فى قضاء أغراضه (٤٥١)

(٤٤٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ والكامل ج ٩ ص ١٤٠ .
وانظر التاريخ الحربى فى عهد صلاح الدين ص ٨٣

(٤٥٠) تراجم إسلامية ص ٦٠ وقلعة ألموت ص ١٦٦ وانظر تفصيلات أكثر فى : الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عهده / د. سرور ص ٩٨ ، ٩٩ .

صلاح الدين والفرنج :-

كانت مصر قد تعرضت عقب وفاة نور الدين مباشرة ، وقبيل تحرك صلاح الدين إلى الشام وذلك فى سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م - لهجوم فرنجى شنه وليم الثانى صاحب صقلية على الاسكندرية ، ولكن هذا الهجوم باء بالفشل ، وكان من أسباب فشله صمود أهل المدينة .

وفى بلاد الشام حاول عمورى ملك بيت المقدس استغلال فرصة الانقسام التى حدثت فى المملكة النورية بعد وفاة نور الدين محمود ، وذلك ليسترد مدينة بانياس ، ودخل معه ابن المقدم فى مفاوضات للصلح ، وهدده بالاستنجاد بصلاح الدين وسيف الدين غازى الثانى ممايعرض الفرنج للهجوم من كل ناحية ، واضطر عمورى إلى الموافقة على الصلح ، ورفع الحصار عن بانياس ، وعاد إلى مملكته ، ورأينا أن هذه الموقف لم يعجب صلاح الدين ، وأنه استاء من القائمين بالأمر بعد نور الدين ، وأرسل إلى العلماء والقضاة بل وإلى الخليفة العباسى يبين لهم ما آل إليه الأمر فى بلاد الشام بعد وفاة نور الدين ، وقد وضح من مكاتبات صلاح الدين رغبته فى توحيد الجبهة الاسلامية حتى تقوم بواجبها المرتقب فى جهاد الفرنج .

وقد أصاب الذعر الفرنج نتيجة لتطورات الموقف بالنسبة لصلاح الدين ، ولتقدمه نحو الشام ، وخطورة ذلك على وجودهم ، وقد أعلن صلاح الدين صراحة أنه ماحضر الشام إلا لحمايته من الخطر الفرنجى ، وحتى يسترد أملاك الملك الصالح فى الجزيرة من أتابك الموصل الذى استولى عليها .

وبعد استيلاء صلاح الدين على دمشق ، وتعيين أخيه سيف الاسلام طغتكين حاكما عليها باسم الملك الصالح اسماعيل ، تقدم صلاح الدين لمعاقبة كمشتكين الذى استبد بأمور حلب [٤٥٢]، واستولى صلاح الدين

(٤٥٢) النوادر السلطانية ص ٨٢ والكامل ج ٩ ص ١٣٢ .

على حمص ، وتقدم صوب حلب التى استنجدت بالفرنج ، كما استعانت بالحشيشيه ، وقد رأينا ماكان من الحشيشية ، وما تم عليهم أما الفرنج ، فإن ريموند الثالث أمير طرابلس [٤٥٣] والوصى أيضا على عرش مملكة بيت المقدس بعد وفاة عمورى [٤٥٤]، كان مدركاً تماماً لخطورة صلاح الدين ، وخطورة الوحدة المصرية الشامية عليه [٤٥٥]، وقد أتاح له الحلبيون الفرصة للتدخل كحليف لهم فى هذا الصراع [٤٥٦]، لا حبا فى حلب وحماية أصحابها ، وإنما ليسد الطريق فى وجه صلاح الدين [٤٥٧].

وقد حاول ريموند الثالث أن يلجأ أولاً إلى تهديد صلاح الدين حتى يفك الحصار عن حلب ، معتقداً أن صلاح الدين فى موقف لايسمح له بمحاربة عدوين فى وقت واحد ، وقال فى رسالة إليه : « أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة » فأجابه صلاح الدين : « لست ممن يرهب بتألب الفرنج وهاأنذا سائر إليهم [٤٥٨]، ولم يكتف صلاح الدين بإبداء

(٤٥٣) وكان ريموند هذا قد أسره نور الدين محمود على حارم سنة ٥٥٩ هـ ، وظل اثنتى عشرة سنة حيث أطلقه سعد الدين كمشتكين بعد أن افتدى بمائة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير .

Stevenson, The crusaders in the East, P. 189 .

ووصفه ابن الأثير بأنه « كان عظيماً فيهم « فى الفرنج » من أعيان شياطينهم »

الكامل ج ٩ ص ١٣٢

(٤٥٤) وقد توفى عمورى فى سنة ١١٧٤ م ، وصار ريموند الثالث وصياً على بلدوين الثالث BALDUIN III الذى كان طفلاً فى الثانية عشرة من عمره والذى عرف ببلدوين الأبرص ، وظل ريموند الثالث وصياً على العرش مدة ثلاثة أعوام .

رنسيمان ج ٢ ص ٦٥١ ، ٦٥٥

, Stevenson, The crusaders in the East, PP 213- 214 .

(٤٥٥) Grousset, histoire des croisedes. T2 P 539 .

(٤٥٦) ولعل دور حلب فى هذه المرحلة واستنجادها بالفرنج ضد المسلمين يعيد إلى الأذهان الدور الذى لعبته دمشق ، وأتابكها معين الدين أنر ضد عماد الدين زنكى ثم نور الدين محمود من التحالف مع الفرنج ضدهما .

انظر فى ذلك : الدولة البورية ودورها فى عصر الحروب الصليبية

(٤٥٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٤٤ .

استعـداده لمجـابهة الفرنج ، بل أمر بعض جيشه بالتوجه إلى أنطاكية ، والإغارة عليها كرُدّ عمل على تحديات ريموند الثالث ، وتمكن من إحراز غنائم حسنة من الفرنج ، وأراد ريموند الثالث من جهته أن يرد على صلاح الدين بمثله ، فتوجه بقواته إلى حمص التى كان صلاح الدين استولى عليها منذ أمد قريب ، وسانده الحامية المرابطة بقلعة حمص التى لم تكن سقطت بعد فى يد صلاح الدين ، وكان ريموند يهدف من وراء ذلك إلى قطع خط الرجعة على صلاح الدين إن لم يؤد هذا إلى عوده عن حلب حتى يدافع عن حمص (٤٥٩). ولم يجد صلاح الـدين بُدًّا أمـام ذلـك الخطر من رفع الحصار عن حلب مرجئاً أمرها إلى كَرةٍ أخرى ، وعاد إلى حمص لردّ عادية ريمونـد الثـالث ، ولم ينتظر ريموند الثالث لقاء صلاح الدين (٤٦٠)، وانصرف إلى حصن الأكراد (٤٦١) مكتفياً بأنه أظهر للحلبيين قدرته على فك الحصـار عنهم ، وأعرب كمشتكين عن شكره وامتنانه لحلفائه الفرنج ، فأطلق سراح رينـالـدشاتيون (٤٦٢) وجوسلين كورتيناى ، وسائر الأسرى المسيحين ، بعد أن ضعفت أجسادهم فى سجون حلب المظلمة (٤٦٣).

وقد أرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل فى مصر يخبره بتآمر الحلبيين مع الفرنج ، وما حققه من نصر على الفرنج ، وإن لم يتم بينه وبينهم لقاء مباشر فقال : وقد أعلمنا المجلس أن العدو خذله الله ، كان الحلبيون قد استنجدوا بصلبانهم ، واستطالوا على الاسلام بعدوانهم ، وأنه خرج إلى

(٤٥٩) مصر والشام والصليبيون ص ١٢٦ .

(٤٦٠) رنسيمان ج ٢ ص ٦٥٧ .

(٤٦١) طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٢٥٢ وحصن الأكراد قلعة حصينة مقابل حمص من غربيها على الجبل المتصل بجبل لبنان ولها ربض وهى على مرحلة من حمص وكذلك عن طرابلس وهى بين حمص وطرابلس . تقويم البلدان ص ٢٥٨ .

والمشترك وضعاً ص ١٣٦

(٤٦٢) تسميه المراجع العربية « أرناط » .

بلد حمص ، فوردنا حماه ، وأخذنا فى ترتيب الأطلاب (٤٦٤) لطلبه ولقاه فسار إلى حصن الأكراد متعلقاً بحبله ، مفتضحاً بحيله ، وهذا فتح تفتح له القلوب ، وظفر وإن كان قد كفى الله تعالى فيه القتال المحسوب ، فإن العدو قد سقطت حشمته ، وانحطت فيه همته ، وولى ظهراً كان صدره يصونه ، ونكّس صليباً كانت ترفعه شياطينه (٤٦٥).

وأكـد صلاح الـدين نصره بأن استـولى على قلعة حمص التى كانت استعصت عليه ، والتى ساندت الفرنج ، فاستولى عليها فى ٢١ شعبان سنة ٥٧٠هـ (٤٦٦)/١١٧٤م ، ثم أتبعهـا بالاستيلاء على بعلبـك بعـد حصـار حلب الثـانى فى سنة ٥٨١هـ /١١٧٦م الذى انتهى بالمصالحة وانثنى صلاح الدين للانتقام من الباطنية حيث حاصر حصن مصياف أكبر حصونهم فى سنة ٥٧٢هـ ، وفى تلك الأثناء هاجم الفرنج بقيادة ريموند الثالث البقاع (٤٦٧)، ولكن والى بعلبك تصدى لهم ، فقتل منهم ، وأسر أكثر من مائتى أسير ، وأحضرهم عند السلطان وهو على حصن مصياث ، فجدد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث (٤٦٨).

وكانت مهاجمة الفرنج السبب الرئيسى فى وقوع المصالحة بين صلاح الـدين وراشـد الدين بن سنان ؛ ومن ناحية أخرى جمّع الفرنج قواهم لتعويض هزيمة ريموند الثالث على بعلبك ، وذلك بقيادة بلدوين الرابع - رغم صغره ومرضه ، وصحبه همفرى سيد تبنين (٤٦٩)، وعندما علم توران

(٤٦٤) جمع طلب بضم أوله ، وهى وحدات صغيرة قد تبلغ اربعمائه . ويقول ابن إياس أن هذا اللفظ ظهر فى أيام صلاح الدين الأيوبى . التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٦ .

(٤٦٥) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦١٤ .

(٤٦٦) الكامل ج ٩ ص ١٣٢ .

(٤٦٧) البقاع : أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق ، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة . معجم البلدان ج ١ ص ٤٧٠

(٤٦٨) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٦٩ والكامل ج ٩ ص ١٤٠ وانظر طرابلس الشام ص ٢٥٤ .

شاه أخو صلاح الدين فى دمشق بذلك خرج إليهم ، والتقى بهم بين بعلبك ودمشق فى مكان يعرف بعين الجر ، ويبدو أنه لم يستطع تحقيق النصر عليهم ، بل ووقع بعض أصحابه أسرى فى أيديهم ، ومن هؤلاء الأسرى سيف الدين أبو بكر بن السلار « من أعيان الجند الدمشقين (٤٧٠) » ، على أن الفرنج ماإن علموا بقدوم صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا من جديد ، ولم يقتف صلاح الدين أثرهم إذ كان حريصاً على أن يعود إلى مصر ، وترك أخاه توران شاه على قيادة جيش قوى فى بلاد الشام .

وقد عاد صلاح الدين إلى مصر فى ربيع الأول سنة ٥٧٢هـ /١١٧٦م (٤٧١)، قال العماد : « ولما استتمت للسلطان بالشام أمور ممالكه ، وأمن على مناهج أمره ومسالكه أزمع إلى مصر الإياب (٤٧٢) » .

على أن صلاح الدين قبل عودته إلى القاهرة فى هذه السنة قام بخطوة سياسية هامة وهى زواجه من عصمة الدين خاتون ابنه معين الدين أنر وأرملة نور الدين محمود ، وكان يرمى من وراء هذا الزواج السياسى إلى أن يظهر بصورة وريث نور الدين من ناحية ، وليقوى الرابطة بينه وبين نور الدين من ناحية أخرى مما يساعده على تحقيق مشروعاته السياسية فى المستقبل (٤٧٣)، وان ادعى أنه تزوجها « حفظاً لحرمتها ، وصيانتها وعصمتها (٤٧٤) » .

---

(٤٧٠) الكامل ج ٩ ص ١٤٠ والروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٠ ورنسيمان ج ٣ ص ٦٥٢ ، وفى السلوك ج ١ ق ١ ص ٨٥ يذكر المقريزى خلافاً لذلك - أن توران شاه « أوقع بهم ، ثم سار إلى حماه وبها صلاح الدين » .

(٤٧١) النوادر السلطانية ص ٨٦ والسلوك ج ١ ق ٢ ص ٨٥ .

(٤٧٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٧٩ .

(٤٧٣) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٠ ، ومن مثل هذا الزواج السياسى مافعله من قبل عماد الدين زنكى ونور الدين محمود . انظر فى ذلك : الدولة البورية فى عصر الحروب الصليبية .

« الفصل الرابع »
تدعيم الدولة الأيوبية فى مصر والشام

قام صلاح الدين منذ عودته إلى القاهرة فى سنة ٥٧٢هـ /١١٧٧م بكثير من التحصينات القويه ، والأعمال الكبيرة للدفاع عن مصر بوجه عام والقاهرة بوجه خاص (٤٧٥) . ولم يبخل فى سبيل إنجازها بالمال فأنفق عليها أموالاً طائلة (٤٧٦) .

ففى القاهرة قام بإنشاء سلسلة من التحصينات (٤٧٧)منها إعادة السور المحيط بها ، والذى كان سببا فى انقاذ الخلافة الفاطمية من أعدائها عدة مرات (٤٧٨)، ويبدو أنه كان عبارة عن سورين : سور للقاهرة ، وسور لمصر (الفسطاط وماحولها) ، وقد تهدم أكثره فى أيام الفاطميين ، وأصبح يمكن عبوره من أى مكان (٤٧٩)، فقال صلاح الدين : « إن أفردت كل واحدة بسور احتاجت إلى جند مفرد يحيمها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سوراً واحداً من الشاطىء إلى الشاطىء (٤٨٠) » . وجعل صلاح الدين الاشراف على بناء ذلك السور إلى بهاء الدين قراقوش ، وكان طول السور ٢٩٣٠٢ ذراعاً (٤٨١)، كما أحاط السور بخندق فى بعض أجزائه ، قال المقريزى : « وهذا السور هو الذى ذكره القاضى الفاضل فى كتابه إلى

---

(٤٧٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٥٦ .

(٤٧٦) الناصر صلاح الدين ص ١٢٩ .

(٤٧٧) Ency. de L'Isl, (art Le Caire) T. 1. P. 844 .

(٤٧٨) الناصر صلاح الدين ص ١٢٩ وقرة جلبى ص ٢٤١ .

(٤٧٩) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧ .

(٤٨٠) نفس المصدر ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧

(٤٨١) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧١

صلاح الدين حيث قال : « والله يحيى المولى حتى يستدير بالبلد نطاقه ، ويمتد عليها رواقه ، فما عقيلة ماكان معصمها ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليحتلى بغير منطقة نضار [٤٨٢]» ، ثم بين فوائد هذا السور فقال فى خطابه : « والآن استقرت خواطر الناس ، وأمنوا به من يد تتخطف ، ومن يد مجرم يقدمُ ولايتوقف [٤٨٣]» قال المقريزى : « وشاهدت آثار الخندق باقية ومن ورائه سور بأبراج ، له عرض كبير مبنى بالحجارة إلا أن الخندق انطم ، وتهدّمت الأسوار التى كانت من ورائه [٤٨٤]» كذلك أوكل صلاح الدين إلى قراقوش مهة الإشراف على تحصينات أخرى فى القاهرة وغيرها .

وأوكل صلاح الدين إلى قراقوش كذلك بناء قلعة الجبل ، وكان ذلك فى وقت بناء سور القاهرة [٤٨٥]، وكان موقعها على قطعة من الجبل ، « وهى تتصل بجبل المقطم ، وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة ، فتصير القاهرة فى الجهة البحرية منها ، ومدينة مصر والقرافة الكبرى ، وبركة الحبش فى الجهة القبلية ، والنيل الأعظم فى غربيها ، وجبل المقطم من روائها فى الجهة الشرقية [٤٨٦]» ، فبنى القلعة ، وأعطاها حقها من إحكام العمل [٤٨٧] ، وحفر فيها بئراً عميقة يضمن لمن فيها الحصول على

(٤٨٢) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٨٠ .

(٤٨٣) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٨٠ .

(٤٨٤) نفس المصدر ج ١ ص ٣٨١ .

(٤٨٥) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠٣ .

(٤٨٦) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٠١ .

(٤٨٧) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٨ ويوجد على الباب المدرج فى الضلع الغربى من القلعة ماتقرؤه .

إلى يومنا هذا : « بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المحروسة القاهرة التى جمعت نفعاً وتحسيناً وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصيناً ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولى عهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الملك

الماء وكانت من عجائب الأبنية [٤٨٨] .

وتعتبر القلعة أثراً خالداً من آثار العمارة فى العصر الأيوبى ، لأنها من جهة احتفظت بمعظم عناصرها المعمارية ، ولأنها من جهة أخرى حظيت باهتمام ولاة مصر فى العصور المتعاقبة ، وإلى وقتنا هذا [٤٨٩] .

وقد استخدم قراقوش فى بناء القلعة وبناء سور القاهرة الأحجار الضخمة ، وفى سبيل ذلك هدم ماكان هناك من المساجد ، وأزال القبور ، وهدم الأهرام الصغار التى كانت بالجيزة تجاه مصر ، وكانت كبيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة ، وبنى به السور والقلعة ، واستخدم فى بنائها الأسرى من الفرنج ، وكان يبلغ عددهم خمسين ألف أسير [٤٩٠] . كما بنى قناطر الجيزة [٤٩١] التى تتكون مما يزيد عن أربعين قنطرة على هيئة أقواس ، واستخدم فى بنائها أيضاً ماهدمه من أحجار الأهرامات الصغيرة كما بنى بإزائها رصيفاً يمتد كجبل على الأرض مسيرة ستة أميال ، يقصد به أن تسلك عليه عساكره فى أى وقت [٤٩٢] ؛ وقد عَدَّها ابن جبير من مفاخر صلاح الدين وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين [٤٩٣] .

كما اهتم صلاح الدين بثغر دمياط ، والثغور البحرية الأخرى على ساحل البحر المتوسط ، وتبدت عنايته بثغر دمياط الذى كان فى أيام قوة الخلافة الفاطمية دار صناعة للسفن الحربية ، تخرج منها الأساطيل لجهاد أعداء البلاد ، فيكون لها ببلاد العدو صيت ورهبة (٤٩٤) .

وقد أمر صلاح الدين بتقوية السلاسل الحديدية التى تربط بين برجين من الحجر ، وذلك ليمنع سفن الأعداء من دخول الميناء ، كما أمر بترتيب المقاتلين فيهما ، وأن تشد مراكب إلى السلسلة التى بين البرجين ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من البرجين ، كما أمر بإصلاح سور المدينة وترميمه ، وإصلاح مابه من الثلمات التى سببتها الغارات الفرنجية عليه ، وأنفق فى سبيل ذلك مليوناً من الدنانير ، ويبلغ طول السور ٤٦٣٠ ذراعاً (٤٩٥) .

ومن مدن الساحل التى اهتم بها مدينة تنيس (٤٩٦) . فاهتم بعمارة قلعتها (٤٩٧) وسورها الذى يرجع بناؤه إلى أيام العباسيين وكلفه ذلك ثلاثة آلاف دينار (٤٩٨) ، وقد أمر صلاح الدين بنقل أهلها إلى دمياط فى سنة ٥٨٨هـ /١١٩٢م ، وجعلها للمقاتلة فقط ، وذلك عندما كثرت عليها الغارات الفرنجية .

وقد زار صلاح الدين فى سنة ٥٧٢هـ /١١٧٦م مدينة الاسكندرية ليشاهد العمل فى السور الدائر ، وصام رمضان هذا العام بها واجتمع بالشيخ الحافظ أبى الطاهر أحمد بن السلفى (٤٩٩) .

(٤٩٤) الناصر صلاح الدين ص ١٣١ .
نفس المصدر ج ٢ ص ١٥٢

(٤٩٥) المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٢١٥ .

(٤٩٦) تنيس جزيرة ومدينة جميلة ، وهى بعيدة عن الساحل بحيث لايرى من أسطحها » .
سفر نامة ص ٧٦ ، ومعجم البلدان ج ٢ ص ٥٢ .

(٤٩٧) السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٦ .

ولم يترك صلاح الدين مدينة الإسكندرية حتى كان قد أمر بإتمام الثغور وتعميرها وذكر ابن أبى طى سبب أمر السلطان بذلك ، وماجرى العمل به فقال : « فرأى الأسطول وقد أخلقت سفنه ، وتغيرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول (٥٠٠) ، وجمع له من الأخشاب والصناع أشياء كبيرة ، ولما تم عمل المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل السلاح والعدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرجال ، وولى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً ، وديواناً مفرداً ، وكتب إلى سائر البلاد يقول : القول قول صاحب الأسطول ، وأن لايمنع من أخذ رجاله ، وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول أن لايبارح البحر ، ويغزى إلى جزائر البحر (٥٠١) ، وجعل صلاح الدين أخاه العادل رئيساً عاماً لديوان الأسطول ، وولى هذا بدوره صفى الدين عبد الله بن على بن شكر نائباً عنه فى مباشرة أمور الديوان (٥٠٢) ، وخصّص صلاح الدين لهذا الديوان الأموال الفائقة ، فعينّ له : « الفيوم بأعمالها ، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى وهو من البر الشرقى بهتين والأميرية والمنيه ومن البر الغربى ناحية سفط ونهيا ووسيم ، والبساتين خارج القاهرة ، وعين له أيضاً الخراج وهو أشجار لاتحصى كثرة فى البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية ، والأخميمية والقوصية . . وعين له أيضاً النطرون وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار ، ثم أفرد لديوان الأسطول مع ماذكر الزكاة التى كانت تجبى بمصر ، وبلغت فى سنة زيادة عن خمسين ألف دينار ، وأفرد له المراكب الديوانية وناحية أشناى وطنبدى (٥٠٣) » كما زاد صلاح الدين رواتب المشتغلين فى الأسطول ، وقضى عشرة أعوام فى إعداد وترتيب حتى أصبح

(٥٠٠) وكان شاور قد أمر لدى تحريق مصر بحرق مراكب الأسطول ، فحرقت ونهبت .
المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٤

(٥٠١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٩ .

(٥٠٢) المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٤ والنظم الاسلامية / على ابراهيم ص ٢٥٢ .

فى مقدرته القيام بعمليات حربيه ناجحة فى مياه البحر المتوسط ضد العدو الفرنجى ، وذلك قبل وقعة حطين (٥٠٤) .

وهكذا كانت عناية صلاح الدين بالأسطول عناية زائدة ، لم يقم بها أحد ممن جاء بعده إلا الظاهر بيبرس (٥٠٥) .

ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين قد وجه عنايته نحو البحر الأحمر ، فاحتل قلعة أيلة - التى تقع على مدخل البحر الأحمر - من أيدى الفرنج ، واهتم ببناء برج السويس الذى يسع فيه عشرين فارساً ، ووضع فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد (٥٠٦) ، كما استولى توران شاه على اليمن ، ثم بسط نفوذه على الحجاز ، وصار يدعى له على منابر مكة ، وكان الهدف من وراء ذلك بالنسبة للبلاد المطلة على البحر الأحمر فى الجنوب والشمال هو السيطرة على مداخل هذا البحر ، وحمايته من الخطر الفرنجى المتواجد فى سيناء وجنوب فلسطين (٥٠٧) .

وهكذا عمل صلاح الدين على تقوية مصر وتحصينها وتأمينها ، ووجه اهتماماً بالغاً إلى البحرية لخطورتها فى مجابهة الفرنج ، وفى وقف خطرهم على حد سواء .

وكان عليه أن يوجه نظره إلى بلاد الشام لوضع الأمور فيها على الوجه الذى يحقق وحدتها مع مصر تحت راية أيوبية ، انطلاقاً إلى مواجهة اسلامية موحدة ضد قوى الفرنج لتحرير الأرض .

ومن ثَمّ كان عليه فى هذه المرحلة أن يواجه قوة الزنكيين فى حلب والموصل ، ثم الفرنج والصليبيين .

---

(٥٠٤) تاريخ البحرية الاسلامية ج ١ ص ٢٧٧ ، ٢٧٩ .

(٥٠٥) الخطط التوفيقية ج ١ ص ٧١ .

(٥٠٦) السلوك ج ١ ق ١ ص ٩٥ .

(٥٠٧) تاريخ البحرية الاسلامية ج ١ ص ٢٦١

المواجهة مع بنى زنكى :-

وكانت خطة صلاح الدين آنئذ تقوم على أساسين : الأول : قطع صلة حلب بالموصل ، والثانى : الاستيلاء على الموصل أو على الأقل إضعافها (٥٠٨) .

وقد خدمت الظروف صلاح الدين حيث توفى الملك الصالح اسماعيل فى شهر رجب سنة ٥٧٧هـ / ١١٨٢م عن عمر يناهز التاسعة عشرة (٥٠٩) ، وأوصى قبل موته أن يئول ملك حلب إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، واستقر رأى الجماعة على ذلك ، غير أن عماد الدين زنكى الثانى صاحب سنجار اعترض طريقه ، وتم الاتفاق على تسليم سنجار إلى عز الدين مسعود ، ون يملك عماد الدين زنكى الثانى حلب ، وبذلك صار عماد الدين زنكى الثانى صاحب حلب (٥١٠) .

وشجع هذا الانقسام فى صفوف الزنكيين صلاح الدين على مهاجمتهم ، كما دفعه إلى مهاجمتهم أيضاً ما نمى إلى علمه من « أن المواصلة كاتبوا الفرنج وغيرهم فى قصد الثغور الاسلامية ليشغلوا السلطان عن قصدهم (٥١١) » .

وكان أن تقدم صلاح الدين صوب حلب ليحاصرها ونازلها ثلاثة أيام ، ولكنه أدرك أن الخطر الحقيقى يكمن فى الجزيرة العراقية حيث يتمتع صاحب الموصل فيها بالكلمة العليا (٥١٢) ، فعبر الفرات إلى الديار الجزرية ، لاسيما وأن أصواتاً مشجعة دعته إلى ذلك ، فقد حثّه مظفر

---

(٥٠٨) مصر والشام والصليبيون ص ١٣٣ .

(٥٠٩) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٦٣ .
Brokelman, history of Islamic people, P 228
وقيل إنه مات مسموماً . نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٣٢ ورنسيمان ج ٣ ص ٧٠٠ .

(٥١٠) Brokelman, history of Islamic people, P.228

(٥١١) مفرج الكروب ج ٢ ص ١١٥ .

الـدين كوكبـورى وإلى حران لعز الـدين مسعود يعلمه « أنه معه محب لدولته ، ووعده بالنصرة له إذا عبر الفرت ، ويطمعه فى البلاد ، ويحثه على الـوصـول [٥١٣]، ولـدى عبـوره الفـرات كان من أنصاره صاحب قلعة البيرة [٥١٤]، وفى تلك الأثناء كان عز الدين مسعود قد توجه إلى نصيبين ، متـوجهاً للقاء صلاح الدين على حلب ، ففاجأه عبور صلاح الدين فى طريقـه إلى بلاده ؛ وتمكن صلاح الـدين من الاستيلاء على نصيبـين[٥١٥]، بمؤازرة بعض أصحاب الأطراف مثل محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفـا والأمير فخر الدين مسعود الزعفرانى صاحب الرها الذى دخل فى طاعته بعد حصاره لمدينته .

وبعـد أن استـولى صلاح الدين على نصيبين استقر رأيه على مهاجمة الموصل ، وكان من أكبر مشجيعه على ذلك مظفر الدين كوكبورى حيث قال له : « لاينبغى أن يُبدأ بغير الموصل ، فإنها فى أيدينا لامانع لها ، فإن عز الدين ومجاهد الدين [٥١٦] (قايماز) متى سمعا بمسيرنا إليها ، تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية [٥١٧]» ، ولكن الجيش الصلاحى ومن رافقه عندما ذهب لحصار الموصل فوجىء بما أعده صاحب الموصل لمثل هذا

---

(٥١٣) الكامل ج ٩ ص ١٥٦ ومظفر الدين كوكبورى ص ٨٣ ويورد العماد الأصفهانى بأسلوبه الملىء بالمحسنات تحريض مظفر الدين كوكبورى لصلاح الدين حيث يقول مظفر : « مازلت مشوقاً إليك فى « حران » حران ، وإلى الرى من ورد خدمتك ظمآن ، وهى لك مبذولة ، وبأولياتك من أهـل الـدّين والـدنيا مأهو له ، « والرها » لايعسر أمر لها ، « والرقة » لرقك وبعض حقك ، و « الخابـور » فى انتظار خبرك ، و « دارا » ونصيبين « نصيبك ، وملك « الموصل » موصلك إلى الملك ، وماهذا أوان الونا » مظفر الدين كوكبورى ص ٨٤ .

(٥١٤) وهى قلعة منيعة على الفرات من الجانب الجزرى .

(٥١٥) وكان قد استولى على الرها وحران والرقة وسروج الكامل ج ٩ ص ١٥٧ والحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٧٦ .

(٥١٦) نائب عز الدين .

(٥١٧) الكامل ج ٩ ص ١٥٧ ، وكان قد اختلف هل يبدأ بعد نصيبين بقصد الموصل أو سنجار

اللقاء حيث كان « عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة مابين فارس وراجل ، وأظهر من السلاح وآلات الحصار ، ما حارت له الأبصار ، وبذلا الأموال الكثيرة ، وأخرج مجاهد الدين من ماله كثيراً ، واصطلى الأمور بنفسه فأحسن تدبيرها » ، ولم يقف الأمر على المـوصـل وحدها فقد شحنوا مابقى بأيديهم من البلاد كالجزيرة وسنجار والموصل ، وإربل وغيرها من البلاد بالرجال والسلاح والأموال » وعندما أراد صلاح الدين وبعض أعيان رجاله التحقق من مدى تحصينات الموصل بأنفسهم قبل الهجوم عليها فإنه شُده وأصحابه حيث أنه « رأى بلداً عظيماً كبيراً ، ورأى السور والفصيل قد مُلِئا من الرجال ، وليس فيها شرافة ، إلا وعليها رجل يقاتل سوى من عليه من عامة البلد المتفرجين [٥١٨]» .

ومع ذلك فإنه هاجم الموصل وفشل فى الاستيلاء عليها ، وأدرك أنه ليس فى استطاعته ذلك [٥١٩]، وكان عليه مراجعة الموقف وفكر فى طلب تأييد الخـلافة العباسية له ظنا منه أن الخلافة قد تقف إلى جانبه وتمنحه سلطة على غيره من أمراء إقليم الجزيرة [٥٢٠]، ولكن الخلافة لم تؤيده ، واكتفت بالتـدخـل فقط لاصـلاح الأمر بينه ، وبين صاحب الموصل ، واكتفى بتفويض صدر الدين شيخ الشيوخ بالقيام بالوساطة بين الزنكيين وصلاح الدين [٥٢١].

وأراد صلاح الدين أن يخرج بمغنم ما من هذه المعركة الخاسرة ، وذلك بأن يتنازل عن البلاد التى استولى عليها فى مقابل أن يتخلى عز الدين عن مساعدة حلب ونجدتها ، ولكن عز الدين أخلف ظن صلاح الدين وقال

---

(٥١٨) الكامل ج ٩ ص ١٥٧ .

(٥١٩) نفس المصدر ج ٩ ص ١٥٧ ومفرج الكروب ج ٢ ص ١١٩ .

(٥٢٠) Grousset, histoire des croisades, T 2 P, 714

(٥٢١) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ ، وشيخ الشيوخ هو بشير الخادم وهو من خواص الخليفة الناصر

له عن صاحب حلب : « هو أخى وله العهود والمواثيق ، ولايسعنى أن أنكثها (٥٢٢)» .

وهكذا لم تسفر الأمور عن صلح ، وأدرك صلاح الدين ألا فائدة من البقاء طويلاً أما الموصل ، لاسيا وقد تجهز شاه أرمن السلجوقى وأمير ماردين لارسال قوة لانقاذ الموصل (٥٢٣)، « ورأى أن طريق أخذه : أخذ قلاعه ، وما حوله من البلاد ، وإضعافه بطول الزمان (٥٢٤)» وانصرف عن الموصل ، وتوجه إلى سنجار حيث نزل عليها فى ١٦ شعبان سنة ٥٧٨هـ /١١٨٣م ، واستمر حصاره لها حتى ٢ رمضان حيث استولى عليها (٥٢٥)، ثم استولى على آمد فى أول المحرم سنة ٥٧٩هـ /١١٨٣م بعد حصارها ثمانية أيام ، وسلمها إلى صاحب حصن كيفا ، ثم إن السلطان توجه إلى بلاد الشام لحصار حلب ، فاستولى على تل خالد (٥٢٦)، ثم عينتاب (٥٢٧)، وسار صلاح بعد ذلك من عينتاب إلى حلب ، التى لم تصمد لحصار صلاح الدين وفضل عماد الدين زنكى الثانى صاحبها أن يسلم حلب ويأخذ عوضها سنجار ونصيبين والخابور والرقة وسرّوج ، وتم الاتفاق بينه وبين صلاح الدين على ذلك (٥٢٨)، ويرى ابن الأثير أن تلك بالنسبة لعماد الدين زنكى الثانى كانت صفقة خاسرة فقال : « وباعوها بأوكس الأثمان ، أعطى حصناً مثل حلب ،

---

(٥٢٢) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ .

(٥٢٣) رنسيمان ج ٣ ص ٧٠١ .

(٥٢٤) النوادر السلطانية ص ٩٥ .

(٥٢٥) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ .

(٥٢٦) تل خالد : قلعة من نواحى حلب . معجم البلدان ج ٢ ص ٤١ .

(٥٢٧) قلعة حصينة ورستاق من قرى حلب ، رستاقها دلوك مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٩٧٧ . وفى الدر المنتخب : « وهى مدينة مليحة جليلة ولها قلعة » الدر المنتخب ص ١٥٧ .

(٥٢٨) الكامل ج ٩ ص ١٥٨ ورنسيمان ج ٢ ص ٧٠٣ وانظر

Grousset, histoire des croisades, T.2 P. 720

وأخذ عوضها قرى ومزارع (٥٢٩)»، وقد تم ذلك بعد أن كان عماد الدين خرّب قلعة حلب حتى لايستفيد بها صلاح الدين ، ولم يكن تسليم حلب لصلاح الدين عن رضاً من أهلها ، حتى انهم نقموا على عماد الدين تسليم حلب وقد عبرّ عن ذلك بعض العامة حيث « أحضر إجانة وماء وناداه : أنت لايصلح لك الملك ، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب ، وأسمعوه المكروه (٥٣٠)»، وصاغ الناس فى ذلك أشعاراً يعبرون بها عن سخطهم منها :

وبعت بسنجار خير القلاع ... ثكلتك من بائع مشترى

وكان سقوط حلب فى يد صلاح الدين كسباً كبيراً قوى من مركزه فى بلاد الشام ، حتى اعتبر ابن الأثير أن ملك صلاح الدين استقر بملكها (٥٣١). وقد شعر صلاح الدين نفسه بذلك حتى انه « أعطى العساكر دستوراً » بالسير إلى بلادهم ، وأقام فى حلب يقرر أمورها .

وقدر الفرنج أنفسهم خطورة استيلاء صلاح الدين على حلب واعتبره وليم الصورى أسوأ حدث يمكن أن يحدث للفرنج (٥٣٢)، وذلك إنه بسقوطها فى يد صلاح الدين أصبح أقوى حاكم معاصر فى الشرق الأدنى ، وجعل الجبهة المتحدة تمتد تحت سلطانه من جبال طوروس فى الشمال حتى النوبة فى الجنوب (٥٣٣)، وقد أصبح صلاح الدين فى مركز قوى يمكنه من إنزال ضربة قاصمة للفرنج : فموارد مصر الضخمة تحت تصرفه ، ودمشق وحلب فى قبضته (٥٣٤)، وامتد صوب الشمال الشرقى

---

(٥٢٩) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ .

(٥٣٠) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ ، وقد استقر ملك عماد الدين زنكى الثانى بسنجار ومامعها فى سنة ٥٧٩ هـ ، ولم يزل بها إلى أن توفى فى المحرم سنة ٥٩٤ هـ . نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٩٠ .

(٥٣١) الكامل ج ٩ ص ١٦٢ .

(٥٣٢) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٨٠ .

(٥٣٣) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٥ ص ١٧٨ و

Stevenson, The crusaders in The East P. 230

حتى أسوار الموصل الا قطاعات الحربية التى ارتكن صلاح الدين إلى مساندة أربابها (٥٣٥).

وقد استبشر المسلمون بفتح حلب ، وعدوه مقدمة لفتح بيت المقدس ، فقال القاضى محى الدين بن زكى قاضى دمشق يقول :

وفتحـه حلبـاً بالسيف فى صفـر   مبشر بفتح القدس فى رجب(٥٣٦)

وكـان تسلّم صلاح الـدين لحلب فى يوم السبت ١٨ صفـر سنة ٥٧٩هـ /١٢ يونيو ١١٨٣م (٥٣٧). ولكن صلاح الـدين فقـد أخاه تاج الملوك بورى على حلب ، حيث أصابه سهم فى عينه مات منه (٥٣٨)بعد أيام ، فحزن عليه حزناً شديداً نغّص عليه فرحه بنصره الكبير ، فكان يقول : « ماوفت حلب بشعره من أخى تاج الملوك بورى (٥٣٩)» .

وهكذا تحقق لصلاح الدين تحقيق جزء كبير من أمله ، فقد صار فى يده مدائن الشام الكبيرة : حمص وحماه وحلب ودمشق ، وظل جزء من أمله متجهـا إلى الموصل للاستيلاء عليها ، أوجعلها كالتابعة له ، وفى سبيل ذلـك عمـل على تضييق الدائرة حولها (٥٤٠)، فتمكن من اكتساب ولاء بعض القـادة الـذين أدركـوا ماينتـظرهم من جراء مسـاندتهم لصاحب المـوصـل ، بل أحسـوا بالخطر الذى ينتظر الموصل نفسها إن ظلت على

---

(٥٣٥) رنسيمان ج ٢ ص ٧٠٤ .

(٥٣٦) فكان كما قال ، لكن بعد سنين ، وهو الذى خطب بالقدس عندما فتحها صلاح الدين فى رجب سنة ٥٨٣ هـ .

النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٥ ، وقرة جلبى ص ٢٤١ ، والمختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٦٦

(٥٣٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٧٩ .

(٥٣٨) النوادر السلطانية ص ٩٨ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٩٥ ، وفى الوفيات ج ١ ص ٢٩٢ وكانت الطعنة فى ركبته .

(٥٣٩) النوادر السلطانية ص ٩٨ وفى المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٦٦ ووفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩٢ : « ما وقعت حلب علينا رخيصة بموت تورى « بورى » .

معاندتها لصلاح الدين (٥٤١). وتهيأت الفرصة فى سنة ٥٨١هـ /١١٨٦م لصلاح الدين لحصار الموصل من جديد ، وقد حاول عز الدين الاستنجاد بالخلافة فى بغداد ، ولكن الخليفة لم ينجده « ولم يحصل منه على زبدة (٥٤٢)» .

واضـطر إلى مراسلة صلاح الـدين للمصالحة ، وتم الصلح على أن يسلم صلاح الـدين إلى عز الدين شهرزور وأعمالها ، وولاية القرابلى ، وجميع ما وراء الزاب من أعمال ، وأن يخطب عز الدين لصلاح الدين على منـابـر بلاده ، ويضرب اسمـه على السكة ، وأن يمد صاحب الموصل صلاح الدين بالجيوش والعتاد والسلاح فى حالة اشتباك صلاح الدين مع الفرنج المقيمين أوضد الصليبين الوافدين (٥٤٣).

وهكذا يكون صلاح الدين الذى كان يعرف جيداً أهدافه الحربية ، ويجيد التخطيط لها (٥٤٤)قد نجح فيما خطط له من توحيد مصر والشام ، واستغرق ذلك منه اثنتى عشر عاماً منذ وفاة نور الدين محمود ، وأصبح على استعداد كامل لمواجهة الخطر الأكبر الجاثم على قلب الأمة العربية : خطر الفرنج والصليبيين .

الجهاد ضد الفرنج والصليبيين وحرب التحرير :

اتضح لنا من خلال ماسبق أن ثمة هدفين كانا يشغلان ذهن صلاح الدين : أحدهما ركيزة لما بعده ، ونعنى بهما توحيد مصر والشام والجزيرة ، وتـأمين ذلك التوحيد وثانيهما جهاد الفرنج ، ويفهم من هذا أن إحدى الغايتين كان وسيلة للغاية الأخرى .

---

(٥٤١) نفس المصدر ص ١٣٤ .

(٥٤٢) النوادر السلطانية ص ١١٢ .

(٥٤٣) الكامل ج ٩ ص ١٧٠ ومصر والشام والصليبيون ص ١٣٥ وانظر Brokelman, history Islmic People, P 228

ولعل الفرنج لم يكونوا غافلين عما ينتويه صلاح الدين ومايفكر فيه ، ولذلك كان حرصهم على حصر صلاح الدين فى مصر وحدها ، وقد اتضح ذلك فى محاولاتهم إبان ، وبعد سقوط الدولة الفاطمية ، ثم ما كان منهم من مؤازرات متصلة من ولاة الأمـور فى حلب والموصـل ، وإن باءت جهودهم بالفشل ، وكان الدليل على ذلك فوز صلاح الدين بما خطّط له فى براعة حتى كون الجبهة المتحدة التى كان يطمح إليها .

على أن الجدير بالذكر أنه فى الوقت الذى كانت فيه الجبهة الإسلامية تتحـد وتقـوى ، كان الفرنج يمرون بفترة عصيبة تسودها الانقسامات الداخلية العنيفة المتشبعة التى حالت دون تدخلهم بحسم فيما كان يقوم به صلاح الدين فى بلاد الشام والجزيرة ، وبيان ذلك فى تفصيل مركز :

اتخذت العـلاقـات بين صلاح الـدين والفـرنـج طابـع المنـاوشات والمصـادمـات المتـقـطعـة بين سنتى ٥٧٢هـ ـ ٥٧٦هـ / ١١٧٦ ـ ١١٨١م (٥٤٥)، واضطر صاحب بيت المقدس فى سنة ٥٧٦هـ أن يطلب عقـد الهدنة مع صلاح الدين فى أعقاب غارة موفقة لصلاح الدين على السفن الراسية فى ميناء عكا ، ثم غارته العنيفة على الجليل ، وقد وافق صلاح الدين على هذه الهدنة وفقاً للأولويات التى كان رتبها ، والتى تجعل الاستيلاء على حلب سابقاً على استيلائه على بيت المقدس ، وكانت مدة هذه الهدنة سنتان ، ثم مالبثت أن وقعت معاهدة مماثلة مع ريموند صاحب طرابلس (٥٤٦) .

وكـانت مملكـة بيت المقدس تمر آنئذ بفترة خطيرة عندما تولى بلدوين الـرابـع الذى كان مريضاً بالجذام والذى مات متأثراً به (٥٤٧) ، ثم تلاه

(٥٤٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٣٧ .

(٥٤٦) رنسيمان ج ٣ ص ٦٧٩ ، ٦٨٠ . وحذا حذوه بوهيمند الثالث أمير أنطاكية فجدد هدنته مع صلاح الدين .

lone- poole, Saladin, P. 161 .

Chlimberger, Renadu de Chatillon, P. 189 .

بلدوين الخـامس الـذى مالبـث أن مات كذلـك بعـده ببضعـة شهور (٥٤٨)والذى كانت وفاته إيذاناً بفزع حاد بين أمراء الفرنج حول الفوز بعرش مملكة بيت المقدس (٥٤٩)، ومن ثم انتقل إلى أمة سيبيلا « Sybella » التى تزوجت فارساً قدم إلى الشام من أوربا هو جى دى لوزجنان « Gui de lusignan »(٥٥٠)، ولكن ريمـونـد الثالث أمير طرابلس لم يرض بذلك حيث كان يطمع فى الملك (٥٥١)، وتولد عن ذلك انقسام شديد فى صفـوف الفـرنـج بين مؤيد لريمـوند ومؤيد للوزنجان ، وكان ممن ناصر لوزجنـان ضد ريموند فرسان الداوية (٥٥٢)، مما ألجأ ريموند الثالث إلى صلاح الدين يطلب معونته ، فوافق صلاح الدين وسر لذلك ، وسر له المسلمون ، وكان ذلك من عوامل نصر الإسلام (٥٥٣)، وقد نظر المؤرخون الغربيون إلى موقف ريموند هذا على أن خيانة مع اعترافهم بسلامة هذه السياسـة ، فقـال رنسيمان : « وبـرغم ماكان من سلامة سياسة ريموند فلاشك أنها انطوت على الخيانة (٥٥٤)» .

وقد أتاحت هذه الهدنة فرصة لصلاح الدين تمكن بها من إعداد قواته عسكـرياً ونفسياً ، وتـوحيد الصفـوف ليبدأ جهاده الحاسم ضد الفرنج

(٥٤٨) وله من العمر ٩ سنوات . Ibid, P 48 .

(٥٤٩) ويقال أن أمه سمته ليتول الملك لزوجها الثانى المسمى لوزجنان . الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٤ .

وحقائق الأخبار ص ١٥٣

(٥٥٠) Kerr, The crusades, P. 48 .

(٥٥١) العـلاقـات بين الشرق والغرب / د . ماجد ص ١٦٨ ، ١٦٩ و Lane- poole, Saladin, PP 220- 221 .

Saunders, A history of Medisval Islam, P. 165 .

(٥٥٢) King, The Rinights hospitallers in the holly land, P. 118. .

(٥٥٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٧٤ ـ ٧٥ ومفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٥ وطرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٢٥٠ .

(٥٥٤) رنسيمان ج ٢ ص ٧٢٨

والصليبيين ، وقد ساعدته الظروف حيث فقد الفرنج حليفاً قوياً لهم هو الأمبراطور البيزنطى مانويل كومنين الذى توفى فى سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م (٥٥٥).

وقد بات صلاح الدين يترقب وقوع الفرنج فى أخطاء تمهد له السبيل ، وتبسط أمامه الحجة لحربهم ، وواتته الفرصة على يد أمير الكرك رينالدشاتيون (٥٥٦) الذى نقض بعض شروط الهدنة مع المسلمين والذى كان يقضى بأن يسمح للتجار على الجانبين فى أن يجتاز كل من الجانبين بلاد الآخر (٥٥٧).

فقد تعرض ذلك الأمير الذى كانت سياسته قائمة على الغطرسة والمشاكسة ـ لإحدى القوافل التجارية المتجهة من القاهرة إلى دمشق فى سنة ٥٨٢هـ /١١٨٦م « وكانت قافلة عظيمة غزيرة الأموال كثيرة الرجال ، ومعها جماعة صالحة من الجند (٥٥٨)» ، وكان فى هذه القافلة أخت صلاح الدين (٥٥٩). فأخذ جميع مافى القافلة أسرى ، وأودعهم السجون ، كما استولى على كل مامعهم من أموال ودواب وسلاح ، وأرسل صلاح الدين رسلاً إلى رينالدشاتيون ليبينوا له خطأ مافعله ، وأن يطلق جميع من أسرهم ، وأن يتحمل التعويضات نتيجة الخسائر التى حلت بالقافلة ، ولم يجبه رينالدشاتيون إلى شىء من ذلك بل قال لرسله « قولوا لمحمد

(٥٥٥) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٦٧ .

(٥٥٦) وكان كمشتكين اطلق سراحه تعاطفاً مع الفرنج الذى تعاطفوا معه ، حيث أفرج عن الأسرى الفرنج فى قلعة حلب الذى أسروا فى حارم سنة ٥٥٩ هـ رينالدشاتيون مما أضر بالمصلحة العامة للمسلمين .

Schlumbergdr, Renadu de Chatillon, P 144 .

Stevenson, The crusaders in the East, P. 189.

(٥٥٧) رنسيمان ج ٢ ص ٦٩٦و -Schleinberger, Renaelu de Chatillon PP,191 192

(٥٥٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٤ و Kerr, The crusades, P 48

يخلصكم (٥٦٠)، فوجه صلاح الدين برسله الى ملك بيت المقدس جى لوزجنان ليكبح جماح تابعه ، وكان جى لوزجنان حريصاً على عدم نقض المعاهدة مع صلاح الدين آنئذ ، فاهتم بشكوى صلاح الدين ، وأرسل إلى أمير الكرك يأمره بتنفيذ طلبات صلاح الدين ، لكن ذلك الأمير المتهور لم يقبل بأمر الملك الذى كان حريصاً على أن تدوم المعاهدة (٥٦١) ولم يكن بوسع جى أن يفرض على رينالدشاتيون أن يطيعه (٥٦٢).

وكان ذلك دليلاً على مدى التردى الذى وصلت إليه هيبة وسلطان ملك بيت المقدس (٥٦٣). وعلى الجملة فقد دفعت أقوال هذا الأمير المتهور وأفعاله صلاح الدين إلى أن ينذر نذراً أن يقتله إن ظفر به (٥٦٤).

وقد سبق لهذا الأمير المتهور الذى كان لايستطيع أن يعيش دون أن يسطو وينهب (٥٦٥)أن هاجم القوافل المارة بين مصر والشام ، وكان أسوأ هذه الاعتداءات ماحدث فى سنة ٥٧٨هـ /١١٨٢م حين جهز رينالد سفناً أعدها وحملها على جمال البدو الذين أغراهم بالمال (٥٦٦)إلى البحر الأحمر وملأها بالمقاتلة وتمكن من الاستيلاء على أيلة (٥٦٧)، وهاجم

(٥٦٠) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٤ .

(٥٦١) Schlumberger, Renadu de Chatillon, P. 190

Brokelman, history of Islmic people, P, 228

(٥٦٢) رنسيمان ج ٢ ص ٧٢٧

Grousset, histoire des croisades, T 2, P. 703

(٥٦٣) Besant Palmer, Jerusalem..., P.388

Grousset, histoire des croisade. T 2 P. 703

(٥٦٤) الكامل ج ص ١٧٤

(٥٦٥) Grousset, histoire des croisades, T 2 P, 776

وسوريا ولبنان وفلسطين حتى ص ٢٣٧ .

(٥٦٦) lane- pool, Saladin, P, 175

Lamb: The Flame of Islam P 56

بقراصنته بعض البلدان الصغيرة ، ونهبوا عيذاب (٥٦٨)، واستولوا بها على سفن تجارية زاخرة بالسلع قدمت من عدن ومن الهند، كما نزلوا إلى البر وهاجموا قافلة ضخمة كانت قادمة عبر الصحراء من وادى النيل ، ولم يكتفوا بذلك بل اجتازوا البحر الأحمر من عيذاب إلى ساحل بلاد العرب ، وأشعلوا الحرائق فى السفن الراسية بالحوراء وينبع مينائى المدينة ، ثم توغلوا حتى بلغوا رابغ ميناء مكة ذاتها ، وأغرقوا بقربه سفينة للحجاج كانت متجهة إلى جدة (٥٦٩) .

وكان لذلك آنذاك ـ أسوأ الأثر على العالم الإسلامى بأسره ، بل على حلفاء الفرنج من المسلمين ، فقد كان أميرا حلب والموصل آنذاك خجلين لاستعانتهما بالفرنج الذين لايرعون حرمة مقدساتهم الاسلامية .

وقد تمكن العادل أخو صلاح الدين من إيقاف هؤلاء العابثين عند حدهم ، حيث أرسل إليهم أسطولاً بقيادة متولى أسطول مصر حسام الدين لؤلؤ الحاجب الذى تمكن من استرداد أيلة ، وانقض على من بها « انقضاض العقاب على صيده (٥٧٠)» ، وقتل بعضهم ، وأسر البعض ، ثم تتبع من ساروا إلى عيذاب فوجدهم ارتحلوا ليفسدوا فى الموانىء المختلفة حتى أدركهم بساحل الجوزاء ، ودارت معركة بينه وبينهم فى البحر ، فتك بهم فيها ، وانتقلت المعركة إلى البر « فقتل أكثرهم ، وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله صلى الله عليه وسلم » ، وعاد بالأسرى إلى مصر فقتلوا

---

(٥٦٨) عيذاب : مدينة حسنة ، وهى مجمع التجار برا وبحرا .
جريدة العجائب وفريدة الغرائب ص ٥٩
« ابن الوردى » القاهرة ١٢٧٦

(٥٦٩) رحلة ابن جبير ص ٥٨
وانظ Schlumberger, Renadu Shatillon, PP. 219-221

جميعهم (٥٧١)، وتمكن رينالددى شاتيون من الهرب ، والتوجه إلى حصن الكرك ليواصل أعماله العدائية ثانية ضد المسلمين (٥٧٢)؛ وأقسم صلاح الدين أنه لن يغفر لرينالد محاولة انتهاك حرمة الدين (٥٧٣).

وشهد ابن جبير الذى كان يزور مصر آنذاك أسرى الفرنج وقد « أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق (٥٧٤)» ، ووصف شناعة ما كان هؤلاء قد أزمعوا عليه ومنالهم من جزاء حيث قال : « حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من الضريح المقدس ، أشاعوا ذلك ، وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطيهم مايحول عناية القدر بينهم وبينه (٥٧٥)» .

هكذا جرّ هذا الأمير المتهور بحماقته المعهودة الفرنج إلى الحرب مع صلاح الدين ، تلك الحرب التى جاءت كارثة على رينالد نفسه بل وعلى الفرنج جميعاً (٥٧٦)، فقد أتاح ذلك فرصة سانحة لصلاح الدين حتى يضرب الفرنج فى الصميم ، معتمداً على التفكك السياسى فى جبهتهم ، ومحتجاً بأن ملك بيت المقدس لم يستطع كبح جماح صاحبه (٥٧٧).

واستعد لصلاح الدين لهذا الغزو بالتعبئة العامة له وجمع له عساكر

---

(٥٧١) الكامل ج ٩ ص ١٦٠ والمختصر أخبار البشر ج ٣ ص ٦٥ وانظر :
Kerr:, The crusades, P 47
Chlumberger; Renadu de Shatillon, P. 224

(٥٧٢) lomb, The blame of Islam, P 29

(٥٧٣) رنسيمان ج ٢ ص ٧٠٧ ، مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٥

(٥٧٤) رحلة ابن جبير ص ٥٧

(٥٧٥) رحلة ابن جبير ص ٥٧

(٥٧٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٧٩٦ و
Setton, a history of the crusades, vol 1 P, 581

(٥٧٧) ... ص ١٤٠

الجزيرة العراقية ومصر والشام (٥٧٨)، وبدأ بالإغارة على الكرك والشوبك وغيرهما ، وبث سراياه للحرق والتخريب « فنهبوا وخرّبوا وأحرقوا (٥٧٩)» .

ومن ناحية أخرى كان صلاح الدين طلب من أخيه الأفضل أن يرسل بعض القوات للإغارة على عكا ، فسيرّ جيشاً بقيادة بعض كبار الأمراء منهم . مظفر الدين كوكبورى صاحب حرّان والرها ، وقد صبح هذا الجيش صَفَّورية (٥٨٠) فى أواخر شهر صفر سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م ، وكانت هذه البلد معقلاً للداوية والاسبتارية ، وجرت بينهم وبين الجيش الإسلامى القادم حرب شديدة « تشيب لها المفارق السود (٥٨١)» ، وانتصر المسلمون بعد أن قتلوا من الاسبتارية والداوية أعداداً كبيرة ، كما أسروا أعداداً كبيرة أخرى من بينهم مقدم الاسبتارية نفسه الذى كان « من فرسان الفرنج المشهورين ، وله النكاية العظيمة فى المسلمين (٥٨٢)» ، وعاد المسلمون يحملون رؤوس أعدائهم على أسنة الرماح (٥٨٣) .

على أن الجدير بالذكر أن هذه القوات الإسلامية اخترقت إقليم الجليل فى طريقها من بانياس إلى عكا وكان ذلك قد استلزم أن يأخذ صلاح الدين إذناً من ريموند الثالث وكان فى طبرية آنئذ يطلب منه السماح لتلك القوات بالمرور بحكم ما كان بينهما من تحالف وقد اضطر ريموند للإذن بذلك وإن أصدر أوامر إلى المدن الفرنجية فى الجليل بأن تغلق أبوابها حتى لايستولى المسلمون عليها (٥٨٤) . وقد اعتبر الفرنج ذلك خيانة من ريموند الثالث لهم

(٥٧٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٥ .

(٥٧٩) نفس المصدر ج ٩ ص ١٧٥ Brokelman, history of Islamic people, P. 228

(٥٨٠) بفتح أوله وتشديد ثانية : كورة وبلدة من نواحى الأردن بالشام وهى قرب طبرية . معجم البلدان ج ٣ ص ٤١٤

(٥٨١) الكامل ج ٩ ص ١٧٥ .

(٥٨٢) نفس المصدر ج ٩ ص ١٧٦ .

(٥٨٣) مفرج الكروب ج ٢ ص ١٨٧ .

(٥٨٤) Grousset, histoire des Croisades, T.2 P.782 .

وأمام هذا أراد الفرنج تجميع جهودهم ضد صلاح الدين وكان لابد من رأب الصدع كعادتهم فى نبذ خلافاتهم جانبا عند استشعار خطر إسلامى محقق ، فأرسلوا إلى ريموند الثالث عدداً من رجال الدين وكذلك من الفرسان بينوا له أنهم غير راضيين عن انتمائه إلى صلاح الدين ووبّخوه على ذلك (٥٨٥) وقالوا له : لاشك أسلمت وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالفرنج ، يقتلون الداوية والاسبتارية ويأسرونهم ويجتازن بهم عليك ، وأنت لاتنكر ذلك ولاتمتنع عنه » ، وزادوا على ذلك بأن هدده البطرك أن يحرمه ويفسح عليه نكاح زوجته (٥٨٦) ، فأجابهم ريموند إلى ماطلبوه منه وانضم إليهم وسار معهم إلى جى لوزجنان ملك بيت المقدس ، وبذلك اجتمعت كلمتهم من جديد أمام الخطر الإسلامى الماثل أمامهم (٥٨٧) ولكن ذلك لم يغن عنهم من الله شيئاً (٥٨٨) .

واتجهت جموع الفرنج نحو صفورية التى تبعد ستة عشر ميلاً عن عكا . أما صلاح الدين فرأى ألا يقابلهم عند صفورية ، بل يجبرهم على المسير إليه حيث يريد هو ، فيلقاهم بجند وافر القوة والجهد لذلك اللقاء ، وفى سبيل الوصول إلى ذلك رأى أن يهاجم طبرية ليصل إلى مايريد ويتمكن من استئصالهم (٥٨٩) ، وقد عبرّ ابن الأثير عن تفكير صلاح الدين هذا حيث قال : « وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم (٥٩٠)» .

وتمكن صلاح الدين من الاستيلاء على طبرية دون قلعتها التى استبسلت زوجة ريموند الثالث. التى كانت فيها - فى الدفاع عنها ، وأصرت على

(٥٨٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٧١ .

(٥٨٦) الكامل ج ٩ ص ١٧٦ .

(٥٨٧) طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى ص ٢٥٦ .

(٥٨٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٦

(٥٨٩) الروضتين ج ٢ ص ٧٦

مقاومة الهجوم على القلعة بحاميتها القليلة العدد ، وأرسلت إلى زوجها تخبره بجليّة الأمر (٥٩١).

وقد اختلفت آراء الفرنج ، بعد هذا الموقف الذى خلقه لهم صلاح الدين : ففى حين رأى بعضهم التقدم إلى المسلمين لقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، رأى ريموند ـ وكان الأبعد نظراً (٥٩٢) ـ خلاف ذلك ، وقال لهم : « إن طبرية لى ولزوجتى ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة مافعل ، وبقى القلعة ، وفيها زوجتى ، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتى ومالنا بها ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديماً وحديثا ، مارأيت مثل هذا العسكر الذى مع عسكر صلاح الدين كثرة وقوة ، وإذا أخذ طبرية لايمكنه المقام بها فمتى فارقها ، وعاد منها أخذناها ، وإن أقام بها فلا يقدر على المقام بها ـ الا بجميع عساكره ، ولايقدرون على الصبر طول الزمان عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها (٥٩٣) » كما بين ريموند خطورة ترك صفورية ، والمخاطرة بالمسير على التل الأجرد فى حرارة شهر يوليو الشديدة ، وأن الجيش الذى يهاجم فى قيظ الصيف ولفحه لن تكون الأحوال فى صالحه (٥٩٤) . ولم يلق رأيه قبولاً بل واتهم بالخوف والجبن ، وبأنه يريد ضياع المملكة ، واشتد عليه رينالد شاتيون وقال له : « قد أطلت فى التخويف من المسلمين ، ولاشك أنك تريدهم ، وتميل إليهم ، وإلا ماكنت تقول هذا ، وأما قولك : إنهم كثيرون فإن النار لايضرها كثرة الحطب (٥٩٥) » ، وكان ممن اشتد عليه كذلك جيرار مقدم الداوية (٥٩٦) ،

---

(٥٩١) رنسيمان ج ٢ ص ٧٣٥ ، تتمة المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٩٧ وانظر :
Kerr, The crusades, P. 48

(٥٩٢) Stevenson, The crusaders in the east, PP, 244- 245 .

(٥٩٣) الكامل ج ٩ ص ١٧٧ .

(٥٩٤) رنسيمان ج ٣ ص ٧٣٥ و
Zoe Oldenbourg: The crusades, P 241

(٥٩٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٧ .

فاضطر ريموند إلى موافقتهم ، ووصلت تلك الأنباء إلى صلاح الدين عن طريق عيونه المنبثين فى صفوف الفرنج (٥٩٧) ، فأدرك صلاح الدين أن خطته قد نجحت ، وأن الفرنج وقعوا فيما دبّره لهم .

على أن الجدير بالذكر أن بوهيمند الثانى **Bohemond II** أمير أنطاكية لم يشترك مع الفرنج فى ذلك لبعده ، ولوجود صلاح الدين فى طريقه ، وإن كان من جهته دائم الإغارة على مراكز المسلمين المجاورة لإمارته (٥٩٨) .

« موقعة حطين (٥٩٩) »

غادر جيش الفرنج بقيادة جى لوز جنان وريموند الثالث وينالدشاتيون (٦٠٠) صفورية فى يوم شديد الحرارة ، راكد الهواء ، وكان ريموند على مقدمة الجيش فى حين تولى جى لوزجنان قيادة قلب الجيش ، أما رينالدشاتيون وآخرون فقد أو كل اليهم مؤخرة الجيش ، وسار الجيش الفرنجى فى طريق تنعدم فيه المياه ، حتى أصابهم الظمأ ، وتعبت خيولهم ، وكان للرماة الذين خصصهم صلاح الدين على طول الطريق ، لضرب مقدمة ومؤخرة الجيش القادم أثرهم فى تحطيم معنويات الجيش الفرنجى بما أمطروه به من سهام (٦٠١) .

وقد نجح صلاح الدين فعلاً فى استدراجهم إلى مكان صخرى ، بعد أن نجح فى السيطرة على مشارب المياة ، وجعل الأردن وراءه وكان صلاح الدين فرحاً بنجاحه هذا ، حتى انه لم يكن فى استطاعته أن يكتم فرحه

---

(٥٩٧) نفس المصدر ج ٣ ص ٧٣٧ وأطلق عليهم رنسيمان اسم « الخونة » .

(٥٩٨) الناصر صلاح الدين ص ١٤٣ .

(٥٩٩) قرية بين عكا وطبرية بالشام بها قبر شعيب وابنته صفوراء .
المشترك وضعا ص ١٣٨ .
وانظر معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤
وكذلك Ency de L'Isl, (art Hattîn au Hittin) T 2 P, 308

(٦٠٠) ولم يشترك بوهيمند الثالث كما أشرنا من قبل .

(٦٠١) رنسيمان ج ٣ ص ٧٣٨ .

وسروره بنجاح تدبيره الذى أتاح له الفرصة التى ينشدها [٦٠٢].

ولم يغفل صلاح الدين رفع روح جنوده المعنوية وفى نفس الوقت التأثير على روح أعدائه المعنوية ، وكان من ذلك أن المسلمين باتوا ليلتهم التى أعقبها الهجوم فى الصباح . وهم فى تهليل وتكبير يزيدهم قوة وإيمانا ويبعث صداه الرعب فى قلوب أعدائهم .

وحتى يزيد المسلمون فى متاعب جيش أعدائهم أشعلوا النيران فى الأعشاب والشجيرات الجافة التى تغطى تل حطين فغشى المعسكر المسيحى الدخان الساخن [٦٠٣] حتى كادوا يصابون بالجنون لما أصيبوا به من الحرارة والدخان والعطش جميعاً [٦٠٤].

وحرّك صلاح الدين قواته فى جنح الظلام ، ونجح فى تطويق جيش الملك جى لوزجنان حيث « أحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها [٦٠٥] حتى لم يكن « بوسع أحد قط أن يفلت من الشبكة المنصوبة [٦٠٦] » .

وكان بدء الهجوم الإسلامى صباح يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ / ٤ يوليو ١١٨٧م والمسلمون يصيحون « الله أكبر »، وصلاح الدين على رأسهم يحرضهم على القتال ، ورغم محاولة الفرنج التماسك فإن قواتهم بدأت فى الانهيار بعد أن أضعفهم الظمأ الشديد ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على صليب الصلبوت منهم فكان لهذا وقعه الأليم عليهم فقد « أيقنوا بعده بالقتل والهلاك [٦٠٧] » .

---

(٦٠٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٧٣٨ .

(٦٠٣) الكامل ج ٩ ص ٧٧ ورنسيمان ج ٣ ص ٧٣٨ .

(٦٠٤) Kerr, The crusades, P. 49.

(٦٠٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ . King, The Knights Hospitallers, PP, 125- 126.

(٦٠٦) رنسيمان ج ٣ ص ٧٣٩ .

(٦٠٧) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ وانظر Kerr, The crusades P. 49

وقد هرب ريموند فى أوائل الأمر قبل اشتداده [٦٠٨]، ووصل إلى طرابلس حيث لم يلبث قليلاً ومات « غيظاً وحنقاً مما جرى على الفرنج خاصة ، وعلى دين النصرانية عامة [٦٠٩] »

وقد تمكن المسلمون من إسقاط خيمة جى لوزجنان ، وماإن سقطت خيمته حتى أسرع الفرنج جميعاً بالتسليم ووقع ملوكهم وأمراؤهم أسرى فى يدى صلاح الدين وكان ممن أسر « الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك [٦١٠] » وكان عدد القتلى كثيراً كما كان عدد الأسرى كثيراً « فكان من يرى القتلى لايظن أنهم أسروا أحداً ، ومن يرى الأسرى لايظن أنهم قتلوا أحداً ، ولم يصب الفرنج منذ خرجوا إلى الساحل أى سنة ٤٩١هـ بمثل هذه الوقعة [٦١١] .

وقال ابن الأثير الذى مر بمكان المعركة بعد سنة « ولقد اجتزت بموقع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الأرض ملأى من عظامهم تبين على البعد منها : المجتمع بعضه على بعض ومنها المفترق ، هذا سوى ما جحفته السيول ، وأخذته السباع فى تلك الآكام والوهاد [٦١٢] » .

واستقبل صلاح الدين - بعد تمام نصره - الأسرى وفيهم جى لوزجنان ورينالد شاتيون أمير الكرك والشوبك [٦١٣]، فسقى الملك ماءً

---

(٦٠٨) النوادر السلطانية ص ١٢٢ وتتمة المختصر ج ٢ ص ٩٦ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢ .

(٦٠٩) الكامل ج ٩ ص ١٨٩ ، حيث لم يسلم من عشرين ألف فارس وراجل إلا من هرب أو سقط فى الأسر ، كما قتل مقدم الاستبارية وعدد كبير من أجنادهم .

سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٣٧

King, The Rnight hospitallers, P, 120

(٦١٠) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ وانظر Kerr, The crusades, P 49

(٦١١) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ والمختصرة فى أخبار البشر ج ٣ ص ٨٢ .

Brokelman, history of Islamic people, P. 228

Grousset, histoire des croisades, T 2 P. 802

(٦١٢) الكامل ج ٩ ص ١٧٩ .

مثلوجا (٦١٤) حيث كان العطش اشتد به ، وأدار الملك مامعه من الماء الذى بقى على رينالدشاتيون وشرب رينالد ليروى عطشاً برّح به وفى نفس الوقت لينجى نفسه من القتل على يد صلاح الدين ظناً منه أنه طبقاً للتقاليد العربية (٦١٥) فإن صلاح الدين لن يقتله ، وأبى صلاح الدين إلا أن يعامله المعاملة التى يستحقها (٦١٦) وقال : « إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذنى فينال أمانى (٦١٧) » ، ثم إن صلاح الدين وجه الحديث إلى رينالدشاتيون موبخاً إياه ، ومعدّدا عليه ما ارتكبه من حماقات ، وعرض عليه الاسلام فأبى وعندئذ قال له صلاح الدين « هاأنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام » وقام إليه وأطاح رقبته بنفسه وقال : « كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدراً (٦١٨) ، وخشى الملك أن تكون الكَرّة عليه ، فهدأ صلاح الدين من روعه ، وعامله معاملة كريمة ، كذلك فتك صلاح الدين بفرسان الداوية والاستبارية الذين كانوا يمثلون التعصب الصليبى (٦١٩) ، وقد خصهم بالقتل « لأنهم أشد شوكة من جميع الفرنج ، فأراح الناس من شرهم (٦٢٠) » .

---

(٦١٤) وكان صنع الثلج معروفاً منذ المصريين ، وكانوا يأخذونه معهم فى قيظ مكة وفى الحروب .
الناصر صلاح الدين ص ١٤٥

(٦١٥) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ ، « وكان على عادة جميل العرب ، وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمن بذلك جرياً على مكارم الأخلاق »
النوادر السلطانية ص ١٢٤

(٦١٦) سوريا ولبنان وفلسطين ص ٢٣٧ وقرة جلبى ص ٢٤٥ .

(٦١٧) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ .

(٦١٨) الكامل ج ٩ ص ١٧٨ ورنسيمان ج ٢ ص ٧٤٠ والسلوك ج ١ ق ٢ ص ١١٩ .

(٦١٩) الناصر صلاح الدين ص ١٤٥ .
Kerr, The crusades, P. 49

(٦٢٠) الكامل ج ٩ ص ١٧٩ ، ويتعجب ستيفنسون من موقف صلاح الدين لهؤلاء

وسير صلاح الدين بباقى الأسرى إلى دمشق حيث أودعوا فى سجونها ، ومعهم صليب الصلبوت منكّسا ، وقد أطلق فيها بعد سراح كبرائهم بعد أن افتدوا أنفسهم بأموال قرروها وبتسليم قلاعهم وتعهدوا بعد الإفراج عنهم بعدم قتاله ، كما باع بعضهم هواناً لهم (٦٢١) .

وبعد هذا النصر الكبير عاد صلاح الدين إلى طبرية ليستولى على قلعتها فراسلته زوجة ريموند الثالث تطلب منه الأمان لها ولأولادها ولأصحابها ، فعفا عنها ، وسيرها من حصنها بالأمان ، ومعها رجالها ومالها ونساؤها إلى طرابلس (٦٢٢) .

وقد سرت موجة عارمة من الفرح فى نفوس المسلمين لهذا النصر المبين فى حطين فقد « بات الناس فى تلك الليلة على أتم سرور ، وأكمل حبور ، ترفع أصواتهم بالحمد لله ، والشكر له ، والتكبير والتهليل حتى طلع صبح يوم الأحد (٦٢٣) » .

وأطلق المؤرخون الإسلاميون عليها : وقعة حطين المباركة على المؤمنين (٦٢٤) ، وتغنى الشعراء ، وهم يعبرون عما فى نفوس الناس (٦٢٥) .

---

(٦٢١) وكان ممن أفرج عنهم الأمير باليان الثانى دى إبلين الذى تزوج الملكة ماريا كومنين أرملة عمورى الأول .
الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١٢ .

(٦٢٢) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨١٢ وانظر الروضتين ج ٢ ص ٧٩ و Kerr, The crusades, P. 48 .

(٦٢٣) النوادر السلطانية ص ١٢٥ .

(٦٢٤) نفس المصدر ص ١١٩ والنجوم الزاهرة ٦ ص ٣١ .

(٦٢٥) قال ابن الساعاتى قصيدة أولها :-

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرت عيون المؤمنينا
النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٤

وقال العماد :

حطت على حطين قدر ملوكهم ولم تبق من أجناس كفرهم جنس

وكان لهذا النصر الكبير فى حطين مابعده حيث كان له أثره الكبير فى فتح الطريق إلى بقية الممتلكات الفرنجية ، وكان سببا لفتح بلاد الساحل (٦٢٦)وكان بدء صلاح الدين بالمدن الساحلية لأنه كان يرمى من وراء ذلك إلى هدفين :

أولهما : حصر الفرنج فى بلاد الشام ، وحرمانهم من الاتصال بغرب أوربا . **وثانيهما** : تحقيق الاتصال السريع بين شطرى دولته فى مصر والشام (٦٢٧) .

وقد نجح صلاح الدين فى الاستيلاء على عكا وغزة وحيفا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغيرها من الثغور الساحلية ، كما استولى على بعض الأماكن القريبة من القدس مثل الرملة والخليل وبيت لحم ونابلس (٦٢٨)، وتأهب بعد ذلك على رأس عساكر مصر لحصار القدس (٦٢٩) .

وقال فى وصف مافعل بأسرى الفرنج وقتل رينالد :

بايوم حطين والأبطال عابسة ... وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيها عظيم الكفر مختصراً ... معفراً خده والأنف قد تعسا
ياطهر سيف برى رأس البرنس فقد ... أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص إذطار ذاك الرأس فى دمه ... كأنه ضفدع فى الماء قد غطسا

الكيلانى ص ٣٠

(٦٢٦) معجم البلدان ج ٢ ص ٢٧٤ وسوريا ولبنان وفلسطين .
وانظر Saunders , A history of Medieval Islam, P 165

(٦٢٧) تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٨٠ و Stevenson, The cruseders in the East, P 249

(٦٢٨) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٧٢ وقرة جلبى ص ٢٤٥ وانظر Brokelman, history of Islamic People, P 228

(٦٢٩) وهذا يدل على أن صلاح الدين أصبح يعتمد على العسكر المصرى فى المعارك الحاسمة .
الناصر صلاح الدين

فتح بيت المقدس :-

تقدّم صلاح الدين إلى بيت المقدس لتخليصه من الفرنج (٦٣٠) ، فرأى على سوره من الرجال ما هاله ، وكان من به صمموا على الدفاع عنه ، وكلهم « يرى الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس ، ويأخذوه منهم ، ويرى أن بذل نفسه أيسر عليهم من أن يملك المسلمون البيت المقدس ، ويأخذوه منهم ، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض مايجب عليه من حفظه (٦٣١)» ، وقد حصنوا المدينة ماوسعهم التحصين ، ونصبوا المنجنيفات لتحول دون دخول المسلمين ، وتمكنت حامية المدينة فعلاً من قتل بعض جنود صلاح الدين الذين خرجوا ليكونوا يزكاً (٦٣٢) .

ولكن صلاح الدين الذى كان مصمماً على تخليص بيت المقدس ظل خمسة أيام يمر على سور المدينة يبحث عن أضعف الأماكن فيه ، ليهاجمها منه ، ووجد ذلك فى الجهة الشمالية نحو عمود أو كنيسة صهيون (٦٣٣)، وتمكن فى الليل من نصب منجنيقاته حيث بدأ يصب حممها على المدينة فى الصباح ، ودارت معركة رهيبة بين الطرفين ، وحارب الفرنج بكل قوتهم ،

---

(٦٣٠) وكان فتح بيت المقدس أملاً إسلامياً ، حتى كان الشعراء يحرضون صلاح الدين على فتحه فقال العماد :

فسر . وافتح القدس واسفك به ... دماء ماتجريها بنظف
واهد إلى الاسبتار البتار ... ر ، وهد السقوف على الأسقف

كيلانى ص ٣٠٥

ومن أطرف التحريض ماقاله أحد الشعراء على لسان بيت المقدس :

ياأيها الملك الذى ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفى منجس

نفس المصدر ص ٣٠٥

(٦٣١) الكامل ج ٩ ص ١٨٢ .

(٦٣٢) اليزك : والجمع أيزاك ومعناها الطلائع . التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ص ٣٦٤ .

(٦٣٣) مختصر تاريخ ابن العبرى ص ٢٢٠ .

وقاتل المسلمون أشد قتال ، ووصف ابن الأثير ذلك بقوله « فأصبح « صلاح الدين » من الغد قد فرغ من نصبها ، ورمى بها ، ونصب الفرنج على سور البلد منجنيقات ، ورموا بها ، وقوتلوا أشد قتال رآه أحد من الناس ، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا وحتما واجباً ، فلايحتاج فيه إلى باعث سلطانى (٦٣٤) » ، وتمكن رجال صلاح الدين من نقب السور ، وزاد قتال المسلمين ، وتحكموا فى رمى منجنيقاتهم على الفرنج ، حتى أدرك هؤلاء ألا مفر أمامهم من طلب الأمان من صلاح الدين ، وسعى فى ذلك كبراؤهم ، حتى أجابهم صلاح الدين بعد طول رجاء ، على أن يدفعوا عن الرجل عشرة دنانير ، يستوى فى ذلك الغنى والفقير ، وعن الطفل دينارين وعن المرأة خمسة دنانير ، وأن يتم ذلك فى بحر أربعين يوما ، فإذا انقضت المدة ، فكل من لم يدفع يصبح مملوكاً للمسلمين (٦٣٥) .

ورتب الصلح على هذا الأساس ، وسلمت المدينة إلى صلاح الدين يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ /١١٨٧م (٦٣٦)، وكان يوماً مشهوداً ، ورفعت الاعلام الاسلامية على الأسوار (٦٣٧) .

وقد خطب القاضى محيى الدين بن زكى الدين فى أول جمعة صليت بالقدس بعد الفتح ، وكان هو الذى قال للسلطان يوم فتح حلب :

وفتحه حلبـا بالسيف فى صفـر مبشر بفتح القدس فى رجب (٦٣٨)

وهكذا عاد بيت المقدس إلى أحضان المسلمين على يد صلاح الدين الأيوبى ودوّى صوت المؤذن فى المسجد الأقصى وسكت ناقوس

(٦٣٤) الكامل ج ٩ ص ١٨٢ .

(٦٣٥) الفتح القسى ص ٥٣ والنوادر السلطانية ص ١٢٩ وانظر مختصر تاريخ ابن العبرى ص ٢٢١ .

(٦٣٦) Ency. de L'Isl, (art al- Kuds) T. 2, 1165- 6

(٦٣٧) الكامل ج ٩ ص ١٨٣ و Brokelman, history of Islamic people, P. 229 وقرة جلبى ص ٢٤٥

(٦٣٨) انظر الخطبة فى ملاحق هذا الكتاب

المسيحين (٦٣٩)، وقد تم تحرير بيت المقدس على أيدى العسكر المصرى وهذا من شأنه أن يكون أمراً « تفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار (٦٤٠) » .

وقد رتب صلاح الدين على كل باب من أبواب مدينة القدس أميناً يجمع الجزية التى قدرها على الناس ، وكان يمكن لهذه الأموال لو جمعت أن تكون ثروة عظيمة ، حيث كان أهل بيت المقدس « على الضبط ٦٠ ألف رجل مابين فارس وراجل سوى من يتبعهم من النساء والولدان (٦٤١) » غير أن هؤلاء الأمناء المرتبين استعملوا الخيانة ، ولم يؤدوا فيه الأمانه ، واقتسم الأمناء الأموال ، وتفرقت أيدى سبا ، « ولو أديت فيه الأمانة لملأ الخزائن وعم الناس (٦٤٢) » .

وقد اختلف سلوك المسلمين حيال الفرنج ، فقد اختلف تمام الاختلاف عن سلوك الفرنج عندما دخلوا تلك المدينة منذ ثمانى وثمانين سنة مما استوجب شهادة المؤرخين الأجانب بذلك ، فقال رنسيمان : « الواقع أن المسلمين الظافرين اشتهروا بالاستقامة والانسانية ، فبينما كان الفرنج منذ ثمانى وثمانين سنة يخوضون دماء ضحاياهم ، لم تتعرض الآن دار من الدور للنهب ، ولم يحل بأحد من الاشخاص مكروه ، إذ صار رجال الشرطة ، بناء على أوامر صلاح الدين يطوفون بالشوارع والأبواب يمنعون كل اعتداء يقع على المسيحين (٦٤٣) » .

أما ابن الأثير ـ وكان ممن لايميل إلى صلاح الدين ـ فقال : « وهذه المكرمة من فتح بيت المقدس لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب رضى الله

(٦٣٩) موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٥ ص ٦١٨ .

(٦٤٠) الفتح القسى ص ٣٩ .

(٦٤١) الكامل ج ٩ ص ١٨٣ ودول الاسلام ج٢ ص ٩٥ وقدرهم العماد بمائة ألف . الفتح القسى ص ٤٣ .

(٦٤٢) نفس المصدر ج ٦ ص ١٨٣ وتتمة المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٩٧ .

(٦٤٣) [illegible]

عنه ، غير صلاح الدين رحمه الله ، وكفاه ذلك فخراً وشرفاً (٦٤٤)» .

وكانت رنة الفرح التى سادت المسلمين بعودة بيت المقدس تفوق كل خيال ، أطلقت العنان للشعراء المسلمين ليعبروا عن احساس الشعب لاسلامى بهذا الفتح المبين (٦٤٥) .

قد قال صلاح الدين بعد استسلام القدس : « ومتى يسر الله فتح بقية لساحل قسمت البلاد وأوصيت ، وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم ، وأتبعتهم فيه حتى لاأبقى على وجه الأرض من يكفر بالله و أموت (٦٤٦)» .

ستسلام حصنى الشوبك والكرك :-

كانت السيدة ستيفانى سيدة إقطاع ماوراء نهر الأردن إحدى أسيرات

٦٤٤) الكامل ج ٩ ص ١٨٦ .

٦٤٥) مصر والشام والصليبيون ص ١٥٤ .

٦٤٦) وقد ذكر فتح صلاح الدين القدسى الشعراء بعمر بن الخطاب فمن ذلك قول ابن ساعاتى :

ليت فتى الخطاب شاهد فتحها ... فيشهد أن السيف من يوسف أضحى

الكيلانى ص ٣٩٥

وقال فى نفس المعنى يمدح صلاح الدين :

و الفاتح البيت المقدس بعدما ... تحامته سادات الدنا وأسودها

فضيلة فتح كان ثانى خليفة ... من القوم مبديها وأنت معيدها

نفس المصدر ص ٣٩٦

وللنسابة الجوانى قصيدة مليحة يقول فيها :

أترى مناماً ما بعينى أبصر ... القدس تفتح والنصارى تكسر

قد جاء نصر الله والفتح الذى ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

دول الاسلام ج ٢ ص ٩٥

وقال العماد لصلاح الدين :

فلايستحق القدس غيرك فى الورى ... فأنت الذى من دونهم فتح القدسا

وطهرته من رجسه بدمائهم ... فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا

وقد شاع فى الآفاق عنك بشارة ... بأن أذان القدس قد بطل النفسا

صلاح الدين ، وتم فداؤها فى بيت المقدس ، كما وافق صلاح الدين كذلك أن يفرج عن ابنها همفرى صاحب تبنين على شريطة أن يستسلم له حصناها الكبيران « الشوبك والكرك » ، ولكن حامية الحصنين رفضا الانصياع لأوامرها ، مما دفع بها الى أن تعيد ابنها إلى أسر صلاح الدين ، فقابل صلاح الدين تصرفها الحميد بأن أطلق سراح همفرى لها .

وفى تلك الأثناء وصل الملك العادل أخو صلاح الدين ، وحاصر حصن الكرك مايزيد عن سنة (٦٤٧)، وعرّض أهلها للهلاك جوعاً حتى أذعنوا بالاستسلام بعد أن أكلوا آخر حصان تبقى لديهم (٦٤٨) ، وبعد أن لم يعد لديهم للصبر مجال (٦٤٩)وكان استسلامهم فى سنة ٥٨٤ هـ / آخر سنة ١١٨٨ م ، وكذلك استسلمت حامية الشوبك بعد تسليم الكرك بعدة شهور (٦٥٠)، وكان هذا فتحاً حليلاً بالنظر إلى قيمة هذين الحصنين وخطورتهما ، وبذلك « فرغ القلب من تلك الناحية ، وألقى الاسلام هناك جرانه ، وأمنت قلوب فى ذلك الصقع من البلاد كالقدس وغيره فإنهم كانوا ممن بتلك الحصون وجلين ، ومن شرهم مشفقين (٦٥١)» .

صور :-

كانت صور مركز استقبال للفرنج الذين سلموا مواقعهم حيث طلبوا الهجرة إليها بأسلحتهم ، ووافق صلاح الدين على ذلك ، أما كونراد دى مونتفرات Conrad de Montefrat الملقب بالمركيس (٦٥٢) الذى وصلها قادماً

(٦٤٧) رنسيمان ج ٢ ص ٧٥٧ .

(٦٤٨) نفس المصدر ج ٢ ص ٧٥٧ .

(٦٤٩) مفرج الكروب ج ٢ ص ٢٧١ وفيها أصاب الكرك فى هذه الحرب قال ابن سناء الملك :

هل الكرك الشكل بأولادها انتهت ... عن النسل مما جرعته من الثكل

المرقى ص ٣٧٥

(٦٥٠) وهكذا استسلم الحصنان بعد وفاة نور الدين بنحو ١٤ عاماً كاملاً .

مصر والشام والصليبيون ص ١٣٤

(٦٥١) الكامل ج ٩ ص ١٩٦ والروضتين ج ٢ ص ٩٦ .

(٦٥٢) الكامل ج ٩ ص ١٨١ وهو شقيق أول زوج للملكة سبيلا - رنسيمان ج ٢ ص ٧٦٢ .

من القسطنطينية (٦٥٣) فوجدها لقمة سائغة بعد فرار ريموند الثالث إلى طرابلس ، ولم يكن مونتفرات يعلم بما حل بالفرنج من المصائب فى الشام ، وكاد يؤسر فى عكا على يد المسلمين ؛ ولقى كونراددى مونتفرات الترحيب فى صور على أنه منقذ المدينة (٦٥٤) التى كان صلاح الدين ترك حصارها حتى « يفرغ باله مما يجاورها من نواحيها ليسهل أخذها » وذلك نظراً لقوة حصانتها « فكان ذلك سبب حفظها (٦٥٥) » .

وأصبح مونتفرات ملكاً على صور ، وأخذ يعمل على تحصينها بحفر خندق عميق حولها وعمل أسوارا جديدة ، حتى صارت صور معقلاً منيعاً نتج يصعب اقتحامه (٦٥٦) .

وقد أرسل جوسياس Jo-sias رئيس أسافقه صور إلى غرب أوربا يطلب النجدة من البابوية وملوك غرب أوربا (٦٥٧) .

وقد أخفق صلاح الدين فعلاً فى استرجاع صور مرة بعد خطين وأخرى بعد تحرير بيت المقدس نتيجة للجوء الفرنج المهزومين من قلاعهم إليها (٦٥٨) وزعامة كونراد دى مونتفرات : ويلقى ابن الأثير المسئولية على صلاح الدين فى ذلك حيث يقول : « ولم يكن لأحد ذنب فى أهلها غير صلاح الدين : فإنه جهز إليها جنود الفرنج وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال

(٦٥٣) وكان مقيماً فيها غير أنه تورط فى جريمة قتل وقع بها ، فهرب سراً متوجهاً إلى فلسطين ، ج أولا على عكا التى كانت سقطت فى يد صلاح الدين ، ولم يكن يعلم بذلك ، فبادر بالمسارعة إلى صور .
رنسيمان ج ٢ ص ٧٦٣

(٦٥٤) رنسيمان ج ٢ ص ٧٦٣ .

(٦٥٥) الكامل ج ٩ ص ١٨١ و Kerr, The crusades, P. 49

(٦٥٦) Grousset, histoire des croisades, T. 2 PP. 822- 823

(٦٥٧) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٤٢ .

(٦٥٨) الفتح القسى ص ٥٧ .

غيرهم فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم فأجابوهم بالتلبية لدعوتهم ، ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم التى يحتمون بها ويلجئون إليها فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها (٦٥٩) ثم يقول موجها اللوم إلى صلاح الدين : ليعلم أن الملك لاينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرطاً مضيعاً للحزم ، وأعذر له عند الناس (٦٦٠) » ، ويفهم من هذا أن ابن الأثير كان يرى أن التسامح والعفو ـ وهما خصلتان تميز بها صلاح الدين فى حروبه مع الفرنج ـ كانا خطأ من صلاح الدين ، فى تعامله معهم ، ولو أنه اتخذ معهم سياسة أكثر عنفاً ماوجدت مشكلة صور ويوافقه فى ذلك لين بول أحد مؤرخى الغرب ـ ضمناً ـ بحديثه عن هزيمة صور بالنسبة لصلاح الدين حيث يقول : « كانت هزيمة صور نقطة تحول فى تاريخ انتصارات صلاح الدين . لقد كانت هزيمة ساحقة وغلطة يصعب علاجها ، إذ أصبحت صور بعدها نقطة تجمع فيها الصليبيون وانتشروا منها فى سواحل فلسطين . ولولم تكن هذه المدينة الواحدة قد نجحت فى مقاومتها لكان من المحتمل ألا يسمع العالم أبداً بالحرب الصليبية الثالثة (٦٦١) » .

ولعله يشفع لصلاح الدين أنه كان يرمى من وراء السماح للفرنج بالتجمع فى مدينة صور أن يتمكن من مواجهة جنود الأعداء مجتمعين فى مكان واحد بدلاً من توزعهم وتشتتهم فى أماكن عديدة ولكنه كان يمكنه ألا يسمح لهؤلاء أن يهاجروا إلى صور بأسلحتهم إذا كان تجريدهم من أسلحتهم أمراً يتفق مع العفو عنهم وهم مهزومون (٦٦٢) .

كذلك يشفع له أنه استولى على العديد من مدن الساحل مما كان يصلح

(٦٥٩) الكامل ج ٩ ص ١٨٧ .

(٦٦٠) الكامل ج ٩ ص ١٨٧ .

(٦٦١) مصر والشام والصليبيون ص ١٥٤

محاطاً لجنود صليبيين يقدمون من البحر ، دون الوقوف عند صور التى قد يستلزم حصارها وقتاً طويلاً يكفى لوصول الحملة الصليبية الجديدة التى كان تحركها أمراً محتوماً ، ونزول قواتها فى أماكن مستعدة للترحيب بها فى عكا ويافا وحيفا وأرسوف وغيرها من المواقع الممتدة على الساحل الشمالى مما يتسبب فى تمزيق جيوش المسلمين ، وإصابتها بضربة قاصمة (٦٦٣) .

وعلى أية حال فإنه لم يبق من مملكة بيت المقدس الصليبية سوى مدينة صور التى لم يتمكن صلاح الدين من استرجاعها لحصانتها ، ولتمركز الفرنج المهاجرين من المواقع التى هزموا فيها إليها (٦٦٤)، ولم يكن للفرنج فى شمال المملكة سوى أنطاكية وطرابلس وحصن المرقب التابع للاسبتارية ، وبذلك اعتدل ميزان القوى فى المنطقة لصالح العرب (٦٦٥) وفى ذلك يقول باركر : « ارتدت عقارب الساعة الى الوراء ، وعادت الأمور من جديد إلى ماكانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى (٦٦٦)» .

وقد ازداد حال الفرنج سوءاً حيث بدءوا يعتقدون أن السماء توليهم ظهرها غير راضية لمسلك المسيحيين تجاه المسلمين ، وذلك « بسبب المصائب التى سمح الرب بتواليها على رءوسهم ، وإلا فكيف لصلاح الدين أن يسترد منهم فى ضربة واحدة تقريباً الأراضى التى اكتسبها المسيحيون بكثير من الدماء والتضحية (٦٦٧)» .

(٦٦٣) مصر والشام والصليبيون ص ١٥١ .

(٦٦٤) Stevenson, The crusaders in The East, PP. 224- 225

(٦٦٥) الوحدة وحركات اليقظة / جوزيف نسيم ص ٢٩ .

(٦٦٦) الحروب الصليبية . باركر ص ١٠٦ .

(٦٦٧) وكيف سَمَح (فيما بعد) بغرق فردريك فى مياه نهر صحاة عندما ذهب ليمدّ يد المعونة .

رد الفعل الأوربى
أو : الحملة الصليبية الثالثة

وقد تمثل رد الفعل الغربى الأوربى الذى أصيب بالذعر لفقد بيت (٦٦٨)المقدس ، ومالاه من احتلال كثير من القلاع مثل : اللازقية ، وجبلة ، والكرك والشوبك ، وصفد ، وكوكب ، وانطرسوس ، تمثل رد الفعل هذا فى حملة صليبية جديدة هى الحملة الثالثة ، تلك الحملة التى كان كونراد دى مونتفرات من المحرضين عليها بعد أن تمكن من صور وذاد عنها بشجاعة أحبطت جهود صلاح الدين للاستيلاء عليها ، وذلك حيث أرسل إلى الغرب يلتمس النجدة (٦٦٩)، وكان من أقوى الوسائل التى استخدمها فى طلب النجدة لوحة كبيرة بعث بها إلى الغرب ، وجرى الطواف بها فى أوربا وهى تمثل القبر المقدس وقد لوثته خيول المسلمين (٦٧٠)أو صورة لرجل عربى يضرب المسيح ، والدماء تسيل على صورة المسيح وقالوا لهم : هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين (٦٧١)، وتولى أمر التبشير بالحملة الصليبية البابا جريجورى الثامن الذى أرسل خطاباً دورياً يحث فيه الغربيين على التطوع فى حملة صليبية جديدة لانقاذ إخوانهم فى الشام (٦٧٢)، وتوفى جريجورى الثامن دون أن

(٦٦٨) Saunders, a history of Medieval Islam, P 156

(٦٦٩) Michaud, histoire des croisades. T. 2, PP, 314- 315
Kerr, The Crusades, P. 51.

(٦٧٠) الحروب الصليبية / باركر ص ١٠٩ .

(٦٧١) الكامل ج ٩ ص ٢٠١ والعلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٧٣ .

(٦٧٢) روما وبيزنطة ص ٢٨٢ وانظر نص الخطاب فى
Documents of Medieval history PP. 64- 67
وكان البابا اربان الثانى قد مات من هول الصدمة عندما علم بسقوط بيت المقدس .
Kerr, The crusades P. 51

يرى ثمار دعوته لملوك غرب أوربا (٦٧٣)، ليتولى أمر تلك المهمة بعده البابا كليمنت الثالث Clement III الذى أمر أساقفته فى كل مكان أن يبشروا بحرب صليبية جديدة (٦٧٤)، وأمر بإقامة صلوات خاصة فى سائر الكنائس من أجل استعادة بيت المقدس (٦٧٥).

وقد قوبلت الدعوة إلى الحملة الصليبية الثالثة بحماس زائد شبيه بالحماس الذى غمر غرب أوربا أيام التبشير بالحملة الصليبية الأولى (٦٧٦)، وبناء على ذلك فقد اشترك الغرب الأوربى بكل مايملك من إمكانيات فى تلك الحملة، حتى النساء اشتركن فيها وجندن كما يجند الرجال (٦٧٧)، فقد خرج إلى الشرق ملك ألمانيا فردريك برباروسا، كما قصد الشرق كذلك كل من ريتشارد قلب الأسد وفيليب أغسطس ملك فرنسا. وقد فتكت الظروف بالجيش الألمانى الذى كان أضخم جيش مستقل خرج إلى حرب صليبية، حيث بلغ تعداده مائة ألف محارب (٦٧٨)، فقد هلك الامبراطور غريقاً فى مياه نهر السالف فى بلاد أرمينيا (٦٧٩)، ولم يبق من كل جيشه هذا سوى ألف رجل واصلوا سيرهم بقيادة فردريك السوابى ابن ملك ألمانيا (٦٨٠).

وبذلك اقتصرت الحملة على ملكى انجلترا وفرنسا وبينهما ما بينهما من

(٦٧٣) Kerr, The crusades, P 51

(٦٧٤) Ibid, P. 51

(٦٧٥) أوربا وبيزنطة ص ٢٨٧ .

(٦٧٦) روما وبيزنطة ص ٢٨٧ .

(٦٧٧) الكامل ج ص ٢٠١ .

(٦٧٨) Cam. Med. History Vol 5, P 411

Grpusset, histoire des croisades T3, P. 10

Lone- Poole, Saladin, PP. 197- 207

(٦٧٩) أوربا العصور الوسطى / فيشر ص ١٩١

حسد قومى، وآزرهما المدن الايطالية جنوة وبيزة وبينهما دخن وسوء سيرة مضافاً إلى ذلك كونراد دى مونتفرات وجى لوزجنان، وتنافسهما فى سبيل تاج بيت المقدس الذى لم يوجد إلا رمزاً بعد ذهاب مملكة بيت المقدس وأرضها إلى صلاح الدين (٦٨١).

ويضيق الحديث فى هذا الكتاب عن الحديث الكامل عن تلك الحملة الصليبية الثالثة، ويكفى أن نبين نتائج هذه الحملة والتى يمكن أن نلخصها فى ثلاثة أشياء :

١ ـ تمكن الصليبيون الجدد يعاونهم الفرنج المقيمون فى استعادة بعض المواقع التى استولى عليها صلاح الدين من عكا إلى يافا .

٢ ـ تمكن صلاح الدين من إثبات قوة المسلمين فى هذا الدور، وتمكن من حفظ بيت المقدس بعد القيام بتحصينه .

٣ ـ انتهت الحملة الثالثة بتوقيع صلح الرملة فى يوم الثلاثاء ٢١ شعبان سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م (٦٨٢)، وبمقتضى ذلك الصلح :ـ

أ ـ احتفظ كل فريق بما فى يده، فأصبح للفرنج من صور إلى يافا بما فيها قيسارية، وحيفا، وأرسوف، وللمسلمين على الساحل الشمالى صيدا وبيروت وجبيل ومعظم داخلية البلاد وأن تكون الرملة واللد مناصفة بين المسلمين والصليبيين (٦٨٣).

ب ـ تخريب أسوار مدينة عسقلان التى كان ريتشارد قد حصنها، وذلك لتكون منطقة منزوعة السلاح No man's Land .

ج ـ يسمح للمسيحسن بأن يحجوا إلى بيت المقدس فى حرية وأمان دون تدخل من المسلمين .

(٦٨١) أوربا العصور الوسطى / فيشر ص ١٩١ .

(٦٨٢) العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٨٢ وقرة جلبى ص ٢٤٦ وانظر Brokelman, history of Islamic People, P. 229

د - يتولى الملك العادل أخو صلاح الدين - وممثله فى مفاوضات الصلح - حكم مدينة بيت المقدس .

هـ - تكون مدة هذه الهدنة ثلاثة أعوام وثمانية أشهر ، هدنة عامة فى البر والبحر ، والسهل والوعر (٦٨٤) .

وقد شهد رسل الفرنج الذين حضروا مفاوضات الصلح بنكاية صلاح الدين فى العدو فقال أحدهم « ما عمل أحد فى الاسلام ماعملت ، ولاهلك من الفرنج مثل ماهلك منهم هذه المدة ، فإننا أحصينا من خرج الينا من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف ما عاد منهم إلى بلاده من كل عشرة واحد ، بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم غرق (٦٨٥) » .

وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً ، عم فيه الطائفتين الفرح والسرور لما نالهم من طول الحرب (٦٨٦) . وهذه أول مرة تنتهى حملة صليبية إلى صلح أو اتفاق يجمعهما على التعايش وقبول الواقع Modus vivendi (٦٨٧) .

ولاشك أن النجاح كان من نصيب المسلمين وقد عبر عن ذلك لين بول فقال : « قبل انتصار حطين لم يكن فى يد المسلمين بواصة واحدة من أرض فلسطين غربى الأردن ، وبعد صلح الرمله فى سبتمبر سنة ١١٩٢ ، فقد أصبحت جميع الأراضى ملكاً لهم ماعدا جزء ضيق من الساحل بين صور ويافا (٦٨٨) » .

---

(٦٨٤) الكامل ج ٩ ص ٢٢١ والعلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٨٣ ، ١٨٤ وانظر

Kerr, The crusades, P. 58

ويجعل صاحب السلوك وابن الفرات المصرى مدة لهدنة ثلاثة أعوام وثلاثة أشهر .

السلوك ج ١ ق ١ ص ١٧٧ وابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٨٤ .

(٦٨٥) الكامل ج ٩ ص ٢٢٢ .

(٦٨٦) السلوك ج ١ ق ١ ص ١٣٨ والنوادر السلطانية ص ٣٩٠ .

(٦٨٧) العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٨٤ .

أما الحملة الصليبية الثالثة فقد كانت حملة فاشلة ، وكان الصلح نصراً لصلاح الدين « حيث كان إيذاناً بعودة ريتشادر إلى بلاده دون أن يحقق الأمل الذى كاء من أجله إلى الشرق حيث كان الهدف الأساسى للحملة هو استرداد بيت المقدس (٦٨٩) » ، كما كان من أهدافها شل قوة السلطنة المصرية المتصاعدة ، وانتهت الحملة بالفشل وقوة مصر موضع لمهابة عظمى تكاد تبلغ حد الخرافة (٦٩٠) .

ولخص فيشر مبلغ فشل الحملة مقاساً إلى ماحصلت عليه حيث قال أنها لم تأت بشىء يذكر : « ماعدا استيلاء الصليبيين على عكا ، وموافقة صلاح الدين على هدنة تضمن للحجاج المسيحيين حرية الوصول إلى كنيسة القيامة ببيت المقدس » ثم يقول : « ومن هذه النتيجة تتضح شناعة الخاتمة التى حلت بما عقد على تلك الحملة من آمال (٦٩١) » .

ومن الجدير بالذكر أن صلاح الدين وقع على هذا الصلح تحت ضغط الظروف حيث رأى فيه المصلحة لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة ، وقد قال ابن شداد مؤكدا ذلك : « والله العظيم ، إن الصلح لم يكن من إيثاره ، فإنه قال فى بعض محاوراته فى الصلح : أخاف أن أصالح ، وما أدرى أى شىء يكون فيقوى هذا العدو ، وقد بقيت لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ، ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد فى رأس قلعته - يعنى حصنه ، وقال : لاأنزل فيهلك المسلمون » ثم قال : « هذا كلامه ، وكان كما قال ، ولكنه رأى المصلحة فى الصلح لسآمة العسكر وتظاهرهم بالمخالفة (٦٩٢) » .

على أن هذا الصلح كان فعلاً فى مصلحة المسلمين ، حيث لم يلبث

---

(٦٨٩) أوربا العصور الوسطى / ديفيز ص ١٩٧ .

(٦٩٠) أوربا العصور الوسطى / سعيد عاشور ص ١٩٣ .

(٦٩١) أوربا العصور الوسطى / فيشر ص ١٩١ وانظر رنسيمان ج ٣ ص ١٤٥ و

Saunders, a history of Medieval Islam, P. 165

صلاح الدين أن توفى بعد توقيع الصلح فى صفر سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ، وقد عبر ابن شداد عن ذلك حيث قال : « وكان (أى الصلح) مصلحة فى علم الله تعالى ، فإنه اتفقت وفاته بعيد الصلح ، ولو كان اتفق ذلك فى أثناء الوقعات لكان الاسلام على خطر ، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له (٦٩٣) » .

وكانت وفاة صلاح الدين فى الخامسة والخمسين من عمره حدثاً عظيماً وقع بالأمة الاسلامية وكان يوم وفاته « يوماً لم يصب الاسلام بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى » ، ويضيف ابن شداد « وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا ضرب من من التجوز والترخص إلا فى ذلك اليوم ، فإنى علمت من نفسى ومن غيرى أنه لو قبل الفداء لفدى بالنفس (٦٩٤) ، وقد غشى الناس من الحزن والبكاء عليه مالا يمكن حكايته (٦٩٥) ، وعبر الذهبى عما أصيب به أهل دمشق فقال : « لقد غشى أهل دمشق يوم موته من البكاء والعويل والضجيج مالا يعبر عنه ، حتى كأن الدنيا كلها تصيح صوتاً واحداً ، وعظم الأسف واشتد القلق (٦٩٦) » .

وقد أجمع المؤرخون فى الشرق والغرب على عظمة صلاح الدين ، ولعلنا نبدأ بما قاله عنه ابن الأثير ـ وكان لايميل إليه كما عرفنا ـ « وبالجملة فكان نادراً فى عسكره كثير المحاسن والأفعال الجميلة عظيم الجهاد فى الكفار ، وفتوحه تدل على ذلك (٦٩٧) » .

وقال العماد الكاتب : « مات بموت السلطان الرجال ومات لوفاته

(٦٩٣) النوادر السلطانية ص ٣٩١ .

(٦٩٤) النوادر السلطانية ص ٤١٠ .

(٦٩٥) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٨٦ وتتمة المختصر ج ٢ ص ١٠٧ .

(٦٩٦) دول الاسلام ج ٢ ص ١٠٤ .

(٦٩٧) الكامل ج ٩ ص ٢٢٦ .

الافضال ، وغاصت الأيادى ، وفاضت الأعادى ، وانقطعت الأرزاق ، وادلهمت الآفاق ، وفجع الزمان بواحده وسلطانه ورزىء الإسلام بمشيد أركانه (٦٩٨) .

وقال الذهبى « مات السلطان الكبير المجاهد فى سبيل الله الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب (٦٩٩) » .

وعرف المؤرخون المحدثون قيمة صلاح الدين يستوى فى ذلك الغربيون والشرقيون ، فجعل باركر من أسباب فشل الحملة الصليبية الثالثة أنها حاربت جيوشاً « انضوت تحت لواء قائد مثل صلاح الدين (٧٠٠) » .

وقال رنسيمان أن صلاح الدين « أثبت بالدليل القاطع مالدى الشرق من قوة وروح ، ففى وقعة قرون حطين ، وعلى أبواب بيت المقدس ، انتقم صلاح الدين لما حدث فى الحرب الصليبية الأولى من المهانة والإذلال ، وأثبت كيف يحتفل الرجل الشريف بانتصاره (٧٠١) » .

ووصفه سوندرز بأنه « بطل العالم الاسلامى الذى احترم من أعدائه المسيحيين كانموذج للفروسية الشرقية (٧٠٢) .

أما سيديو فقال : « مات صلاح الدين وأعداؤه يعجبون من علو همته ، والمسلمون يأسفون على فقده .

أما ماقاله المؤرخون الاسلاميون المحدثون فكثير فقال أحدهم : « لقد كان قائداً موهوباً تمثلت فى شخصه كل المعانى التى كانت تدور فى نفوس العرب والمسلمين فأبرزها باسم العرب والمسلمين (٧٠٣) .

(٦٩٨) المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٨٧ .

(٦٩٩) دول الاسلام ج ٢ ص ١٠١ .

(٧٠٠) الحروب الصليبية لباركر ص ١١٨ وانظر البحرية الاسلامية ج ١ ص ٢٩٢ .

(٧٠١) رنسيمان ج ٢ ص ٧٦٤ ، ٧٦٥ .

(٧٠٢) Saunders: A history of Medieval Islam, P. 165

(٧٠٣) موسوعة التاريخ الاسلامي ج ٥ ص ٦٢٣ .

وقال غيره : « وقد ترك صلاح الدين فراغاً بموته ، ففقد الاسلام به بطله وناصره ، إذا أنه لو مد عمره أكثر من ذلك لتمكن حتماً من القضاء على دولة الفرنجة فى الشرق (٧٠٤)» وقال أنه « صوره الشرق اللامعة حينما يجد الزعيم الكفء والقائد المخلص ، فينطلق إلى غايته من المجد والقوة ، والعزة والسلطان (٧٠٥)» ، وقال مؤرخ ثالث : « أما مكانة صلاح الدين فى التاريخ فستظل عظيمة أبد الدهر ، إذ يكفى ما قام به فى سبيل توحيد صفوف المسلمين والدفاع عن كيانهم ، ثم مواصلة الجهاد فى صورة لاتعرف الملل لطردة الغزاة الدخلاء (٧٠٦)» .

وقد حظى صلاح الدين الأيوبى بعناية فائقة من الشعراء والأدباء لم يحظَ بها أحد غيره من أبطال الحروب الصليبية على الإطلاق ، وقد رثاه الشعراء بالكثير من المراثى (٧٠٧) .

---

(٧٠٤) العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص ١٨٥ .

(٧٠٥) الناصر صلاح الدين ص ١٩٤ .

(٧٠٦) الحركة الصليبية ج ٢ ص ٩١١ .

(٧٠٧) شهر الجاد فى عصر الحروب الصليبية ص ١٥٨ .
ونكتفى هنا بقول بعضهم :

شمل الهدى والملك عم شتاته … والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذى … لله خالصة صفت نياته

وفيها :

لاتحسبوه شخصاً واحداً … قد عمّ كل العالمين مماته
قد أظلمت مذغاب عنا دوره … لما خلت من بدره داراته
الدين بعد أبى المظفر يوسف … أقوت قراه وأقفرت ساحاته
لو كان فى عصر النبى لأنزلت … فى ذكره من ذكره آياته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت … من سهلها وركوبها عزماته
ياراعيا للدين حين تمكنت … منه الذئاب وأسلمته رعاته
فعل صلاح الدين يوسف دائماً … رضوان رب العرش بل صلواته

وهكذا مات صلاح الدين الأيوبى بعد أن أرسى دعائم دولته فى مصر والشام ، مخلفاً وراءه مملكة واسعة الأطراف تمتد من حدود وتونس إلى جبال أرمينيا (٧٠٨) ، وتاركاً وراءه أبناءه السبعة عشر وإخوته وأبناء إخوته ، فهل ملأوا الفراغ الذى وجد بوفاته ؟

---

(٧٠٨) Saunders, A history of Medieval Islam, P. 165

ملحق رقم ١

« منشور تولية الخليفة العاضد لصلاح الدين وزيراً للديار المصرية »[٧٠٩]

من عبد الله ووليه أبى محمد العاضد لدين الله ، أمير المؤمنين إلى السيد الأجل ، الملك الناصر مصطفى الأئمة ، منجد الأمه ، صلاح الدين ، كافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، أبى المظفر يوسف بن أيوب العاضدى عضدّ الله به الدولة ، وأمتع بطوله بقائه ، أمير المؤمنين . وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين ، يحمد الله الذى لاإلـه إلا هو . يسألـه أن يصلى على جده محمد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الأئمة الطاهرين المهديين وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله مصرف الأقدار ، ومشرف الأقدار ، ومحصى الأعمال والأعمار ، وعالم بسر الليل ، وجهر النهار ، وجاعل دولة أمير المؤمنين ، ملكاً تتعاقب فيه أحوال الأقمار : بين انقضاء وسرار ، واستقبال أبدار ، وروضاً إذا أوت فيه الدوحات أينعت الفروع ، سابقة النور ، باسقة الثمار ، ومنجد دعوته بالفروع الشاهدة بفضل أصولها ، والجواهر المستخرجة من أمضى نصولها ، والقائم بنصرة دولته ، فلاتزال حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، قائمةً على أصولها .

والحمد لله الذى اختار لأمير المؤمنين ودله على مكان الاختيار ، وأغناه باقتضاب الالهام ، عن رواية الاختبار ، وعضد به الدين الذى ارتضاه ، وعضده بمن ارتضاه ، وأنجز له من وعد السعد ماقضاه ، بل اقتضاه ، ورفع محله عن الخلق . فكلهم من مضافٍ إليه غير مضاه ، وجعل مملكته عرينا ، لاعتزازها بالأسد وشبله ، ونعمته ميراثاً ، أولى بها ذوى الأرحام من بنى الولاء وأهله . وأظهر فى هذه القضية ، وأظهره فى كل القضايا من فضله (أمير المؤمنين) وعدله . فأولياؤه كالآيات التى تنسق درارى أفقها المنير ، وتنسق درر عقدها النظيم النضير : « ما ننسخ من آيةٍ أو ننسأها نأت بخيرٍ منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير . السورة ٢ - البقرة - الآية ١٠٦ ك » .

والحمد لله الذى أتم بأمير المؤمنين ، نعمة الإرشاد . وجعله أولى من للخلق ساد ، وللحق رشاد ، وآثره بالمقام الذى لاينبغى إلا له فى عصره . وأظهـر له من معجزات نصره ، مالا يستغل العدد بحصره . وجمع لمن والاه ، بين رفـع قدره ووضع إصره ، وجعل الإمامة محفوظة فى عقبه ، والمعقبـات تحفظ بأمـره ، وأودعه الحكم التى رآه لها أحوط من أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه الفجر الذى جهل من ظن غير نوره مطلعه . وآتاه مالم يؤت أحداً . وأمات به غيًّا ، وأحيا به رشداً ، وأقامه للدين عاضداً ، فأصبح به معتضداً (وحفظ به مقام جده ، وإن رغم المستكبرون ، وأنعم به على أمته إماماً لولاه ماكانوا ينظرون ولايبصرون و « ماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم وماكان الله معذبهم وهم يستغفرون . السورة ٨ - الأنفال - الآية ٣٣) .

يحمده (أمير المؤمنين) على ماآتاه من توفيق يذلل له الصعب الجامح . ويدنى منـه البعيد النـازح . ويخلف على الـدين صلاحـه ، والخلف الصالح ، ويلزم آراءه جدد السعود ، ويريه آيات الإرشاد ، فإنه نار قدح القادح .

ويسأله أن يصلى على (جده) محمد الذى أنجى أهل الإيمان ببعثه ، وطهـر بهديه من رجس الكفر وخبثه ، وأجار بأتباعه من عنف الشيطان وعبثه ، وأوضح جادة التوحيد لكل مشرك الاعتقاد مثلثه .

[٧٠٩] ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٥٧ - ٦٣ وهذا آخر منشور كتب عن الفاطميين ، وانقرض

وعلى (أبينا) أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، الذى جادلت يده بلسان ذى الفقار ، وقسّم ولاءه وعداواته بين الأتقياء والأشقياء ، الجنة والنار ، وعلى الأئمة من ذريتهما ، الذين أذل الله بعزتهم أهل الإلحاد ، وأصفى بما سفكوه من دمائهم ، موارد الرشاد ، وجرّت أيديهم وألسنتهم بأقوات القلوب ، وأرزاق العباد . وسلم ومجد ووالى وجدّد .

وان الله سبحانه ، ما أخلى قط دولة فلان (أمير المؤمنين) التى هى مهبط الهدى ، ومحط الندى ومورد الحياة للولى ، والردى ، للعدا ، من لطف يتلافى الحادثة . ويشبعها ويرأبها ، ونعمة تبلغ بها النفوس مالا تبلغ أربها ، وموهبة تشد موضع الكم ، وتسد موضع الثلم . وتجلى غمائم الغم ، وتحلى مغانم النعم ، وتستوفى شرائط المناجح وتستدنى فوارط المصالح ، ولم يكن ينسى الحادثة فى السيد الأجل ، الملك المنصور ، أسد الدين ، أبى الحارث شيركوه - رضى الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة منقلبه ومثواه - التى كادت لها أواخى الملك تتزعزع ، ومبانى التدبير تتضعضع ، إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين ، العاضد بنور الله من اصطفائها ، أيها السيد الأجل ، الملك الناصر - أدام الله قدرتك - لأن تقوم بخدمته بعده ، وتسد فى تقدمه جيوشه مده ، وتقفو فى ولائه أثره ، ولا تفقد منه إلا أثره ، فوازت الفادحة فيه النعمة فيك . حتى تستوفى حظه منه (أمير المؤمنين) بأجر لايضيع الله عمله ، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له وحمله . واستحق أن ينضر الله وجهه ، بما أخلقه الله من جسمه ، فى مواقف الجهاد ، ويدله ومضى فى ذمام رضا أمير المؤمنين وهو الذمام الذى لايقطع الله منه ماأمره أن يصله ، واتبع بدعائه بتحف أول ما تلقاه بالروح والريحان ، وذخرت له من شفاعته ما عليه معول أهل الإيمان ، فى الأمان . فرعى الله له قطعة البيداء إليه (أمير المؤمنين) وتجشمه الأسفار ، ووطأه الموطىء التى تغيظ الكفار ، وطلوعه على الأبواب ، طلوع أنوار النهار ، وهجرته التى تغيظ الكفار ، وطلوعه على الأبواب ، طلوع أنوار النهار ، وهجرته التى جمعت له أجرين : أجر المهاجرين وأجر الأنصار ، وشكر له

ذلك المسعى الذى بلغ من الشرك الثأر ، وبلغ الاسلام الايثار ، ومالقى ربه حتى تعرض للشهادة ، بين مختلف الصفاح ، ومشتجر الرماح ، ومفترق الأجسام من الأرواح . وكانت مشاهدته لأمير المؤمنين أجراً فوق الشهادة ، ومنة لله تعالى عليه بها ، ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، وحتى رآك أيها السيد الأجل الملك الناصر - أدام الله قدرتك - وقد أقررت ناظره ، وأرغمت مناضره ، وشددت سلطانه ، وسددت مكانه ، ورمى بك فأصاب ، وسقى بك فصاب ، وجمعت مافيه من أبهة المشيب ، إلى مافيك من مضاء الشباب ، ولقنت ما أفادته التجارب جملة ، وأعانتك المحاسن التى هى فيك جلة ، وقلب عليك إسناد الفتكات فتقلبت ، وأوضح لك منهاج البركات فتقلبت ، وسددت سهماً وجردت شهماً ، وانتضاك فارتضاك غربا ، وآثرك على آثر ولده إمامه فى التدبير وحربا ، وكنت فى السلم لسانه الآخذ بمجامع القلوب ، وفى الحرب سنانه النافذ فى مضائق الخطوب ، وساقته إذا طلب ، وطليعته إذا طلب ، وقلب جيشه إذا ثبت ، وجنحه إذا وثب ، ولا عذر لشبل نشأ فى حجر أسد . ولا لهلال استملى النور من شمس واستمد .

هذا ولو لم يكن لك هذا الاسناد فى هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم الفخر وحديث لأغنتك غريزة ، وسجية سجية ، وشيمة وسيمة ، وخلائق فيها ما تحب خلائق ، ونحائز لم يجز مثلها حائز ، ومحاسن ماؤها غير آسن ، ومآثر جد غير عاثر ، ومفاخر غفل عنها الأول ليتأثر بها الآخر ، وبراعة لسان ينسجم قطارها ، وشجاعة جنان تضطرم نارها ، وخلال جلال عليك شواهد أنوارها ، تتوضح ، ومساعى مساعد لديك ، كمائم نورها تتفتح ، فكيف وقد جمعت لك فى المجد ، بين نفس وأب وعم ، ووجب أن سالك من اصطفاء أمير المؤمنين ، ماذا حصل ، ثم على الخلق عم ، فيومك واسطة فى المجد ، بين غدك وأمسك ، وكل

أن أنعمه (أمير المؤمنين) موصولة منكم بوالد وولد ، وأن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت فى بيت الأسد .

ولما رأى الله تقلّب وجه أمير المؤمنين فى سمائه ، ولاه من اختيارك قبله ، وقامت حجته عند الله باستفتائك وزيراً له « ووزرا » للملة ، فناجته مراشد الإلهام ، وأضاءت له مقاصد ، ولاتعقلها كل الأفهام ، وعزم له على أن قلدك تدبير مملكته ، الذى أعرقت فى إرثه ، وأغرقت فى كسبه ، ومهدّ لك أبعد غاية فى الفخر ، بما يسرّ لك من قربه .

ولقد سبق (أمير المؤمنين) إلى اختيارك قبل قول لسانه بضمير قلبه ، وذكر فيك قول ربه « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، السورة ٧ - الأعراف - الآية ٥٨ ك » وقلّدك لأنك سيف من سيوف الله تعالى . يحق به التقلد ، وله التقليد ، واصطفاك على علم بأنك واحد منتظم فى معنى العديد ، وأحيا سلطان جيوشه سنة جده ، « الإمام المستنصر بالله » فى أمير جيوشه الأول ، وأقامك بعده ، كما أقام بعده ولده ، وإنه ليرجو أن تكون أفضل من الأفضل ، وخرج أمره إليك ، بأن يوعز إلى ديوان الانشاء ، ويكتب هذا السجل لك ، بتقليدك وزارته ، التى أحلك ربوتها ، وأحل لك صهوتها ، فتقلد ما قلدك (وزارة أمير المؤمنين) من رتبتها ، التى تناهت فى الأناقة إلا أن لارتبة فوقها ، إلا ما جعله الله للخلافة ، وتبوأ منها صدراً لاتتطلع إليه عيون الصدور ، وأرنو منها فى درجة على مثلها تدور البدور :

« واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور . السورة ٣١ - لقمان - الآية ٣٤ ك » .

وقل « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . السورة ٣٥ - فاطر - الآية ٣٤ ك » .

وباشر مستبشراً ، واستوطن متدبراً ، وابسط يدك ، فقد فوض إليك

وخفضاً ، وأثبت على درجات السعادة ، فقد جعل لحكمك تثبيتاً ودحضاً ، واعقد حبى العزمات للمصالح ، فقط أطلق بأمرك عقداً ونقضاً ، وأنفذ فيما أهلك له ، فقد أدى بك نافلة من السياسة وفرضا وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصرف .

وثقف أود الأيام ، فعليك أمانة التهذيب ، والتثقيف ، واسحب ذيول الفخار ، حيث لاتصل التيجان ، واملأ لحظاً من نور الله تعالى ، حيث تتقى الأبصال لجين الأجفان ، وإن هذا لهو الفضل المبين ، فارتبطه بالتقوى . التى هى عروة النجاة ، وخيره الحياة ، والممات ، وصفوة ما تلقى آدم من ربه من الكلمات ، وخير ما قدمته النفوس لغدها فى أمسها ، وجادلت به يوم تجادل كل نفس عن نفسها ، قال الله سبحانه وتعالى ، ومن أصدق من الله قيلاً : « والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلاً - السورة ٤ النساء - الآية ٧٧ م » .

وأما القضاة والدعاة : فهم بين كفالتك وهديك ، والتصريف على أمرك ونهيك ، فاستعمل منهم ، من أحسن عملاً ، فأما بالعنايات فلا .

والجهاد : فإنك راضع دره وناشئة حجره ، وظهور الخيل مواطنك ، وظلال الجبل مساكنك ، وفى ظلمات مشاكله ، تجلى محاسنك وفى أعقاب نوازله تتلى ميامنك ، فشمر له عن ساق من القنا ، وخض فيه بحراً من الظبا ، واحلل فيه عقدة كلمات الله ، سبحانه ، وثيقات الحبى ، واسل الوهاد بدماء العداء ، وارفع برءوسهم الربا ، حتى يأتى الله بالفتح الذى يرجو أمير المؤمنين ، أن يكون مذخوراً لأيامك ، ومشهود به يوم مقامك ، بين يديه من لسان إمامك .

والأموال : فهى زبدة حلب اللطف ، لا العنف ، وجمة يمتريها الرفق ، لا العسف ، وما برحت أجد ذخائر الدول للصفوف ، وأحد أسلحتها التى تمضى ، وقد تنبو السيوف ، فقدم للبلاد الاستعمار ، تقدم

والرعايا : فهم ودائع الله (لأمير المؤمنين ودائعه لديك) فاقبض عنهم الأيدى ، وابسط بالعدل فيهم يدك ، وكن بهم رءوفاً ، وعليهم عطوفاً ، واجعل الضعيف منهم فى الحق قوياً ، والقوى فى الباطل ضعيفاً ، ووكل برعايتهم ناظر اجتهادك ، واجعل ألسنتهم بالدعاء من سلاحك ، وقلوبهم بالمحبة من أجنادك ، ولوجاز أن يستغنى عن الوصية قائم بأمر ، أو جالس فى صدر لاستغنيت عنها بفطنتك الزكية ، وفطرتك الذكية ، ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك ، وأنت من المؤمنين ، وعرابة بركة فتلك رايتها باليمين .

والله سبحانه وتعالى يؤيدك ، أيها السيد الأجل ، بالنصر العزيز ، ويقضى للدولة على يدك بالفتح الوجيز ، ولأهلها فى نظرك بالأمر الحريز ، يمتع دست الملك بحلى مجدك ، الابريز ، ويقر عيون الأعيان ، بما يظهر لك فى ميدان السعادة ، من السبق والتبريز ، ويمليك من نحلته ، بما ملكك أباه ملك التحويز ، ويلحق بك فى المجد أو لك ، ويحمد فيك العواقب ولك .

فاعلم هذا من أمره (أمير المؤمنين) ورسمه ، واعمل بموجبه وحكمه ان شاء الله والسلام عليك ورحمة الله وبكاته .

وكتب العاضد لدين الله فى طرته بخطه :

وخذ كتاب أمير المؤمنين بيمينك ، ولمن مضى يجدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن أسوة (ولمن بقى بقربنا سلوة) تلك الدار الأخرى نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين . السورة ٢٨ - القصص - الآية ٨٣ ك » .

ملحق رقم ٢
من كتاب فاضلى إلى الملك العادل
بمصر بفتح دمشق على يد صلاح الدين

« وكان رحيلنا من بصرى يوم الأربعاء الرابع العشرين من ربيع الأول وقد توجه صاحبها بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها ، ثم لقينا الأجل ناصر الدين ابن المولى أسد الدين شيركوه رحمة الله عليه وأدام نعمته ، والأمير سعد الدين ابن أنر فى يوم السبت السابع والعشرين . ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب والأجناد الدمشقية إلينا متوافية ، والوجوه على أبوابنا مترامية ، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه ، ومن أعتقد بالقعود أنه نظر لنفسه فى العافية . ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى ، وعرض دون الدخول عدد من الرجال فدعتهم [٧١٠] عساكرنا المنصورة وصدمتهم ، وعرفتهم كيف يكون اللقاء وعلمتهم . ودخلنا البلد واستقرت بنا دار والدنا رحمة الله عليه قريرة عيوننا ، مستقراً سكون الرعية وسكوننا ، وأذعنا فى أرجاء البلد النداء بإطابة النفوس وإزالة المكوس . وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت ، واليد المتعدية قد امتدت إلى أحوالهم وأجحفت ، فشرعنا فى امتثال أمر الشرع بزمعها ، وإعفاء الأمة منها بوضعها » .

---

(٧١٠) الدّعس : الطعن كالتدعس ، والمدعس الرمح يدعس به أى يطعن . ودعث دقق التراب على وجه الأرض بالقدم أو باليد . القاموس المحيط

رسالة من صلاح الدين
إلى الخليفة العباسى المستضىء بالله

« ضمنها القاضى الفاضل كتاباً طويلاً رائعاً فائقاً ، يشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادى من جهاد الأفرنج فى حياة نور الدين ، ثم فتح مصر واليمن ، وبلاد جمة من اطراف المغرب ، وإقامة الخطبة العباسية بها يقول فى أوله للرسول (٧١١) :

فإذا قضى التسليم حق اللقاء ، واستدعى الإخلاص جهد الدعاء ، فَلْيُعِدْ وليعدّ حوادث ماكانت حديثاً يفترى ، وجوارى أمور إن قال فيها كثيراً فأكثر منه ماقد جرى ؛ وليشرح صدراً منها لعله يشرح منا صدراً ، وليوضح الأحوال المستترة فإن الله لايعبد سراً :

ومن الغرائب أن تسير عرائب — فى الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس : أقتل مايكون لها الصدى — والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير ، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير ؛ ونلقى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير ، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعى التصدير ، ولابد أن نسترد بضاعتنا بموقف العدل الذى نُرد به الغُضوب ، ونظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب ، وماكان العائق إلا أننا كنا ننتظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة ، يضاهى ابتداءنا بالخدمة ، وإنجاباً للحق ، يشاكل انجابنا للسبق ، كان أول أمرنا أنا كنا فى الشام نفتتح الفتوح مباشرين بأنفسنا ، ونجاهد الكفار متقدمين لعساكرنا ، نحن ووالدنا وعمنا ، فأى مدينة فتحت ، أو معقل ملك ، أو عسكر للعدو كسر ، أو مصاف للاسلام معه ضرب ولم نكن فيه ، فما يجهل أحد صنعنا ، ولايجحد عدونا أن نصطلى الجمرة ونملك الكرة ، ونتقدم الجماعة ، ونرتب المقاتلة ، وندبر التعبئة ،

إلى أن ظهرت فى الشام الآثار التى لنا أجرها ، ولايضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها » .

وكانت أخبار مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير د وبما دولتها عليه من غلبة صغير كبير ، وأن النظام بها قد فسد ، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل من قام وقعد . والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقاطعهم بأموال كثيرة ، لها مقادير خطيرة ؛ وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة ، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماة فإنها متحاماة . وتلك البدع بها على مايعلم ، وتلك الضلالات فيها على مايفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم ؛ وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم ، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تعبد من دون الله وتعظم وتفخم ؛ فتعالى الله عن شبه العباد ، وويل لمن غرة تقلّب الذين كَفَروُا فى البلاد فسمت همتنا دون همم أهل الأرض إلى أن نستفتح مقفلها ، ونسترجع للإسلام شاددها ، ونعيد على الدين ضالته منها ، فسرنا إليها فى عساكر ضخمة ، وجموع جمة ، وبأموال انتهكت الموجود ، وبلغت منا المجهود ، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا ، وثمن أسارى الفرنج الواقعين فى قبضتنا ؛ فعرضت عوارض منعت ، وتوجهت للمصريين رسل باستنجاد الفرنج قطعت ، ولكل أجل كتاب ، ولكل أمل باب . وكان فى تقدير الله أنا نملكها على الوجه الأحس ، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن ، فغدر الفرنج بالمصريين غدرة فى هدنة عظم خطبها وخبطها ، وعلم أن استئصال كلمة الاسلام محطها ، فكاتبنا المسلمون من مصر فى ذلك الزمان ، كما كاتبنا المسلمون فى الشام فى هذا الأوان ، بأنا لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد ، وإن لم ندفع غريم اليوم لم نمهل إلى الغد فسرنا بالعساكر المجموعة ، والأمراء الأهل المعروفة ، إلى بلاد قد تمهد لنا بها أمران ، وتقرر لنا فى القلوب وداد : الأول ماعلموه من إيثارنا للمذهب الأقوم ، وإحياء الحق الأقدم ، والآخر ما يرجونه من فك أسارهم ، وإمالة عثارهم ،

وضـاقـت به سبله ، وأفـرج عن الـديار بعـد أن كانـت ضياعهـا ورسـاتيقهـا (٧١٢) وبلادها وأقاليمها ، قد نفذت فيها أوامره ، وخفقت عليها صلبانه ، ونصبت بها أوثانه ، وأيس من أن يسترجع ماكان بأيديهم حاصلاً ، وأن يستنقذ ماصار فى ملكهم داخلاً ، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير ، وسوادهم كبير ، وأموالهم واسعة ، وكلمتهم جامعة ، وهم على حرب الإسلام ، أقدر منهم على حرب الكفر ، والحيلة فى السر فيهم أنفذ من العزيمة فى الجهر ؛ وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف ، كلهم أغنام أعجام ، إن هم إلا كالأنعام ، لايعـرفون ربا إلا ساكن قصره ، ولا قبلة إلا مايتوجهون إليه من ركنه ، وامتثال أمره ؛ وبها عسكر من الأرض باقـون على النصرانية ، موضـوعة عنهم الجزية ، كانت لهم شوكة وشكة ، وحمة وحميته ، ولهم حواش لقصورهم من بين داع (٧١٣) تتلطف فى الضـلال مداخله ، وتصيب القلوب مخاتله ، ومن بين كتاب تفعـل أقـلامهم أفعـال الأسل ، وخدام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النحل ، ودولة قد كبر نملها الصغير ، ولم يعرف غيرها الكبير ، ومهابة تمنع خطرات الضمير ، فكيف بخطوات التدبير . هذا إلى استباحة للمحارم ظاهـرة ، وتعـطيل للفرائض على عادة جارية جائرة ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله بالتنزيل ، وكفر سُمّى بغير اسمه ، وشرع يتستـر به ويحكم بغيـر حكمـه . فمازلنـا نسحتهم سحت المبـارد للشفـار ، ونتحيفهم تحيف الليل والنهـار ، بعجـائب تدبيـر لاتحتملهـا المساطيرّ ، وغرائب تقدير لاتحملها الأساطير ، ولطيف توصّل ماكان من حيلة البشر ولا قدرتهم لولا إعانة المقادير وفى أثناء ذلك استنجدوا علينا بالفرنج ، دفعة إلى بلبيس ودفعة إلى دمياط ، وفى كل دفعة منها وصلوا بالعدد المجهر ، والحشد الأوقر ، وخصوصاً فى نوبه دمياط ، فإنهم نزلوها

---

(٧١٢) جمع رستاق : لفظ فارسى معناه القرية أو محلة العسكر أو البلد التجارى ، وتعريبها : الرزداق وجمعها الرذداق والرزاديق .

(٧١٣) يقصد به الداعى إلى المذهب الفاطمى أو الإسماعيلى

بحراً فى ألف مركب ، مقاتل وحامل ، وبرًا فى مائتى ألف فارس وراجل ، وحصروهـا شهـرين يبـاكـرونها ويراوحـونها ، ويمارسونها ويصابحونها ، والقتال الذى يصلبه الصليب ، والقراع الذى ينادى به الموت من كل مكان قريب . ونحن نقاتل العدوين الباطن والظاهر ، ونصابر الضررين المنافق والكـافـر ، حتى أتى الله بأمره ، وأيدنـا بنصره ، وخابت المطامع من المصريين والفـرنـج ، وشرعنـا فى تلك الـطوائف من الأرمن والسـودان والأجنـاد ، فأخـرجناهم من القاهرة ، تارة بالأوامر المرهقة وتارة بالأمور الفاضحة منهم ، وطوراً بالسيوف المجردة ، وبالنار المحرقة ، حتى بقى القصر ومن به من خدم ومن ذرية قد تفـرقت شيعـه ، وتمزقت بدعه ، وخفتت دعوته ، وخفيت ضلالته ، فهناك تم لنا إقامة الكلمة ، والجهر بالخطبة ، والرفع للواء الأسود المعظم ، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه وفنائه ، وبرأنا من عهده يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم إبقائه ، لأنه عوجل لفرط روعته ، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته . ولما خلا درعنا ، ورحب وسعنا ، نظرنا فى الغزوات إلى بلاد الكفار ، فلم تخرج سنة إلا عن سنة أقيمت فيها برا وبحرا ، مركبا وظهراً ، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً ، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً ، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها منذ أخذت من أيديهم ، ولا أوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعـاديهم . فمنهـا ماحكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قلعة بثغر أيلة كان العدو قد بناها فى بحر الهند ، وهو المسلوك فيه إلى الحرمين واليمن ، وغزا ساحل الحرم ، فسباه منه خلقاً ، وخـرق الكفـر فى هذا الجـانب خرقـاً ، فكـادت القبلة أن يستولى على أصلها ، ومشاعر الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل عليه السلام ؛ أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتـطرقـه من لايدين بها جاء به من الاسـلام . فأخذت هذه القلعة وصارت معقلاً للجهاد ، وموئلاً لسفّار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ؛ .

ثم قال : « وكان باليمن ما علم من ابن مهدى الضال الملحد ، المبدع المتمرد ، وله آثار فى الإسلام ، وثأر طالبه النبى عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات ، وباعهن بالثمن البخس ، واستباح منهن كل مالا يقر لمسلم عليه نفس ؛ ودان ببدعة ، ودعا إلى قبر أبيه وسماه كعبة ، وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأباحها ، وأحل الفروج المحرمة وأباحها ، فأنهضنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا نفقات واسعة ، وأسلحة رائعة ؛ وسار فأخذناه ولله الحمد ، وأنجح الله فيه القصد ، والكلمة هنا لك بمشيئة الله إلى الهند سامية ، وإلى ما يفتض الإسلام عذرته متمادية » .

« ولنا فى الغرب أثر أغرب ، وفى أعماله دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب ؛ وذلك أن بنى عبد المؤمن قد اشتهر أن أمرهم قد أمر ، وملكهم قد عُمر ، وجيوشهم لاتطاق ، وأمرهم لايشاق ، ونحن بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر ، وسيرنا إليها عسكراً بعد عسكر ، فرجع بنصر بعد نصر . ومن البلاد المشاهير ، لله الأقاليم الجماهير : برقة (٧١٤)، قفصة (٧١٥)، قسطيلة (٧١٦)، توزر (٧١٧)؛ كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضىء بأمر الله ، أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، ولاعهد للإسلام بإقامتها ، وينفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها » .

« وفى هذه السنة كان عندنا وفد قد شاهده وفود الأمصار ، ورموه بأسماع وأبصار ، مقداره سبعون راكباً ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليداً ، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً ، وقد صدت عنا بحمد الله

---

(٧١٤) يعرفها ياقوت بأنها إقليم ومدينة ، بين الاسكندرية وافريقية .

(٧١٥) فى طرق افريقية من ناحية المغرب .

(٧١٦) أكثر بلاد افريقية إنتاجاً للتمر .

تقاليدها ، وألقيت إلينا مقاليدها ، وسيرنا الخلع والمناشير والألوية ، بما فيها من الأوامر والأقضية . فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد ، والكفار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشداد ، فمنهم صاحب قسطنطينية ، وهو الطاغية الأكبر ، والجالوت الأكفر ، وصاحب المملكة التى أكلت على الدهر وشربت ، وقائم النصرانية الذى حكمت دولته على ممالكها وغلبت ، وجرت لنا معه غزوات بحرية ، ومناقلات ظاهرة وسرية ، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رسله فى جمعة واحدة نوبتين ، بكتابين ، كل واحد منهما يظهر فيه خفض الجناح ، وإلقاء السلاح ، والانتقال من معاداة إلى مهاداة ، ومن مفاضحة إلى مناصحة ، حتى إنه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله التى تردد ذكرها ، وعساكره التى لم يخف أمرها » .

« ومن هؤلاء الكفار هذا صاحب صقلية ، كان حين علم بأن صاحب الشام وصاحب قسطنطينية قد اجتمعا فى نوبة دمياط فغلبا وقسرا ، وهزما وكسرا ، أراد أن يظهر قوته المستقلة ، فعمر أسطولاً استوعب فيه ماله وزمانه ، فله الآن خمس سنين تكثر عدته ، وتنتخب عُدّته ، إلى أن وصل منها فى السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع ، وخطب هائل ، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله ، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله ؛ وماهو إلا إقليم ، بل أقاليم ، نقله ، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله » .

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة ، والبياشنة ، والجنوية (٧١٨)كل هؤلاء تارة يكونون غزاة لاتطاق ضراوة ضرهم ، ولا تطفأ شرارة شرهم ، وتارة يكونون سفاراً يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلوبة ، وتقصر عنهم يد الأحكام المرهوبة ، وما فيهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده ، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده ، وكلهم قد قررت

---

(٧١٨) البنادقة : أهل مدينة البندقية أو فينسيا ، والبياشنه مدينة بيزا ، والجنوية أهل جنوه ، وكلها من المدن الايطالية التى اشتهرت بنشاطها التجارى البحرى ، ومن ثم بنشاطها فى ميدان الحرب

معهم المواصلة ، وانتظمت معهم المسالمة ، على مانريد ويكرهون ، وعلى مانؤثر وهم لايؤثرون » .

« ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورية ، وكنا فى تلك السنة على نية الغزاة ، والعساكر قد تجهزت ، والمضارب قد برزت ، ونزل الفرنج على بانياس ، وأشرفوا على اجتيازها ، ورأوها فرصة مدُّوا يد انتهازها ، استصرخ بصاحبها ، فسرنا مراحل اتصل بالعدو أمرها ، وعوجل بالهدنة الدمشقية التى لولا مسيرنا ما انتظم حكمها » .

« ثم عدنا إلى البلاد وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيفون بها الأطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم ، وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الأعيان الذين خدموا الأطراف لا الصدور ، وجعلوا للقيام لا للقعود فى المجلس المحضور ، قد مدوا الأيدى والأعين والسيوف ، وسارت سيرتهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف وكل واحد يتخذ عند الفرنج يداً ، ويجعلهم لظهره سنداً . وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم فى قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ؛ وكانت الحجة لله قائمة ، وهم القادرين بالقعود آثمة . وإنا لانتمكن بمصر منه مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التى بها على الجهاد القوة ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة وأصلحنا ماقى الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فإنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء فى

والمراد الآن هو كل مايقوى الدولة ، ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، يوفتح بقية البلاد ، وأن يطبق بالاسم العباسى كل مالا تطيقه العهاد ، وهو تقليد جامع بمصر ، واليمن والمغرب ، والشام ، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله تعالى للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا ، ولمن نقيمه من أخ أوولد من بعدنا ، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً وللدعوة تجديداً ، مع ماينعم به من السمات التى فيها الملك . وبالجملة فالشام لاينتظم أموره بمن فيه ، والبيت المقدس ليس له قِرْنٌ يقوم به ويكفيه ، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لايمل الشر حتى يملّوا ، وقرنا لايزال محرم السيف حتى يحلوا . وإذا شد رأينا حسن الرأى ضربنا بسيف يقطع فى غمده ، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويد كل مؤمن تحت برده ، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذى أسرى الله إليه بعبده » .

ملحق رقم ٣

« رسالة عمادية » عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسى بعد نصرة حطين والفتوحات التى تلفتها (٧١٩)»

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون (٧٢٠)» والحمد لله على إنجاز هذا الوعد وعلى نصرة هذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد العسر يسرا ، وأحدث من بعد أمر أمرا ، وهو أن هذا الأمر الذى ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا وخوطب النبى بقوله ولقد مننا عليك مرة أخرى ، فالأولى فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى فى هذه الدولة التى عتق فيها من رق الكتابة والزمان كهيئة قد استدار ، والحق ببهجته قد استنار ، والكفر رد ماعنده من الشعار ، والخادم يشرح فى هذه الفتح العظيم والنصر الكريم فيشرح صدور المؤمنين ويسوء وجوه الكثيرين ويورد من البشرى ما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث العشرين من ربيع الآخر سلخه وتلك سبعة أيام وثمانية أيام حسوماً هدموا فيها نفوساً وجسوماً ، فأصبحوا وقد هووا فى الهاوية كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وأصبحت البلاد إلى الإسلام ضاحكة كما كانت بالكفر باكية ، ففى يوم الخميس الأول فتحت طبرية ، والجمعة والسبت كانت الكسرة التى أبقت منهم بقية لايقوم لهم بعدها قائمة ، أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة . فتحت مكة بالأمان ارم ذات العماد . وصليب الصلبوت عندنا مأسور ، وقلب الكفر الأسير بحبسه المكسور مسكور ، وأيضاً الصليب وأعوانه قد أحاطت بهم يد القبضة وعلق رهنه فلا يقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ،

(٧١٩) مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ (عن رسالة ماجستير العلاقات بين أرناط وصلاح الدين لمحمود رزق) .

(٧٢٠) آية قرآنية

وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها ، وصارت البيع مساجد يعمرها من يؤمن بالله واليوم الآخر وصارت المذابح مواقف لخطب المنابر .

« وعد العماد الأصفهانى الحصون التى فتحت » .

وقال فى آخر الكتاب : « وما يتأخر النهوض إلى البيت المقدس ، وهذا أوان فتحه ، وقد دام عليه ظلام الضلال ، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صحة السلام » .

ملحق رقم ٤
« الرسالة التى كتبها القاضى الفاضل إلى الأمام الناصر لدين الله أبى العباس أحمد بن الامام المستضىء بأمر الله بفتح المقدس [٧٢١]

« أدام الله تعالى أيام الديوان العزيزى النبوى ، ولازال مظفر الجد بكل جاحد ، غنياً بالتوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعى عن اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر والنصل فى جفنه راقد ، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد ، متعدد مساعى الفضل وإن كان لايلقى إلا بشكر واحد ، ماضى حكم العدل بعزم لايمضى إلا بنبل غوىٍ وريش راشد ، لازالت غيوث فضله إلى الأولياء أنواء إلى المراقع وأنواراً إلى المساجد ، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة ، تلو ما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير لصبح هذه العزمة ، والعنوان لكتاب وصف النعمة ، فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل ، ولطف لحمل الشكر فيه عبء ثقيل وبشرى للخواطر فى شرحها مآرب ، ويسرى للأسرار فى إظهارها مسارب ، ولله تعالى فى إعادة شكر رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لايقال معه : هذا مضى . ولقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها ، وقد استتبت عقائد أهله على أبين بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافد المبسوط ، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط وقع المشروط ، وكان الدين غريباً فهو الآن فى وطنه ، والفوز معروضاً فقد بذلت الأنفس فى ثمنه ، وأمر أمرُ الحق وكان مستضعفاً ، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، وأدلجت السيوف إلى الآجال وهى نائمة ، وصدق وعد الله فى إظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها جَنان الجنين ، واسترد المسلمون تراثاً كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة

بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأى طارقاً ، واستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غُلَلهم ، ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفؤها الحجر الأسود بيت عصمتها من الكافر بحربه .

وكان الخادم لايسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولايقاسى تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ، ولايناجز من يستمطله فى حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من يتعادى فى عتبه ، إلا لتكون الكلمة مجموعة فتكون كلمة الله هى العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ، وكانت الألسن ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيراً خاطر ، ومن رام صفقة رابحة جاسر ، ومن سما لأن يجلىّ غمرة غامر ، وإلا فإن القعود يلين تحت نيوب الأعداء المعاجم فيعضها ، ويضعف فى أيديها مهز القوائم فيفضها ، هذا إلى كون القعود لايقضى به فرض الله فى الجهاد ، ولايرعى به حقه فى العباد ، ولايوفى به واجب التقليد الذى يطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء كانوا فى مثل هذا اليوم يسألون ، لا جرم أنهم أورثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطليعتهم المنيفة ، وعنوان صحيفة فضلهم لاعـدم سواد القلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولاغضوا لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ، ومنه مقبولاً ، وخلص إليهم إلى المضاجع مع فاطمأنت به جنوبها ، وإلى الصحائف ما عبقت به جيوبها ، وفاز منها بذكر لايزال الليل به سميرا ، والنهار به بصيراً ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل إن بدا نور من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فإنه نور لاتكنه أغساق السدف ، وذكر لاتوازيه أوراق الصحف .

وطارت فِرَقُهُ فَرَقاً ، وفلّ سيفه فصارعها ، وصدعت حصاته وكانت الأكثر عدداً وحصى ، وكلّت حملاته وكان قدراً يضرب فيه العنان بالعنان ، وعقوبة من الله ليس لصاحب يديها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كثيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظة تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أوراعفة بالمنون ، وأصبحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب الفرد الواحد وكان عندهم الثالث ، وبيوت الكفر مهدومة ، ونيوب الشرك مهتومة ، وطوائف المحامية ، مجمعة على تسليم القلاع الحامية ، وشجعانه المتوافية ، مذعنة لبذل القطائع الوافية ، لايرون فى ماء الحديد لهم عصره ، ولا فى نار الأنفة لهم نصرة ، قد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، ويدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة إلى أيدى أصحاب الميمنة .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمده الله بمداركته ، وأنجدُه بملائكته ، فكسرهم كسرة مابعدها جبر ، وصرعهم صرعة لاينتعش بعدها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من قتلت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أصناف يخيل بأنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار ، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضاً بثار ، فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم قنا تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فإذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة وافترسه ، فكان اليوم مشهوداً ، وكانت الملائكة شهوداً ، وكان الضلال صارخاً وكان الإسلام مولوداً ، وكانت ضلوع الكفار لنا جهنّم وقوداً . وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، وآكد وصله بالدين وعلائقه ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، ما دهموا قط بأمر إلا وقام بين دهمائهم يبسط لهم باعه ، وكان مد اليدين فى هذه الدفعة وداعه ، لاجرم

أنهم يتهافت على ناره فراشهم ، ويجتمع فى ظل ضلالة خشاشهم ، ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ، يرونه ميثاقاً يبنون عليه أشد عهد وأوثقه ، ويعدونه سوراً تحفر حوافر الخيل خندقه ، وفى هذا السوم أسرت سراتهم ، ودهيت دهاتهم ، ولم يفلت منهم معروف إلا القومصى ، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال ، ومليا يوم الخذلان بالاحتيال ، فنجا ولكن كيف ، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف ، ثم أخذه الله تعالى بعد أيام بيده ، وأهلكه لموعده ، فكان لعدتهم فذلك ، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا ، البيضاء صنعا ، الخافقة هى وقلوب أعدائها ، الغالبة هى وعزائم أوليائها ، المستضاء بأنوارها إذا فتح عينها النشر وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر ، فافتتح بلاد كذا وكذا ، وهذه أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلاداً وهى مزارع وفدن ، كل هذه ذوات معاقل ومعاقر ، وبحار وجزائر ، وجوامع ومنابر ، وجموع وعساكر ، يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ، ويحصن منها كفراً ويزرع إيماناً ، ويبوىء أهل القرآن بعد أهل الصلبان للقتال عن دين الله مقاعد ، ويقر عينه وعيون أهل الإسلام أن يعلق النصر منه ومن عسكره بجارٍ ومجرور ، وأن نظفر بكل سور ، ما كان يخاف زلزاله ولازياله إلى يوم النفخ فى الصور .

ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليه كل طريد منهم وشريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم ، فلما نزلها الخادم رأى بلداً كبلاد ، وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته ، فزاول البلد من كل جانب ، فإذا أودية عميقة ، ولجج وعر غريقة ، وسور قد انعطف عطف السوار ، وأبرجة قد

عليها معرج ، والخيل فيها متولج فنزل عليها وأحاط بها وقرب منها ، وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكنافه ، وقابلها ثم قاتلها ، ونزلها ثم نازلها وبرز إليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، وضمها ضمة ارتقب بعدها الفتح ، وصدع جمعها فإذا هم لايصبرون على عبودية الحد عن عتق الصفح ، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم الخادم فى لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التى تتولى عقوبات الحصون عصيها وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التى ترمى ولا تفارقها سهامها ولكن تفارق سهامها نصالها ، فصافحت السور فإذا سهمها فى ثنايا شرفاتها سواك ، وقدم النصر نسراً من المنجنيق يخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماك ، فشج مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيبها صم أعلاجها ، ورفع منار عجاجها فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، وأمكن النقاب ، أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر إلى سيرته الأولى من التراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه الأخرق الدال على لطافة أنمله ، وأسمع الصخرة الشريفة أنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقتله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الأرض ، وفتح من السور باب سدّ من نجاتهم أبواباً ، وأخذ ينقب فى حجره فقال عنده الكافر : ياليتنى كنت تراباً ، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ، وفى الحال خرج طاغية كفرهم ، وزمام أمرهم ، ابن بارزان (٧٢٢) سائلاً أن يؤخذ البلد بالسلم لا بالعنوة ، وبالأمان لا بالسطوة ، وألقى بيده إلى التهلكة . وعلاه ذل الهلكة بعد عز المملكة ، وطرح جنبه على التراب ، وكان جنباً لا يتعاطاه طارح ، وبذل مبلغاً من القطيعة لايطمح إليها أمل طامح ، وقال : هاهنا أسارى مسلمون يتجاوزون الألوف ، وقد تعاقد

---

(٧٢٢) يعنى هنا Baléan d'ibelin

الفرنج على أنهم إن جُمحت عليهم الدار ، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار ، بدىء بهم فعجلوا ، وثنى بنساء الفرنج وأطفالهم فقتلوا ، ثم استقتلوا بعد ذلك ، فلا يقتل خصم إلا بعد أن ينتصف ، ولايفلّ سيف من يد إلا بعد أن تقطع أو ينقصف ، فأشار الأمراء بأخذ الميسور من البلد المأسور ، فإنه لو أخذ حرباً فلابد أن يتقحم الرجال الأنجاد ، ويقال كفوا عنها فى آخر أمر قد نيل من أوله المراد ، وكانت الجراح فى العساكر قد تقدم منها ما أعتقل الفتكات ، وأثقل الحركات ، فقبل منه المبذول عن يدٍ وهم صاغرون ، وانصرف أهل الحرب عن قدرة وهم ظاهرون ، وملك الإسلام خطة كان عهده بها دمنة سكان ، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان ، لاجرم أن الله تعالى أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أهل الحق وأسخطهم ، فإنهم ، خذلهم الله ، حموها بالأسل والصفاح ، وبنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الديوية والاستبارية فيها بكل غريبة من الرخام الذى يطرده ماؤه ، ولاينطرد لألاؤه ، قد لطف الحديد فى تجزيعه ، وتفنن فى توشيعه ، إلى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد ، كالذهب الذى فيه نعيم عنيد ، فما ترى إلا مقاعد كالرياض لها من بياض الترخيم وفراق ، وعمداً كالأشجار لها من التنبيت أوراق .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود ، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود ، وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شعبان فكادت السماوات يتفطرن للسجود لا للوجوم ، والكواكب منها تنتثر للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طريقها مسدودة ، وطهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث يعقدها ، وجهر باسم أمير المؤمنين فى وطنه الأشرف من المنبر ، فرحب به ترحيب من بر بمن بر ، وخفق علماه فى خفافيه ، فلو طار سروراً لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد فى استفتاح بقية الثغور ، واستشراح ما ضاق

وأيام الشقاء قد مردت مواردها ، والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاسست العساكر خلالها ، ونهبت ذخائرها وأكلت غلالها ، فهى بلاد ترفد ولا تسترفد ، وتجم ولا تستنفد ، ينفق عليها ولا ينفق منها ، وتجهز الأساطيل لبحرها ، وتقام المرابط بساحلها ، ويدأب فى عمارة أسوارها ومرمات معاقلها ، وكل مشقة بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة ، وأطماع الفرنج بعد ذلك غير مرجئة ولا معتزلة ، فإن يدعو دعوة يرجو الخادم من الله أنها لاتسمع ، ولن يكفوا أيديهم من أطراف البلاد حتى تقطع ، وهذه البشائر لها تفاصيل لاتكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولابها سوى المشافهة تتخلص ، فلذلك نفذ الخادم لساناً شارحاً ، ومبشراً صارحاً ، يطالع بالخبر على سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته ، وهو فلان ، والله الموفق » .

المصادر والمراجع العربية :-

أولاً : المصادر :-

(١) ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ /١٣٣٨م) على بن أحمد الكرم
أ - التاريخ الباهر تحقيق عبد القادر طليمات
القاهرة ١٣٨٢هـ /١٩٦٣م
ب - الكامل فى التاريخ ط . بيروت

(٢) الاصطخرى (ت فى القرن الرابع الهجرى) أبواسحق ابراهيم بن محمد الفارسى
المسالك والممالك تحقيق د / محمد جابر الحينى
القاهرة ١٣٨١ هـ /١٩٦١م

(٣) الأصفهانى (عماد الدين أبو عبد الله محمد بن أبى الرجاء) ت ٥٩٧ هـ /١٢٠١م
كتاب الفتح القسى فى الفتح القدسى مصر ١٣٢١ هـ

(٤) ابن جبير (ت ٦١٤ هـ /١٢١٧ م) أبو الحسن محمد بن أحمد
رحلة ابن جبير
تحقيق د / حسين نصار القاهرة ١٣٧٤ هـ /١٩٥٥ م
ونسخة ط . بيروت

(٥) ابن الجوزى (ت ٦٥٤ هـ /١٢٥٧ م) شمس الدين أبو المظفر يوسف ابن قزا وأوغلى سبط ابن الجوزى :
مرآة الزمان ط . حيدر آباد

(٦) ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ / ١٢٧٠ م) شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم ابن أبى بكر الشافعى :
وفيات الأعيان ط . بيروت ١٩٧٢

(٧) الذهبى (ت ٧٤٨) الحافظ شمس الدين
دول الاسلام
تحقيق محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم
ط . القاهرة ١٩٧٤م

(٨) أبو شامة (ت ٦٦٠ هـ) بهاء الدين أبو محمد بن محمد بن عبد الرحمن ابن اسماعيل المعروف بأبى شامة المقدسى الدمشقى الروضتين فى أخبار الدولتين .

تحقيق د / محمد حلمى محمد أحمد ط مصر

(٩) ابن الشحنة (حوالى القرن التاسع الهجرى) أبو الفضل محمد الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب .

بيروت ١٩٠٩ م

(١٠) ابن شداد (٦٣٢هـ / ١٢٣٤ م) القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع ابن تميم :
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تحقيق محمد محمود صبح سلسلة كتب ثقافية ١٩٦٢ م

(١١) الشهرستانى (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) أبو الفتح بن عبد الكريم
الملل والنحل تحقيق محمد بن فتح الله بدران
ط . أولى مطبعة الأزهر

(١٢) صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى (ت ٧٣٩ هـ)
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع .
مصر . ط . أولى ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م

(١٣)ابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ) غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الطبيب الملطى المعروف بابن العبرى .
مختصر تاريخ الدول تحقيق صالحانى بيروت ١٨٩٠ م

(١٤) ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ) أبو الفلاح عبد الحى :
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب
ط . بيروت الأولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م

(١٥) عمارة اليمنى (ت ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م) أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على
النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية
ط فى مدينة شالون ١٨٩٧ م

(١٦) أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢١ م) اسماعيل بن عماد الدين صاحب حماه
أ - تقويم البلدان ط . باريس ١٨٤٠ م
ب - المختصر فى أخبار البشر ط . بيروت

(١٧) ابن الفرات المصرى (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم المعروف بابن الفرات المصرى)
تاريخ الدول والملوك تصوير شمس رقم ٣١٩٧ تاريخ دار الكتب ومجلد ٤ ج ١ ، ج ٢ تحقيق حسن محمد الشماع ١٣٨٦ هـ ، ١٣٨٩ هـ

(١٨) ابن القلانى (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م) أبو يعلى حمزة
ذيل تاريخ دمشق . ط . بيروت ١٩٠٧ م

(١٩) ابن قاضى شهبة :
الكواكب الدرية فى السيرة النورية
مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٢٢٧ تاريخ

(٢٠) ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن القرشى الدمشقى البداية والنهاية

(٢١) أبو المحاسن (ت ٨٧٤ هـ / ١٣٥٤ م) جمال الدين بن تغرى تغرى بردى النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
ط . دار الكتب المصرية

(٢٢) المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٠ م) تقى الدين أحمد من على
أ- اتعاظ الحنفا فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ج ٢ ، ج ٣
تحقيق د / محمد حلمى محمد أحمد
ب - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ط . بيروت
ج - السلوك لمعرفة دول الملوك التأليف والترجمة والنشر
د - إغاثة الأمة بكشف الغمة نشر د / الشيال وزيادة القاهرة ١٩٥٧ م

(٢٣) ابن مماتى (الأسعد) ت ٦٠٦ هـ /١٢٠٩ م)
قوانين الدواوين مطبعة مصر ١٩٤٣
جمع وتحقيق عزيز سوريال عطية .

(٢٤) ابن ميسر (ت ٦٣٧ هـ /١٢٧٨ م) محمد بن على بن يوسف بن جلب :
تاريخ مصر (ط . هنرى ماسيه) القاهرة ١٩١٩ م .

(٢٥) ناصرى خسرو :
السفرنامة ترجمة د / يحيى الخشاب ط مصر

(٢٦) النويرى (٧٢٣ هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
نهاية الأرب فى فنون الأدب
مصر ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ م

(٢٧) ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ - ١٢٩٨ م) جمال الدين محمد بن سالم

(٢٨) ابن الوردى (الشيخ زين الدين عمر بن الوردى)
تتمة المختصر فى أخبار البشر مصر ١٢٨٥ هـ

(٢٩) ياقوت (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى
أ- معجم البلدان ط . بيروت
ب - المتفق لفظا والمختلف صقعا ط ١٨٤٦ م

ب - المراجع :

١ - أحمد أحمد شلبى (الدكتور)

موسوعة التاريخ الاسلامى الطبعة الخامسة ١٩٨٢ م

٢ - اسحق تاوضروس عبيد (الدكتور)

روما وبيزنطة (من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين .

ط - القاهرة ١٩٧٠ سلسلة المكتبة التاريخية

٣ - باركر (أرنست)

الحروب الصليبية ترجمة د / السيد الباز العرينى

القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٠م

٤ - جوزيف نسيم عبده (الدكتور)

أ - الوحدة وحركة اليقظة العربية القاهرة . ط . الأولى ١٩٦٦

ب - لويس التاسع فى الشرق الأوسط ط . مصر ١٩٥٦ .

٥ - حسن إبراهيم حسن (الدكتور)

أ - الفاطميون فى مصر المطبعة الأميرية ١٩٣٣ م

ب - النظم الاسلامية بالاشتراك مع د /على إبراهيم

مصر ١٣٥٨ هـ /١٩٣٩ م

٦ -حسن الباشا (الدكتور)

الألقاب الاسلامية فى التاريخ والوثائق والآثار

ط . القاهرة القاهرة ١٩٥٧ م

٧ - حسين مؤنس (الدكتور)

نور الدين محمود

ط . القاهرة ١٩٥٩ م

٩ - رنسيمان « ستيف »

تاريخ الحروب الصليبية

ترجمة د / السيد الباز العرينى

ط . بيروت . ١٩٨١

١٠ - سرهنك (اسماعيل)

حقائق الأخبار عن دول البحار

مصر . طبعة أولى ١٣٤١ هـ /١٩٢٣ م

١١ - سعيد عبد الفتاح عاشور « الدكتور »

أ - الحركة الصليبية مصر . طبعة أولى ١٩٦٣ م

ب - أوربا العصور الوسطى . مصر ١٩٦١

ج - أضواء جديدة على الحروب الصليبية . المكتبة الثقافية العدد ١١٨

١٢ - السيد عبد العزيز سالم « الدكتور »

أ - طرابلس الشام فى التاريخ الاسلامى الاسكندرية ١٩٦٦٦ م

ب - تاريخ البحرية الاسلامية (الجزء الأول) الاسكندرية ١٩٨١ م

١٣ - سيد عبد الحريزى :

الأخبار السنية فى الحروب الصليبية مصر . ط . الثانية ١٣٢٩ هـ

١٤ - سيديو

خلاصة تاريخ العرب ط . دار الآثار بيروت ١٤٠٠ هـ

١٥ - السيوطى (الأمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر) ت ٩١١ هـ

تاريخ الخلفاء الطبعة الراعبة ١٣٨٩ هـ /١٩٦٩ م

١٦- شحاتة عيسى إبراهيم (الدكتور)

القاهرة الألقاب كتاب العدد رقم ١٨٤

١٧ ـ عبد القادر طليمات :

مظفر الدين كوكبورى العدد ٣٢ أعلام العرب

١٨ ـ عبد الرحمن زكى (الدكتور)

بناء القاهرة فى ألف عام القاهرة ١٩٨٦ المكتبة الثقافية .

١٩ ـ عبد المنعم ماجد (الدكتور)

أ ـ الناصر صلاح الدين يوسف بيروت ط . الثانية ١٩٦٧

ب ـ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر . الاسكندرية ط . الثانية ٩٧٦

ج ـ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى بيروت ١٩٦٦

د ـ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى القاهرة ط . الثانية ١٩٧٣

٢٠ ـ على حسن الخربوطلى (الدكتور)

مصر العربية الاسلامية القاهرة ١٩٦٣ .

٢١ ـ على مبارك :

الخطط التوفيقية الجديدة القاهرة ١٩٨٠

٢٢ ـ عمر أبو النصر

قلعة ألموت ط . بيروت ١٩٧٠ م

٢٣ ـ فيشر ه . أ . ل

تاريخ أوربا العصور الوسطى

ترجمة د /زيادة ود / العرينى ط . القاهرة ١٩٦٦ م

٢٤ ـ فيليب حتى (الدكتور)

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين

ترجمة د . كمال اليازجى ط . بيروت ١٩٥٩ م

٢٥ ـ كمال الدين سامح (الكتور)

العمارة الاسلامية فى مصر المكتبة الثقافية

٢٦ ـ لينبول (ستانلى)

سيرة القاهرة

ترجمة الدكتورين حسن إبراهيم وعلى إبراهيم القاهرة ١٩٥٠ م

٢٧ ـ مجموعة أبحاث الندوة الدولية (القاهرة فى ألف عام)

الهيئة العامة للكتاب

٢٨ ـ محمد جمال الدين سرور (الدكتور)

أ ـ مصر الفاطمية مصر ١٩٦٠ الألف كتاب رقم (٢٧٤) .

ب ـ سياسة الفاطميين الخارجية القاهرة ط . الرابعة ١٣٩٣ هـ /١٩٧٣ م

ج ـ الدولة الفاطمية فى مصر وسياستها الداخلية القاهرة ١٩٧٩ م

د ـ الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عهده القاهرة ١٣٥٠ هـ / ١٩٥٠ م

٢٩ ـ محمد حلمى محمد أحمد (الدكتور)

مصر والشام والصليبيون القاهرة ١٣٩٩ هـ /١٩٧٩ م

٣٠ ـ محمد عبد الله عنان

تراجم إسلامية وشرقية وأندلسية . ط . الأولى ١٩٤٧ م

٣١ ـ محمد قنديل البقلى

التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . مصر ١٩٨٤ م

٣٢ ـ نخبة من المؤرخين

تاريخ الحضارة المصرية التأليف والترجمة والنشر

(العصر اليونانى والرومانى فى العصر الاسلامى)

٣٣ ـ محمد حمدى المناوى (الدكتور)

الوزارة والوزارة العصر الفاطمى المكتبة التاريخية

٣٤ ـ نظير سعداوى (الدكتور)
أ ـ التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين القاهرة ١٩٥٧ .
ب ـ جيش صلاح الدين القاهرة . ط . الثانية ١٩٥٩

٣٥ ـ المرفى (محمد على) الدكتور
شعراء الجهاد فى عصر الحروب الصليبية فى بلاد الشام القاهرة . ط أولى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩ م

٣٦ ـ وفاء محمد على (الدكتور)
أ ـ الدولة البورية ودورها فى عصر الحروب الصليبية القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م
ب ـ من صور الجهاد الاسلامى فى عصر الحروب الصليبية القاهرة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م

٣٧ ـ ول . ديورانت
قصة الحضارة ج ٢ من المجلد الرابع ترجمة محمد بدران
القاهرة ط . الثانية ١٩٦٤ م

« المراجع الأجنبية »

1 - Besand (W) Palmer (E. H)
Jerusalm, The City of Herod and Saladin (Landon 1899

2 - BRokelman (Karl)
History of Islamic People (London 1959

3 - Cambridge Med. history (Cambridge 1957)

4 - Encyclopedia Britanica (London 1972)

5 - Encyclopèdie de L'Islam (Leiden, 1 ère ed, 2 ed)

6 - Grousset (R)
History des croisades et du Rpyaume Franc de Jerusalem (Paris 1943- 6)

7 - Kerr (A. J)
The crusades. (London 1966)

8 - King (E. J),
The Knights hospitallers in the holy Land (London 1931)

9 - Kirk (G)
a Short history of the Middle East. (London 1966)

10 - Lamb (H)
The crusades (The flame of Islam) (Newyork 1931)

11 - Lane- poole (S)
1 - A history of Egypt in the middle ages (London 1901)
2 - Saladin (London 1898)

12 - Lowis (Bernard)
The arabs in history (london)

13 - Louis& Jonathan,

14 - Saunders (J.J)
A history of Medieval Islam (London)

15 - Schlumberger (G)
1 - Campagnes du Roi Amaury de Jerusalem, Egypte (Paris 1966)
2 - Renaud de Chatillon (Paris 1898)

16 - Sertstevens (A. T)
Le Livre Markopolo (Paris, 1955)

17 - Setton (K. M)
A history of the Crusade (pensylvania 1958)

18 - Stevenson (W. B)
The Crusaders in the East. (Cambridge 1907)

19 - Wiet (G)
L'Egypte arabe (Paris 1937)

20 - Zoe Oldenboury.
The crusades (Newyork 1966)

٢١ - قرة جلبي
تاريخ روضة الأبرار بولاق ١٢٤٨ هـ

« كشاف الموضوعات »